وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجيلالي بونعامة –خميس مليانة–

كليّة العلوم الإنسانيّة والإجتماعيّة

قسم العلوم الإنسانيّة

محاضرات في تاريخ المشرق الإسلامي
ما بين القرنين(2هـ–9هـ/8م–15م)

مطبوعة أكاديميّة موجّهة إلى طلبة السّنة الثّالثة ليسانس

تخصّص: تاريخ عام

السداسي الخامس

إعداد: أ.د. أم الخير عثماني

السّنة الجامعيّة:1444هـ–1445هـ/2022م–2023م

ملاحظات:

إليك أيّها الطالب مجموعة محاضرات تخصّ تاريخ وحدة (المشرق الإسلامي مابين القرنين (2هـ-9هـ/8م-15م))، مع ملاحظة أنّ المحاضرات الأولى ذكرت فيها المعلومة، وحلّلتها؛ بينما لم أحلّل تلك التي ذكرتها في محاضرات الدّولة الفاطميّة، وما يليها بشكل موسع؛ لكي يحاول الطالب بنفسه التّعليق، والتّحليل، وغيرهما، كما أنّني لم أشرح المصطلحات الخاصّة بأسماء البلدان، والنّواحي إلاّ قليلا، لذلك فعلى الطالب العودة إليها من خلال المعاجم.

فهرس الموضوعات

الموضوع والصفحة

1. الدّعوة العبّاسيّة وتأسيس الدّولة العباسيّة: 5-10

2. التّطور السّياسي للدّولة العبّاسيّة: 11-37

أوّلاً. الخلفاء العباسيون بين ولاية العهد وبعض أعمالهم: 11-26

ثانيا. الوزارة، والوزراء، والكتّاب، والحجّاب في الدّولة العباسيّة: 27 -37

3. حركات المعارضة، والثورات ضدّ الحكم العباسي: 38 - 58

أوّلاً: تصفية الخصوم من رجال الدّعوة العباسيّة: 38 - 42

ثانيا: الحركات الفارسيّة: 43 - 47

ثالثا:الحركات العلويّة: 47 -54

رابعا: حركات معارضة متأخرة: 55 -58

4. التّطور الإجتماعي في الدّولة العباسيّة: 59 - 97

أوّلاً: بِنية المجتمع العبّاسي من خلال آثار "الجاحظ": 59 - 83

ثانيا: الزّندقة، والشّعوبيّة، ومظاهرهما في المجتمع العباسي: 84 - 97

5. جوانب حضارية و أزمات إقتصادية في المجتمع العبّاسي: 98 - 118

6. الدّويلات المستقلّة عن الدّولة العباسيّة: 119 - 120

أوّلاً. أخبار الطاهريّة، والصفاريّة، والسّامانيّة: 120 - 126

ثانيا . أخبار العلوية، والزّيديّة: 127 - 128

ثالثا . أخبار الغزنويّة: 127 -128

رابعا . الغزنويون والسّلاجقة: 128 – 132

خامسا . الطولونية، والإخشيديّة في مصر وبلاد الشام: 133 – 134

سادسا . أخبار الدّولة الحمدانيّة في مصر وبلاد الشّام: 135 – 137

سابعا . الخوارزمية، وأخبار المغول، واجتياحهم لبغداد: 137 – 142

7. الدّولة الفاطميّة : 143 – 162

8. سقوط الدّولة الفاطميّة، وظهور الدّول السّلطانيّة (الأيوبيون، المماليك): 163 – 168

أوّلاً . الدّولة الأيوبيّة: 163

ثانيا . الدّولة المملوكيّة: 163 – 168

الملاحق: 170 –171

1 . الدّعوة العبّاسيّة، وتأسيس الدّولة العباسيّة:

الانتقال من عهدة الحكم الأموي إلى العبّاسي يطرح وجوب دراسة الفترة الانتقاليّة بما تحمله من محاولات علوية؛ لاستعادة حقّهم في الحكم على حسب ادّعائهم، ومعرفة حجم الأحقاد المتراكمة عند الموالي[1]، وغيرهم لإسقاط هذا الحكم، واستبداله ببديل، يحقّق العدالة والمساواة والحرية، فكيف تمّ ذلك؟ .

– **أسباب زوال الحكم الأموي للدّولة الإسلاميّة**: يمكن جمعها في نقاط هي:

- كان الحكم الأموي قائما على السّيف، ليس مع أعداء الإسلام فحسب؛ بل مع المسلمين أيضا، خاصّة الموالي.
- قائم على العصبي{ة؛ إذ فرقّت الدّولة الأمويّة ما بين القبائل العربيّة، فحابى بعض حكّامها العرب الذين يرتبطون معهم بالنّسب، خاصّة المصاهرة.
- حقد الموالي على بعض حكّام بني أميّة، وسعيهم للخروج ثائرين مع أيّ رافض للحكم الأموي، وهو دليل على عدم تطبيق العدل لدى أغلب حكّام بني أميّة، خاصّة وأنّهم استُعملوا كخدم للعرب، ومُنعوا من الزّواج بالعربيات؛ لئلاّ يحدث التّمازج، رغم كونهم مسلمين" سُئل بعض بني أميّة: لماذا زال مُلككم؟ قال: انّا شُغلنا بلذّاتنا عن تفقُّد ما كان تفقده يلزمنا، فظلمنا رعيّتنا، فيئسوا من إنصافنا، وتمنوا الرّاحة منّا، وتُحومل على أهل خراجنا، فتخلوا عنّا، وخُربت ضياعنا، فخلت بيوت أموالنا، ووثقنا بوزرائنا، فآثروا مرافقهم على منافعنا، وأمضوا أمورا دوننا أخفوا علمها عنّا، وتأخّر عطاء جندنا، فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم أعادينا، فتظاهروا معهم على حربنا، وطلبَنا أعداؤنا، فعجزنا عنهم؛ لقلّة أنصارنا، وكان استتار الأخبار عنّا من أوكد أسباب زوال مُلكنا"[2].

– **الدّعوة العباسيّة**:

لم يكن سقوط الدّولة الأموية، وقيام الدّولة العباسيّة مجرد تغيّير في الأسرة الحاكمة؛ إنّما كانت تحولا جذريا في تاريخ الإسلام، تحقّق بفضل دعوة، وتنظيم ثوريّين ناجحين، واسعي الإنتشار استُعد لهما بتنظيم سرّي عقائدي وآخر عسكري، ولم يكن للدّعوة العباسيّة اسما ترتكز إليه في البداية، غير ارتكازها على حزب آل البيت الهاشمي المؤلّف من علويّين، وعبّاسيّين، وأنصارهم الموالي العجم، وقد تعرّض الشّيعة المطالبون بحقّهم الشّرعي في الخلافة إلى تنكيل بني أميّة، خاصّة بمقتل الحسين بن علي في معركة كربلاء.

أصولها:

بعد استشهاد الحسين بن علي ﷺ في كربلاء انتشر التّشيع، فنادى فريق الشّيعة بعلي زين العابدين بن الحسين بن علي[3] إماما (الإماميّة)[4]، بينما نادى فريق تزعمّه المختار بن عبيد الله الثّقفي، وقائد حرسه "عمرو بن كيسان"، وكان من موالي الفرس بالدّعوة لمحمّد بن علي بن أبي طالب (ابن الحنفيّة) بن خولة بنت قيس بن جعفر الحنفي، وسميّت فرقة المختار (المختارية)، وأيضا(الكيسانيّة)، وسميّت أيضا اسما ثالثا هو "الهاشميّة"، نسبة لأبي هاشم، عبد الله بن محمّد بن الحنفيّة، مع العلم أنّ ابن الحنفيّة كان يزهد في الخلافة، فبعد القضاء على حركة ابن الزبير الذي كان متبرئا من الكيسانيّة وأباطيلها، بايع ابن الحنفية الخليفة عبد الملك بن مروان، وبعد وفاة ابن الحنفية اضطربت أفكار الشّيعة، وتعددّت فرقهم إلى مايلي، منها: (فرقة استمرّت على ولائها لابن الحنفيّة، وقالت بغيبته و رجعته، و فرقة: نادت بإمّامة ابنه أبي هاشم عبد الله، وفرقة الإماميّة).

في هذه الأثناء كان علي بن عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما[5]، وابنه بالحُميمة بالشّام التي كان الوليد قد أقطعه إيّاها، فنزل عنده أبو هاشم عبد الله بن الحنفية فارًّا من نوايا الخليفة سليمان بن عبد الملك السّيئة نحوه، وفي أوّل94هـ/713م توفي زين العابدين بن الحسين في المدينة تاركا ابنين هما: محمّد الباقر، و زيد، و بعد خمس سنوات99هـ/718م توفي أبو هاشم عبد الله بن محمّد بن الحنفية من سمّ سقاه له مبعوث من الخليفة سليمان بن عبد الملك، وقبل وفاة أبي هاشم كان قد عاد إلى محمّد بن علي بن عبد الله بن عبّاس[6] وهو بالحُميمة، وأعلمه أنّ الخلافة سائرة إلى ولده، وأعلمه بما يصنع، ثمّ مات عنده، بعدما أمدّه بأسماء دعاة الشّيعة في الكوفة[7] مركز الدّعوة

الشّيعيّة في العراق وخراسان[8]، وعلى أساس هذه الوصيّة ورث محمّد بن علي العبّاسي حقّ الكيسانيّة في الإمامة، فبايع الشيعة محمّد بن علي قبل موته، و استمرّوا في نشر الدّعوة لمحمّد بن علي العبّاسي عن طريق الدّعاة.

وقيل: أنّ تنازل أبي هاشم عن حقّه في الخلافة لمحمّد بن علي يفسّره؛ كوْن الدّعوة العبّاسية سارت بعد ذلك في إطار الدّعوة لآل البيت أو الرّضا من آل محمّد، تمويها على الشيعة خاصّة، و ادّعى العبّاسيون أنّ الحقّ في الخلافة للعبّاس؛ لأنّه العمّ، والعمّ يسبق ابن العمّ في الوراثة، وسمّى الحزب الهاشمي نفسه بالهاشمي مثل: الإماميّة، سترا لمطامعه، فمحمّد بن علي شخصية ذكيةّ؛ لذلك نظّم الدّعوة كالتالي: التزام السّريّة- الدّعوة العباسيّة يجب أن تكون بعيدة عن مركز الخلافة الأمويّة-ضرورة توفير العناصر المؤيدة لآل البيت؛ فكسب أنصارا جدّدًا من شيعة فارس الذين كانوا يميلون إلى أيّ مغلوب، خاصّة ممّن اضطهدتهم الخلافة الأموية-اختيار الكوفة؛ لأنّها مهد التّشيع، وخراسان لبُعْدها عن مقرّ الخلافة الأموية مركزا لدعوته، كما أنّ الخراسانيّن أسهل انقيادا للدّعوة-صرف نظر الأمويّين عن مركز نشاطه الرّئيسي السّرّي "الحميمة"، الذي أقام فيها في حياة والده، ثمّ بعد وفاته118هـ-736م على تنظيم الدّعوة-ولضمان السّريّة أكثر اختار أحد الطّرق الرّئيسيّة المستخدمة؛ لتنقل دعاته من خراسان إلى الحميمة، كما اختار أيضا طريق الكوفة- خراسان التّجاري.

وأوحى لدعاته بالتّنكر في زيّ التّجار-ولا يُسمح لأحد من الدعاة بالاتّصال بالحميمة، إلاّ عن طريق داعي الدّعاة بالكوفة محمّد بن علي، كما تتّضح مكانة خراسان في الدّعوة، فيما صرّح محمّد بن علي العبّاسي، فالحجاز كان أهلها زهّادا، والخلافة بالنّسبة لهم ليست لبني هاشم؛ وإنّما لقريش؛ لذلك فشلت حركة المدينة ضدّ الحكم الأموي، أمّا البصرة، فخليط من البشر، إقتصادية، لا شأن لها بالسّياسة، يقطنها قليلا من الشيعة، فكثيرها يُفضل أن يكون عبد الله المقتول، أمّا خراسان، فتسكنها القبائل اليمنيّة العربيّة؛ لذلك فالدّعاة، والنّقباء بها، كانوا عربا، "أمّا الكوفة وسوادها، فشيعة علي وولده، وأمّا البصرة وسوادها، فعثمانيّة، تُدين بالكفّ، وتقول: "كن عبد الله المقتول و لا تكن عبد الله القاتل، و أمّا الجزيرة، فحرورية، مارقة، و أمّا أهل الشّام لا يعرفون إلاّ آل أبي سفيان، وطاعة بني مروان وعداوة راسخة، وجهلا متراكما، وأمّا مكة والمدينة، فقد غلب عليهما أبو بكر، وعمر، ولكن عليكم بخراسان، فإنّ هناك العدد الكثير، والجَلَد الظاهر، وهناك صدورا سليمة، وقلوبا فارغة، لم تتقاسمها الأهواء، ولم يتوزعها الدُّغل، وهم جند لهم أبدانا، وأجساما، ومناكبا، وكواهلا، وهاماتا، ولحى، وشواربا، وأصواتا هائلة، ولغاتا فخمة، تخرج من أجواف منكرة، وبعد: فإنّي أتفاءل إلى المشرق، وإلى مطلع سراج الدنيا، ومصباح الخَلْق"[9].

كان محمّد بن علي هو المدبّر على رأس الدّعوة العباسيّة من99هـ-118هـ/718م-736م التي توفيّ فيها الذي أخفى عن الدّعاة أنّه يريد الحكم لنفسه؛ بل قال: أنّه يريد تقويض الحكم الأموي، وإعادة الحقّ لأصحابه الشّرعيّين، حتّى يجتذب الأنصار إليه، الدّليل، أنّ أبا سلمة الخلاّل[10] وزير آل محمّد لما اكتشف أمر حقيقة الدّعوة قبيل الإعلان عن الدّولة العباسيّة، أراد أن يقيم خلافة علوية، مرشحا كلاّ من جعفر الصادق-عبد الله المحض-عمرو بن زين العابدين، ولكنّه فشل.

تنظيمها:

توّزع الدعاة الذين كانوا كلّهم من أهل الإدارة، والقيادة للحرب، ولم يشتهروا بالعلم، فكان للعراق ثلاثة هم: ميسرة العبدي102هـ-105هـ/721م-724م، باكير بن ماهان105هـ-127هـ/724م-745م، أبو سلمة الخلاّل127هـ-132هـ/745م-750م، تنكّروا في زيّ التّجار أو الحرفيّين أو المؤدّبين و اندسّوا بين النّاس.

1. دعاة خراسان كانوا سبعة: أوّلهم أبو عكرمة السراج.
2. يلي طبقة الدّعاة طائفة النّقباء الذين كان أكثرهم من العرب يأتمرون بأمرهم، و يجهلون إمّام الوقت، وكان لكلّ داعية12نقيبا، ولكلّ نقيب 70عاملا يديرون الوحدات المتفرّعة، ويشرفون على الخلايا السّريّة المنبثقة في مختلف الأقاليم، وكان النّقباء، والدّعاة يخلصون للدّعوة، ولهم ثقافة دينيّة ولغويّة، فبكير بن ماهان كان له الفضل في تنظيم الدّعوة السّريّة بالعراق مدّة 22سنة، وكان موسرا، فلم يبخل على الدّعوة بأمواله، وخلفه أبو سلمة الخلاّل، واسمه "حفص بن سليمان" الفارسي، وكان كريما، سمحا، عالما بالأخبار والسّيّر والجدل

مدّة5 سنوات أنفق أموالا لنصرة الدّعوة العباسيّة، فكان صهر باكير بن ماهان، زوج ابنته، أمّا خراسان، فكانت مهمّة الدّعاة فيها صعبة، خاصة في ولاية "أسد بن عبد الله القسري"؛ إذ وشى رجل من كندة إليه بجمع من الدّعاة العباسيّين107هـ/725م، فاستقدمهم إليه، وفيهم أبوعكرمة السّراج، فقطع أسد أيدي من ظفر بهم، وصلبهم، وأقبل "عمّار العبادي" إلى باكير بن ماهان، وأبلغه الخبر، فكتب إلى محمّد بن علي بذلك.

3. قدم في109هـ/727م إلى ولاية أسد داعية يسمّى "زياد، أبو محمّد"، من طرف محمّد بن علي أقام بمرو، فأُخْبر به أسد، فاستقدمه، و قتله، ومعه 10من أهل الكوفة.

4. في ولاية أسد الثّانيّة، قتل الدّعاة، ونكّل بهم، وسجن بعضهم، مثل، سليمان بن كثير...

5. في118هـ/736م وجّه باكير بن ماهان عمّار بن يزيد إلى خراسان، داعيا لبني العباس، فنزل مرو، وتسمّى بخداش، داعيا إلى آل البيت، فأطاعه النّاس، وأظهر لهم دين الخُرمية، و رخّص لهم في نساء بعضهم، و لا صوم، ورلا حجّ، مُؤولا الصوم بمعنى، الصوم عن ذِكر الإمّام والصلاة؛ أي بالدّعاء له، والحجّ بالقصد إليه، فبلغ أسد خبره، فظفر به، ثمّ صُلب بآمُل، عندها توقّف محمّد بن علي عن مكاتبة دعاته بخراسان، ولم تحرز الدّعوة بخراسان إنتصارات، إلاّ بعد وفاة أسد 120هـ/738م.

6. ردّد الدّعاة والنّقباء بخراسان شعاراتا منها: المساواة التي كانت تستتر تحت نزعات متباينة، لقيت تأيّيد الشّعوبيّن العجم؛ لأنّها تخدم أهدافهم في إحياء المجد الفارسي القديم، وأيّدها بعض العرب على أسّاس أنّها تساوي الموالي بالعرب، استنادا إلى مبدإ الفقهاء في الإصلاح ومحاربة الظّلم والفساد، وطالب الدّعاة بالعودة إلى كتاب الله وسنّة رسوله، وهو ما دفع الدّعوة للانتشار، حتّى بلاد ماوراء النّهر، وكلّ ذلك في إطار الدّعوة للرّضا من آل البيت.

7. توفيّ محمّد بن علي 125هـ/743م بعدما أوصى بالخلافة لابنه إبراهيم[11]، وفي عهد هذا الأخير تأخذ الدّعوة منعطفا آخر من الصّدام والعمل الحربي، برزت فيه شخصية أباسلمة الخلاّل، الذي تولّى رئاسة الدّعوة، وأبا مسلم الخراساني[12] الذي قاد الثّورة العباسيّة بين129هـ/747م، و132هـ/750م.

8. بعد 128هـ/746م تحوّلت الدّعوة العباسيّة من دور السّريّة إلى مرحلة الجهر والكفاح المسلّح[13]، فاتّصل أبو مسلم بكبير الدّعاة الذي اختاره الإمّام إبراهيم داعيا للدّعاة في خراسان، وارتضاه الخراسانيون زعيما لها؛ لإسقاط الدّولة العربيّة وإحياء دولة العجم الفارسيّة، التي ستمثلها الدّولة العباسيّة مستقبلا، وأبو مسلم كان مولى لباكير بن ماهان، اسمه، عبد الرّحمن بن مسلم، وقيل: عبد الرّحمن بن عثمان بن سيّار الخراساني اشتراه باكير، ولقّنه أصول التّشيع، ثمّ اتّصل أبو مسلم بمحمّد بن علي عام125هـ/743م، ثمّ بابنه إبراهيم بعده، فوجهّه إلى خراسان 128هـ/746م، وعمره19سنة، وأوصاه "أنظر هذا الحيّ من اليمن، فألزمهم، واسْكن بين أظهرهم، فإنّ الله لا يُتمّ هذا الأمر، إلاّ بهم، فإنّهم ربيعة في أمرهم، وأمّا مُضر، فإنّهم العدو القريب الدّار، واقْتُل من شككت فيه، وإن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلّم العربيّة، فافعل، وأيّما غلام بلغ خمسة أشبار، فاقتله، ولا تخالف هذا الشيخ- يعني، سليمان بن كثير-، ولا تعصه، وإذا أُشكل عليك أمر، فاكتف به ميّ"[14]، ثمّ أرسل إليه إبراهيم براية النّصر، لتدخل مرحلة الجهر والكفاح العلني.

9. حاول نصر بن سيّار[15] والي خراسان جمْع صفّ العرب ضدّ الفرس بالقضاء على منازعاتهم، وحاول استمالة اليمنية، رغم أنّه مضري، وفشل في ذلك؛ إذ اشترط زعيم اليمنية على نصر أن يترك له منصبه، فقامت حرب بين نصر، وزعيم اليمنيّة، انتصر فيها جُديع، واستولى على مرو.

10. بعدها نزل أبو مسلم لقرية من مرو اسمها "سفيذنج"، وهناك بثّ دعاته في النّاس، مظهرا أمره، فتوافد عليه في ليلة واحدة سكان ستين قرية، وعقد اللّواء في25رمضان، وعقد الرّاية، قائلا:"أُذِنَ لِلَذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَأَنَّ الله عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرْ"[16]، ثمّ لبس السّواد هو، وسليمان بن كثير، ومواليه، وشيعته؛ ممّن أجاب الدّعوة من أهل سفيذنج، وتقاطرت عليه جموعا كثيرة من هرمز، ومرو، فرمّم

أبو مسلم حصنها، وأقام فيه مدّة، واشتبكت قواته بقوات نصر، وانتصر أبو مسلم فيها، ثمّ رحل من تلك القرية، بعد أن حصّنها، وخندق حولها بمن معه 7آلاف مقاتل، وضمّ إليه ابن الكرماني، واليمنيّة.

وكان نصر قد كتب كتابا إلى الخليفة مروان بن محمّد الخليفة الأموي127هـ -132هـ/745م-750م[17] يخبره بخطر أبي مسلم، ويخبره أنّ أبا مسلم يدعو النّاس إلى إبراهيم بن محمّد بن علي العباسي في شكل أبيات شعرية منها، (أَقُولُ مِنَ التَّعَجُبِ لَيْتَ شِعْرِي *أَأَيْقَاظٌ بَنِي أُمَيَّةَ أَمْ نِيَامٌ). فردّ عليه مروان بن محمّد، "إنّ الشّاهد يرى ما لا يرى الغائب، فأحْسِم الثّؤولل قبلك، وكان مروان بن محمّد قد وقع في يده كتابا، فضح سرّ الدّعوة العباسيّة، مفاده بألّا يدع في خراسان متكلّما بالعربيّة، فبعث مروان إلى عامله بالبلقاء، يأمره بالتّوجّه إلى الحميمة، والقبض على الإمّام إبراهيم، وشدّ وثاقه، وإرساله إليه، ففعل العامل ذلك، فسجنه مروان بن محمّد في سجن حرّان، حيث مات مسموما[18] .

وكان الإمّام إبراهيم قبل القبض عليه، قد نعى نفسه على أهل بيته، وأمرهم بالسّير إلى الكوفة مع أخيه أبي العبّاس السّفاح، عبد الله، وأوصى إلى السّفاح، وجعله الخليفة من بعده، فمضى أبو العباس، ومن معه من بيت الإمام إلى الكوفة، فأنزلهم أبو سلمة الخلاّل داعي دعاة العباسيّين في دار لأحد أتباعه، وكتم أمره نحوا من 40ليلة، وحاول أن يحوّل الأمر إلى آل علي بن أبي طالب عندما بلغه مقتل الإمام إبراهيم، لكنّه فشل، واضطرّ لمبايعة أبي العبّاس السّفاح بالخلافة، ولم يستطع محمّد بن خالد بن عبد الله القسري أمير الكوفة أن يصمد أمام العباسيّين، فسلّم لهم الكوفة، وعلى إثر ذلك ظهر أبو العبّاس السّفاح، ودخل الجامع، وبويع له بالخلافة في12ربيع الأوّل عام132هـ/750م.

وخطب خطبة، افتتحها بمدح آل النّبي، والطعن في السّبئيّة الذين نادوا بأحقّيّة الرّئاسة، والخلافة لغير العباسيّين؛ أي "آل علي"، ثمّ سبّ الأمويّين بني حرب، وبني مروان الذّين استاثرا بالخلافة ظلما، وظلموا أهلها إلى أن رُدّت إلى أهلها، ثمّ خاطب أهل الكوفة قائلا:" يا أهل الكوفة، أنتم محلّ محبّتنا، ومنزل مودّتنا، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك، ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجوْر عليكم، حتّى أدركتم زماننا، وأتاكم الله بدولتنا، فأنتم أسعد النّاس بنا، وأكرمكم علينا، وقد زدتكم في أعطياتكم مائة درهم، فاستعدّوا، فأنا السّفاح المبيح، والثّائر المبير[19].

خرج السّفاح إلى معسكر الخلال، حيث أقام شهرا، ثمّ ارتحل، فنزل المدينة الهاشميّة بقصر الإمارة، أمّا أبومسلم، فزحف على مرو في ربيع الثّاني130هـ/748م، وتمكّن من دخولها بمساعدة علي بن الكرماني، وقتل نحو600شخص، أمّا نصر بن سيار، فقد فرّ متخفيا نحو العراق، مارّا بنيسابور، فتعقبته جيوش أبي مسلم، لكنّه توفيّ ببلدة "سارة" من نواحي الرّي في130هـ/748م، ففتح أبومسلم "بلخ"، و"ترمذ"، وتخلّص من ولدي ابن الكرماني "علي"، و"عثمان"، فقتلهما ومعظم أصحابهما.

وهكذا تغلّب أبو مسلم على كلّ خراسان، فبعث العمّال على البلاد، ثمّ وجّه قحطبة بن شبيب إلى طوس ليفتحها، فنجح، وبلغ قتلى أنصار نصر بن سيّار الآلاف، ثمّ أمره أبومسلم بالزحف على نيسابور، حيث نزل نصر، ففرّ نصر منها، وتتّبع نصرا من مدينة لأخرى، حتّى توفيّ نصر بنواحي الرّي، التي استولى عليها قحطبة، وابنه الحسن، الذي استولى على همذان، وافتتح قحطبة "نهاوند"، "شهرزور"، "الموصل، وتوغّل في العراق، وتوفيّ قحطبة قبل أن ينازل قوات يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق، فخلفه على القيادة ابنه الحسن الذي قضى على ابن هبيرة.

وتركّزت المقاومة الأمويّة في الموصل 120ألف مقاتل، وتمّ الاشتباك على نهر الزّاب الأعلى، أحد روافد دِجلة من الشّرق، وانتهى بقتل الخليفة مروان بن محمّد في 11جمادي الآخرة132هـ/750م، وفراره، وغرق معظم جيشه بعد أن قطع الجسر، أمّا القوّات الأخرى، فكانت في واسط، حيث تحصّن القائد يزيد بن عمر بن هبيرة، فبعث السّفاح إليه أخيه المنصور، فاشتدّ الصراع إلى أن علم ابن هبيرة بنهاية مروان، حينها طلب الصلح والأمان، فأجاب عليه المنصور، لكنّه لم يف بوعده، فأمر بقتله، ومن معه من القادة.

يتبيّن أنّ وصول بني العباس إلى حكم الدّولة الإسلاميّة بعنوان الخلافة العباسيّة لم يكن مجرد تغيّير سلمي عادي؛ بل نتيجة تنظيم محكم وصل لتحقيق نتيجته المتوخاة.

---

(1) مولى، الرّبّ، الملك، السيّد، المعتق، النّاصر، الحليف، العقيد، العبد. أنظر، ابن منظور الإفريقي المصري(الإمام العلاّمة أبو الفضل مال الدّين، محمّد بن مكرم):لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، طبعة أولى، ج15، ص409.

(2) المسعودي(أبو الحسين، علي بن الحسين بن علي ت346هـ): مروج الذّهب ومعادن الجوهر، تقديم الدّكتور: يوسف البقاعي، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ج3، ص164.

(3) زين العابدين، أبو الحسن، علي بن الحسين بن أبي طالب، المعروف بزين العابدين، ويقال له: علي الأصغر، وليس للحسين عقب، إلاّ من ولد زين العابدين، وهو أحد الأئمّة الإثني عشر، ومن سادات التّابعين، وقال عنه الزهري: "مارأيت قرشيا أفضل منه"، وأمّه سلافة بنت يزدجرد آخر ملوك الفرس، وهي عمّة أمّ يزيد بن الوليد الأموي المعروف بالنّاقص، وكان قتيبة بن مسلم الباهلي أمير خراسان لما تتبّع دولة الفرس، وقتل فيروز بن يزدجرد بعث بابنتيه إلى الحجاج بن يوسف الثّقفي، وكان يومئذ أمير العراق، وهو نائبه على خراسان، فأمسك الحجّاج واحدة، وأرسل الأخرى إلى الوليد بن عبد الملك، فأولدها يزيد النّاقص والنّاقص؛ لأنّه أنقص من أعطيات الجند، واسمها "شاه فريذ"، وكان يقال لزين العابدين: ابن الخيرتين، وكان أهل المدينة يكرهون اتّخاذ أمّهات الأولاد، وكان زين العابدين بارّا بأمّه، وقيل له: أنّك أبرّ النّاس بأمّك، ولسنا نراك تأكل معها في صحفة واحدة، فقال: "أخاف أن تسبق يدي إلى ماسبقت إليه عينها، فأكون قد عققتها"، ولد يوم الجمعة سنة38هـ/659م، وتوفّيّ سنة94هـ/713م، ودفن في قبر عمّه الحسن بن علي بالبقيع. أنظر، ابن خلّكان(أبو العبّاس، شمس الدّين، أحمد بن محمّد بن أبي بكر 608هـ/681هـ): وفيات الأعيان وأنباء أهل الزّمان، حقّقه الدّكتور: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، 1414هـ/1994م، ج3، ص269 .

(4) الإمامة، خلافة عن صاحب الشّرع في حراسة الدّين، وسياسة الدّنيا به. أنظر، ابن خلدون(عبد الرّحمن):المقدّمة، دار العلم للملايّين، بيروت، لبنان، الطّبعة السّابعة 1409هـ/1989م، ص191.

(5) عليّ بن عبد الله العبّاسي، أبو محمّد، عليّ بن عبد الله بن العبّاس بن عبد المطّلب بن هاشم الهاشمي، وهو جدّ السّفاح والمنصور الخليفتّين، كان سيّدا شريفا، بليغا وهو أصغر ولد أبيه، وأجمل قرشي، يدعى السّجّاد، ولد في اللّيلة الّتي قتل فيها الإمام عليّ بن أبي طالب، و توفّيّ سنة117هـ/735م بالحميمة وهو ابن الثّمانين. أنظر، ابن خلّكان: وفيات، م3، ص 247 وما بعدها.

(6) محمّد بن علي، هو أبو عبد الله، محمّد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطّلب الهاشمي، وهو والد الخليفتين السّفاح والمنصور، ولد سنة40هـ/660م، ليلة مقتل علي كرم الله وجهه، انتقل إليه أمر الدّعوة بوصيّة من أبي هاشم بن محمّد بن الحنفية، لما أوصاه بها ولولده من بعده. أنظر، ابن خلّكان: نفس المصدر، ج4، ص186ومابعدها.

(7) الكوفة، مدينة عراقيّة، لمّا نزل المسلمون المدائن، وطال مكثهم، وأذاهم الغبار والذّباب، كتب عمر إلى سعد في بعثة روّادا، يرتادون منزلا بريّا بحريّا، فإنّ العرب لا يصلحها من البلدان، إلاّ ما أصلح الشّاة والبعير، فسأل من قبله عن هذه الصّفة، فأشار عليه من رآى العراق من وجوه العرب باللّسان، وهو ظهر الكوفة، وكانت العرب تقول: أدلع البرّ لسانه في الرّيف، فما كان يلي الفرات منه، فهو الملطاط، وما كان يلي الطّين منه، فهو النّحّاف، فكتب عمر إلى سعد، يأمره به، فكان نزولهم الكوفة سنة17هـ/638م، والكوفة أقدم منها البصرة بثلاث سنوات. أنظر، ابن قتيبة الدّينوري(أبو محمّد، عبد الله بن مسلم 213هـ-828م/276هـ-889م) : المعارف، حقّقه وقدّم له: الدّكتور ثروت عكاشة، الطّبعة الثّانيّة منقحة، ص ص564 ،565 .

(8) خراسان، كلمة مركبة من"خور"؛ أي الشمس، و"أسان"؛ أي مشرق"، بلاد واسعة، أوّل حدودها ما يلي العراق، وتشمل على أمّهات البلاد، نيسابور، هراة، مرو، فُتحت أكثر هذه البلاد عنوة وصلحا، تتقاسمها اليوم إيران الشّرقيّة "نيسابور" وأفغانستان الشّماليّة "هراة، بلخ" ومقاطعة تركمنستان"مرو"، حشد فيها أبومسلم، ودعا للعباسيّين، قضت جيوشه على حكم الخلافة الأمويّة. أنظر، ياقوت الحموي:معجم البلدان، مطبعة السّعادة، مصر، ص ص81 ، 82.

(9) السّيوطي(الإمّام الحافظ جلال الدّين، عبد الرّحمن بن أبي بكر): تاريخ الخلفاء، خرّج أحاديثه: أحمد بن شعبان بن أحمد، مكتبة الصفا، القاهرة، مصر، الطّبعة الأولى، 1426هـ/2005م، ص202 .

(10) أبوسلمة الخلاّل، أبو سلمة، حفص بن سليمان الخلاّل الهمذاني، مولى السّبيع وزير أبي العباس السّفاح، وأبوسلمة أوّل من وقع عليه اسم الوزير، واشتهر بالوزارة في دولة بني العباس، ولم يكن من قبله، يُعرف بهذا النّعت لا في بني أميّة، ولا غيرها، ممتعا في حديثه أديبا عالما بالسّياسة والتّدبير، وكان ذا يسار، ويعالج الصرف بالكوفة، وأنفق أموالا كثيرة في إقامة دولة بني العباس، وصار إلى خراسان في هذا المعنى، و أبومسلم يومئذ تابع له في هذا الأمر، وكان يدعو إلى بيعة إبراهيم الإمام أخ السّفاح، وكان قتله بعد خلافة السّفاح بأربعة أشهر، ووليّ السّفاح الخلافة ليلة الجمعة ثالث عشر ربيع الآخر سنة132هـ/750م، ولم يكن خلاّلا؛ إنّما كان منزله بالكوفة في حارة الخلاّلين، فكان يجلس عندهم لقرب داره منهم، فسميّ خلاّلا. أنظر، ابن خلّكان: مصدر سابق، ج2، ص ص195 ،196 .

(11) إبراهيم، ولد سنة82هـ/701م، أمّه، أمّ ولد بربرية اسمها"سلمى"، وكان فاضلا كريما، قدم المدينة مرّة، ففرّق في أهلها مالا جليلا، وبعث إلى عبد الله بن الحسن بخمسمائة دينار، و بعث إلى جعفر بن محمّد بألف دينار، فبعث إلى جماعة العلويّين بمال كثير، فأتاه الحسين بن زيد بن علي وهو صغير، فأجلسه في حجره، وقال له:من أنت؟ قال:أنا الحسين بن زيد بن علي، فبكى، حتّى بلّ رداءه، و أمر وكيله بإحضار مابقي من المال، فأحضر أربعمائة دينار، فسلّمها إليه. أنظر، ابن

الأثير(الإمام العلاّمة أبو الحسن، علي أبي الكريم بن عبد الواحد الشّيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقّب بعزّ الدّين ت 630هـ):الكامل في التّاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، طبعة ثالثة1400هـ /1980م،ج5، ص73 .

(12) أبومسلم الخراساني، أبومسلم، عبد الرّحمن بن مسلم، وقيل: عثمان الخراساني القائم بالدّعوة العبّاسيّة، وقيل: إبراهيم بن عثمان بن يسار بن شذوس بن جودرن، من ولد يزر بن عثمان البختكان الفارسي، قال له إبراهيم بن محمّد: غيّر اسمك، فما يتمّ لنا الأمر حتّى تغير اسمك، فسمّى نفسه عبد الرّحمن، وكان أبوه من رستاق فريذين، من قرية سنجرد، وكانت هذه القرية له مع عدّة قرى، وقيل: أنّه من قرية ماخوان بالقرب من مرو، وكان يجلب إلى الكوفة بعض الأحيان المواشي، كان قصيرا، فصيحا، راوية للشّعر، عالما بالأمور، أقام أبومسلم عند الإمّام إبراهيم يخدمه حضرا، وسفرا، وقتل وفي عمره ثلاث وثلاثين سنة، ولد سنة100هـ/719م، كان قتله لخمس بقين من شعبان سنة137هـ/755م برومية المدائن، بالقرب من بغداد. أنظر، ابن خلّكان: مصدر سابق،ج3، ص145 .

(13) ابن الأثير: الكامل، ج 5، ص27 ومابعدها .

(14) في 128هـ/746م وجّه إبراهيم الإمّام أبو سلمة، واسمه عبد الرّحمن بن مسلم إلى خراسان وعمره تسع عشرة سنة، وكتب إلى أصحابه: أنّي قد أمّرته بأمري، فأسمعوا له، وأطيعوا، فإنّي قد أمّرته على خراسان، وماغلب عليه بعد ذلك، فأتاهم، فلم يقبلوا قوله، وخرجوا من قابل، فالتقوا بمكّة عند إبراهيم، فأعلمه أبومسلم، أنّهم لم ينفذوا كتابه، وأمره، فقال إبراهيم: قد عرضت هذا الأمر على غير واحد، وأبوْه عليّ، وكان قد عرضه على سليمان بن كثير، فقال: لا إلي على إثنين أبدا، ثمّ عرضه على إبراهيم بن سلمة، فأبى، فأعلمهم أنّه قد أجمع رأيه على أبي مسلم، وأمرهم بالسّمع والطاعة له، ثمّ قال له: إنّك رجل منّا أهل بيت، احفظ وصيتي، أنظر هذا الحي من اليمن، فألزمهم، واسكن بين أظهرهم، فإنّ الله لا يتمّ هذا الأمر إلاّ بهم، وإنّهم ربيعة في أمرهم، وأمّا مضر، فإنّها العدو القريب الدّار، واقتل من شككت فيه، وإن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلّم بالعربية، فافعل، و أيّما غلام بلغ خمسة أشبار تتّهمه، فاقتله، ولا تخالف هذا الشّيخ يعني، سليمان بن كثير، ولا تعصه، وإذا أشكل عليك أمر، فاكتف به ميّ...أنظر، ابن الأثير: نفس المصدر، ج5،ص21؛ توجّه سليمان بن كثير إلى مكّة ومعه قحطبة، فلقوا إبراهيم بن محمّد الإمّام بها، وكان معهم أبومسلم، فقال سليمان لإبراهيم: هذا مولاك، وفيها كتب بكير بن ماهان إلى إبراهيم أنّه في الموت، وأنّه استخلف أبا سلمة، حفص بن سليمان، وهو رضا للأمر، فكتب إبراهيم لأبي سلمة، يأمره بالقيام بأمر أصحابه، وكتب إلى أهل خراسان يخبرهم أنّه قد أسند أمرهم إليه، ومضى أبوسلمة إلى خراسان، يخبرهم أنّه قد أسند أمرهم إليه، فصدّقوه، و قبلوا أمره، و دفعوا إليه ما اجتمع عندهم من نفقات الشّيعة، وخمس أموالهم. أنظر، ابن الأثير: نفس المصدر، ج5، ص15 .

(15) نصر بن سيّار بن رافع، من بني جندع بن ليث، من كنانة، رهط عبيد بن عمير بن قتادة اللّيثي، كان مع مصعب بن الزّبير، فسرق، فقطع عبد الرّحمن بن سمرة يده، يقال له: الأقطع، وكان ابنه نصر، يكنّى: أبا اللّيث، ولاّه هشام بن عبد الملك خراسان، فلم يزل واليّا ، حتّى وقعت الفتنّة، فخرج إلى العراق، فمات في الطّريق. أنظر، ابن قتيبة: مصدر سابق، ص 409.

(16) سورة: الحج، الآية: 39 .

(17) مروان بن محمّد، أو مروان الحمار، آخر خلفاء بني أميّة، وهو أبو عبد الملك بن محمّد بن مروان بن الحكم، ويلقّب بالجعدي، نسبة إلى مؤدّبه الجعد بن درهم، وبالحمار؛ لأنّه كان يصل السّير بالسّير، ويصبر على مكاره الحرب، ولد بالجزيرة سنة72هـ/691م، وأمّه، أمّ ولد، كان مشهورا بالفروسيّة، بويع في النّصف الثّاني من صفر سنة127هـ/745م، خرج عليه بنو العباس في سنة132هـ/750م، وقتل على يدّ عبد الله بن علي العباسي. أنظر، السّيوطي: مصدر سابق، ص ص202 ،203 .

(18) ابن الأثير: الكامل في التّاريخ، ج5، ص72.

(19) ابن الأثير: نفس المصدر، ص65 وما بعدها.

2 . التّطور السّياسي للدّولة العباسيّة:

تعدّ ولاية العهد[1] جديد الدّولة العباسيّة؛ إذ كان كلّ خليفة عبّاسي يعيّن من يلي الخلافة من بعده، خاصّة في العهدين الأوّل والثّاني، ولكن تدخل الأتراك في العصور المتأخرة في تحديد ولاية العهد لما يخدم مصالحهم أعطاها سمة أخرى، فماهي أهمّ مميزات الجانب السّياسي في هذا العصر؟.

أوّلا- الخلفاء العباسيون بين ولاية العهد و بعض أعمالهم:

بويع أبو العباس السّفاح بالخلافة في الكوفة يوم الجمعة الثّاني عشر، من شهر ربيع الآخر عام132هـ/750م تشرين الأوّل، في حياة الخليفة الأموي مروان بن محمّد، وما إن انتهت أيّام السّفاح، حتّى أوصى بولاية العهد لأخيه أبي جعفر[2]، وكان إذ ذاك أميرا على الحج، ثمّ توفي السّفاح وأبو جعفر بالحجاز، فأخذ البيعة له بالأنبار ابن أخيه "عيسى بن موسى"، وكتب إليه يعلمه وفاة السّفاح والبيعة له، فلقيّه الرّسول بأحد المنازل عائدا بعد انتهاء الحج، وتمّت البيعة له في اليوم الذي توفيّ فيه أخوه، واستمّر خليفة إلى أن توفيّ يوم الأحد سابع ذي الحجّة 158هـ/775م، فكان من أهّم ما أوصى به النّاس في خطبته"أيّها النّاس أسِرّوا مثلما تعلنون من طاعتنا، جَهَّدَتْكم العافيّة، وتَحَّمَدوا العاقبة، واخفضوا جناح الطّاعة لمن نشر معدلته فيكم، وطوى ثوب الإصر عنكم، وأهال عليكم السّلامة و لين المعيشة، من حيث أراه الله، مُقَدِّمًا ذلك فَعْلَ من تَقَدَّمَه، والله لأُفنيَّن عمري بين عقوبتكم، والإحسان إليكم"[3] .

واشتهر بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، ذكر الطّبري نقلا عن غيره، أنّه كان شُغله في نهاره بالأمر بالمعروف والنّهي والولايات والعزْل، وشحْن الثغور والأطراف، وأمْن السّبُل، والنّظر في الخراج والنّفقات ومصلحة معاش النّاس، من ظلم من هو دونه[4] ، ووصف بالبخل، ويرى بعضهم أنّ الخليفة المنصور لم يكن هدفه جمع المال، وادِّخاره دون رعيّته، كما زعم الكثير؛ بل أمسك يده عن العطاء مخافة، أن يقع ماله في يدّ المتربّصين به والمخالفين، كما أنّه أقلّ من أعطيات الجند، ليأمن عصيانهم، واستغناءهم عنه[5].

كان الخليفة أبو جعفر يطلب من عمرو بن عبيد[6] العظة[7]، واهتمّ بالعدل بين النّاس، فكان يوصي ابنه محمّد المهدي:"يا بنّي، لا تُبرم أمرا، حتّى تُفكّر فيه، فإنّ فكرة العاقل مرآته، تُريه حسناته وسيّئاته، واعلم أنّ الخليفة، لا يصلحه إلاّ التّقوى، والسّلطان لا يصلحه، إلاّ الطاعة، والرّعيّة لا يصلحها، إلاّ العدل، وأوْلى النّاس بالعفو، أقدرهم على العقوبة، وأنقص النّاس عدلا، من ظلم من هو دونه"[8]، ولم يكن الخليفة المنصور لبيته فقط؛ بل شملت عنايته، حتّى نساء وأبناء المناوئين له على منصب الخلافة.

فلمّا قتل المنصور محمّد بن عبد الله، اعترضته امرأة معها صبيان، فقالت:"يا أمير المؤمنين، أنا امرأة محمّد بن عبد الله، وهذان ابناه، أيتمهما سيفك، وأضْرعهما خوفك، فناشدتك الله يا أمير المؤمنين، أن تُصَغِّر لهما خدّك، أو ينآى عنهما رفدك، ولَتَعَطُّفك عليهما شوابك النّسب، وأواصر الرّحم، فالتفت إلى الرّبيع، وقال:أرْدد عليهما ضياع أبيهما، ثمّ قال:كذا والله كذا، والله أحبّ أن تكون نساء بني هاشم"[9] ، تأكيدا على نجاح سياسة الخليفتين المنصور، والمهدي، منوط بتطبيق العدل، وتجلّى ذلك في قول الخليفة المنصور للمهدي: "يا أبا عبد الله،...ولا تُعَمّر بمثل العدل، ولا تدوم نعمة السّلطان، وطاعته، إلاّ بالمال، ولا تُقدّم في الحياطة بمثل نقل الأخبار، وأقدر النّاس على العفو أقدرهم على العقوبة، وأعجز النّاس من ظلم من هو دونه، قال الخليفة أبوجعفر لوليّ عهده المهدي:"إنّي قد هيأت لك شيئا تُرضي به الخلق، ولا تغرم من مالك شيئا، فإذا أنا متُّ، فادع هؤلاء، الّذين أخذت منهم هذه الأموال الّتي سمّيتها المظالم"[10]، فاردّد عليهم كلّ ما أُخذ منهم، فإنّك تُستحمد إليهم وإلى العامّة[11].

وفي رواية ذكرها ابن الطّقطقي قال: "يا بنيّ، قد أفردتُ كلّ شيئ، أخذتُه من النّاس على وجه الجناية والمصادرة، وكتبت عليه أسماء أصحابه، فإذا ولّيت أنت، فأعِده على أربابه، ليدعو لك النّاس، و يُحِبّوك"[12]، جاء في وصيّة المنصور لابنه:"...وإيّاك أن تستعين برجل من بني سُليم، وأظنّك ستفعل"[13]، وفي موضع آخر ذكر تعديهم على كنانة نفسها[14]، وكان بنو سُليم يفسدون بنواحي المدينة، ويتسلّطون على النّاس في أموالهم، وأوقعوا بناس من كنانة"[15]، و أوصاه"...وإيّاك، و الأثرة، و التّبديد لأموال الرّعيّة، واشْحِن الثّغور، واضبط الأطراف، وأمِّن السبيل، وسكِّنْ العامّة، وادخل المرافق عليهم، و ارفع المكاره عنهم، و أعد الأموال، واخزنها، وإيّاك، و التّبديد، فإنّ التّوائب

غير مأمونة، وهي من شيّم الزّمان، وأعد الأكراع والرّجال والجند ما استطعت، وإيّاك وتأجيل عمل اليوم إلى الغد؛ فتتداول الأمور، وتضيع، وخذ في أحكامم الأمور والنّازلات في أوقاتها أوّلا، واجتهد، وشمّر فيها، وأعدّ رجالا بالليل، ولا تضجر، ولا تكسل، واستعمل حسن الظّنّ، وأسئ الظّنّ بعمّالك وكُتّابك، وخذ نفسك بالتّيقّظ، وتفَقَّد من يبيت على بابك، وسهّل إذنك للنّاس، وانظر في أمر النّزاع إليك، ووَكِّلْ بهم عينا غير نائمة ونفسا غير ساهية، وإيّاك أن تنمّ؛ فإنّ أباك لم ينم منذ وليّ الخلافة، ولا دخل عيناه الغمض، إلاّ وقلبه مستيقظ، هذه وصيّتي إليك، والله خليفتي عليك"[16].

وبعد وفاة الخليفة كتم الحاجب الرّبيع بن يونس[17] إلى الصّباح عمّن كان معه في الحج، واستدعى عيسى بن عليّ عمّه، وعيسى بن موسى وليّ العهد بعد المهدي[18]، وجماعة من القوّاد والأمراء، وتقدّم إليهم بأمره، فيما كان يزعم؛ أن يجدّدوا البيعة لابنه من غير أن يعلّمهم بوفاته، فلم يتجرّأ أحد على مخالفته، ظنّا منهم أنّه صادر من الخليفة[19]، حتّى قيل: أنّ الكتاب الّذي خرج به الرّبيع بن يونس من عند الخليفة أبي جعفر المنصور حال وفاة الخليفة الّذي كان بمثابة عقد بولاية العهد، تكريما لبني هاشم، ووصيّة لخليفته"...من عبد الله المنصور أمير المؤمنين إلى من خلف بعده من بني هاشم، وشيعته من أهل خراسان، وعامّة المسلمين..."[20]، وقبل وفاة الخليفة المهدي أوصى بالخلافة لابنه الهادي، وكانت أمّه الخيزران[21] على ما يقال هي المتصرف في شؤون الحكم.

وكان الخليفة الهادي يرفض تدّخل أمّه الخيزران في قضاء حوائج الرّعيّة؛ إذ كانت المواكب لا تخلو من بابها، ويبدو أنّه وصلته شائعاتا عن أمّه فيما يخصّ استقبالها للنّاس في بيتها؛ إذ أنّ ذلك مجلبة للعجز، ومدعاة إلى الفساد، ومنبهة على ضعف الرّأي[22]، فرفض إجابتها لقضاء بعض حوائج المعَوّلين عليها، وهو ماتسبّبَ في غضبه؛ ليفصح لها عن نكرانه لتدخلها في أمور لا تعنيها، وبالتّحديد ليعبّر عن رفضه لاستقبالها للنّاس في بيتها، ردعا لكلام النّاس، قائلا لها:"مكانك، فاستوعبي كلامي والله، وإلاّ بقيْت من قرابتي من رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–؛ لئن بلغني أنّه وقف ببابك أحد من قوّادي أو من خاصّتي أو من خدمي، لأضربنّ عنقه، ولأقبضنّ ماله، فمن شاء، فليلزم ذلك، ماهذه المواكب الّتي تغدو إلى بابك كلّ يوم؟ أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكّرك أو بيت يصونك؟ إيّاك، ثمّ إيّاك أن تفتحي بابك في حاجة لمسلم و لا ذمّيّ "[23].

وأضاف ابن خلدون تعليقا عن ذلك، بذكره لما برّر به إبعاد أمّه في استقبال النّاس في بيتها، بقوله لأصحابه:" أيّكم يحبّ أن يتحدّث الرّجال بخبر أمّه، ويقال: "فعلت أمّ فلان، وصنعت"، فقالوا:لا نحبّ ذلك، قال: فما بالكم تأتون أمّي، فتتحدّثون معها "[24]، كما يظهر أنّ هناك تقليدا من الخليفة الهادي لوصيّة جدّه الخليفة أبي جعفر المنصور، عندما أوصى ابنه الخليفة المهدي "وإيّاك أن تُدخل النّساء في أمرك "[25]، واختلف في أمر وفاة الهادي، وتولّى الخلافة بعده أخوه هارون الرّشيد[26]، وكان يتكرّم برأي البرامكة[27]، قد كتب ولاية العهد لولديه الأمين[28]، والمأمون[29]، وعلّق العهد على الكعبة[30]، و بعد مصرع الخليفة الأمين تولاّها المأمون، ويذكر النّويري أنّ الخليفة المأمون، كان يجلس للمظالم يوم الأحد، وذكر ابن كثير"[31]وكان المأمون يقصد العدل، ويتولّى بنفسه الحكم بين النّاس، والفصل"[32]، والخطأ الذي ارتكبه الخليفة المأمون هو الكشف عن نِحلته، قال ثمامة[33]:"كان المأمون قد همّ بلعن معاوية، وأن يكتب بذلك كتابا في الطّعن عليه، قال: فنهاه عن ذلك يحي بن أكثم، وقال:يا أمير المؤمنين، العامّة لا تحتمل هذا، ولا سيّما أهل خراسان، ولا تأمن من أن يكون لهم نفرة، ونبْوة، لا تُستقال، ولا يدرى ما يكون عاقبتها، والرّأي أن تدّع النّاس على ماهم عليه، ولا تُظهر لهم أنّك تميل إلى فرقة من الفِرَق، فإنّ ذلك أصلح في السّياسة، وآمن في العاقبة، وأجرى في التّدبير، فركن إلى قول[34].

حاول الخليفة المأمون التّنازل عن الخلافة لأحد علوي، وهو"علي بن موسى الرّضا"[35]، كمحاولة منه للتّوفيق بين العلويّين وبني هاشم في الخلافة، كما أوصى الخليفة المأمون بولاية العهد بعده لأخيه المعتصم[36] بنصّ الوصيّة "وقد كان أوصى المأمون إلى أخيه أبي إسحاق، المعتصم، وكتب في وصيّته...وأوصاه بعبد الله بن طاهر[37]، وإسحاق بن إبراهيم، وأحمد بن أبي دؤادة[38] القاضي، وقال:"شاوره في أمورك كلّها، ولا تفارقه"، وحذّره من يحي بن أكثم، ونهاه عنه، وذمّه وقال:"خانني، ونفّر النّاس منّي، ففارقته غير راض عنه، ثمّ أوصاه بالعلويّين خيرا، أن يقبل من مُحْسِنهم، ويتجاوز عن مسيئهم، وأن يصلهم بصلاتهم في كلّ سنة[39] يكتب خطًّا ضعيفا، وكان سبب ذلك أنّه رآى

جنازة لبعض الخدم، فقال: "ليتني مثله؛ لأتخلّص من الكُتّاب"[40]، و من بين ما فعله لردّ المظالم المعتصم، أنّه انتقل من بغداد، وكان السّبب في ذلك أنّ أهلها كرهوه، وتأذّوا بجواره، حين كثر عبيده الأتراك، وغيرهم من الأعاجم، لِما كانوا يلْقون منهم، ومن غلظتهم، وربّما وثبت العامّة على بعضهم، فقتلوه لصدمهم إيّاهم في حال ركضهم، فأحبّ التنّحي بهم، والانفراد عن مدينة السّلام[41].

ثمّ تولّى الخلافة الواثق بالله[42]، وليّ العهد بعهد من أبيه، وكان له محسنا للعلويّين[43]، وبويع له في التّاسع من ربيع الأوّل عام227هـ/857م إلى232هـ/862م، طغى على رأيه أحمد بن أبي دؤادة، فتولاّها بعده المتوكّل[44]، أظهر ميلا لأهل السّنّة، ونصر أهلها، ورفع المحنة، وبويع يوم الأربعاء من ذي الحجّة 232هـ/847م بعد وفاة أخيه الخليفة الواثق بالله، وتولاّها بقوّة الأتراك، وشعر بقوّتهم الضّاغطة على الخلافة، واستبدادهم[45]، فقرّر صدّهم، وتحجيم دورهم، فبدأ بإيتاخ أحد قادتهم، فتمكّن من إبعاده عن مناصب، وسجنه وتوفيّ إيتاخ في السّجن عام 235هـ/850م[46].

وخطا الخليفة المتوكل خطوة نحو الأمّام بالبيعة لأولاده؛ لكي يقطع الطريق على الأتراك في التدّخل في اختيار الخليفة، فعمد إلى عقد البيعة لأبنائه الثلاثة يوم السّبت، السّابع والعشرين من ذي الحجّة 235هـ/850م وهم: محمّد المنتصر، و أبوعبد الله المعتز، وإبراهيم المؤيد، وقسّم البلاد بينهم، متّبعا ذلك التّقسيم الّذي جرت عليه الخلافة في عهد الخليفة هارون الرّشيد، فولّى المنتصر المغرب كلّه، وولّى المعتز المشرق كلّه، وأقطع المؤيد أخبار حمص، ودمشق، وفلسطين[47]، ثمّ أضاف للمعتز في240هـ/855م خزْن الأموال في جميع البلاد، ودور الضّرب، وأمر أن تُضْرب الدّراهم باسمه، وفي رجب237هـ/852م غضب على أحمد بن أبي دؤادة الدّاعي إلى القول بخلق القرآن، وكان على المظالم، فعزله عن هذا المنصب، واستدعى يحي بن أكثم[48]، و ولاّه مكانه[49]، وفي ربيع الأوّل من هذه السّنة أمر المتوكل بالتّحفظ على أمواله، وأخذ ابنه محمّد بن أحمد بن أبي دؤادة، فحبسه، وأمر بمصادرة ماله، فصودر مائة ألف وعشرين ألفا دينار من الجواهر النّفيسة، ما يقوم بعشرين ألف دينار، و أخيرا صولح على أن يؤدي ستة عشر ألف ألف درهم، ونفى أهله من سامّراء[50] إلى بغداد[51].

وشعر الأتراك بالخطر عندما بايع المتوكل لأولاده الثّلاثة، و ولاّهم المشرق و المغرب، وضرب النّقود، والدّراهم باسمهم، فاشتدّ حقدهم على الخليفة، واعتبروا إبعادهم من مناصبهم هو خطوة للقضاء عليهم، فبدأوا المؤامرات ضدّه، حتّى ترك سامراء، وجعل دمشق حاضرة له، ثمّ عاد إلى سامراء بعد ثلاثة أشهر، واشتدّ العداء بينه وبين الأتراك، حتّى دبّروا لقتله مؤامرة بمعاونة ابنه المنتصر، الّذي نقم على أبيه؛ لأنّه حاول تغيّير ولاية العهد بتقديم المعتز[52] عليه؛ ولأنّ المعتز كان يعارض سياسة أبيه مع العلويّين، فقد هدم قبر الحسين، ونكّل بهم، وكان المنتصر يتعاطف معهم .

وقيل: أنّ المتوكل اتّفق مع الفتح بن خاقان[53] أحد قادته على التّخلّص من أعدائه، وهم: المنتصر إبنه، ووصيف، وبغا، وغيرهم من قوّاد الأتراك، ولم يكن هذا السرّ؛ ليستتر مع النّبيذ، والاستهتار بشربه، فاتّفق القوم على أن يفتكوا بالمتوكل، فأعدّ الأتراك للمؤامرة العدّة، فشارك في قتل المتوكل بياغر التّركي رئيس حرس المتوكل، ودفع له بعشرة من الأجناد، فدخلوا القصر، وسيوفهم مسلولة، والمتوكل قد أخذ منه الشّراب، فابتدره أحدهم بضربة، وثنى عليه بأخرى أتت على نفسه، وقُتل معه أحد أفراد حاشيته، وهو الفتح بن خاقان، وكان قتله يوم الأربعاء الرّابع من شوال 248هـ/862م[54].

وتولّى بعده المنتصر[55]، كان أبوه قد عقد له ولاية العهد 235هـ/850م، ولما قتل أباه، بايعه القوّاد الأتراك عقب مقتل أبيه في الرّابع من شوال 247هـ/861م، وكان خاضعا لنفوذ الأتراك، ونصّبوه خاضعا لهم، وكان له فقط المظهر الاسمي، اقتصر على صك النّقود والخطبة، وخشي الأتراك من المعتز، والمؤيد ابني المتوكل من أن يلي أحدهما الخلافة بعد المنتصر، فيأخذاهم بدمّ والدهما؛ لذلك أمروا المنتصر أن يخلعهما من ولاية العهد، فلم يتجرّأ على الاعتراض، وأذعن لذلك، وهو كاره، وأجبر أخويه على خلع نفسيهما، وكره المنتصر الأتراك، وأحسّ بخطر تسلطهم، وحاول التّخلّص من زعمائهم، وكان يسمّيهم قتلة الخلفاء، ما جعل الأتراك يعَجّلوا بالقضاء عليه، والتّخلّص منه بواسطة الطّبيب الطّيفوري الذي سمّه بمشرط حجمه به[56].

فتولّى الخلافة بعده المستعين بالله[57] بويع بالخلافة248هـ/862م؛ إذ تعاهد الأتراك على توحيد كلمتهم، وعدم اختيار أحد أولاد المتوكل خشية أن يقتلهم بدمّ أبيه، وقالوا: "متّى وليتم أحدا من أولاد المتوكل، لا يبقى منّا باقية"، فقالوا: ما لها، إلاّ أحمد بن المعتصم ولد أستاذنا، فبايعوه، فتنكّر له الأتراك، لما قتل وصيفا، وبغا[58]، ونفى باغر التّركي الذي فتك بالمتوكل، ولم يكن للمستعين مع وصيف، وبغا أمر[59]، واتّفقوا على تنصيب المستعين بن المعتصم، وتوزّعوا المناصب الكبرى في الدّولة، وبدأ عهد بالاضطرابات، والتّطاحن على السّلطة، فنشبت ثورة في سامرّاء باسم المعتز، واصطدم العامّة والأتراك في حرب شوارع انتصر الأتراك فيها، واستغلّ انشقاق الأتراك على أنفسهم، فراح يتخلّص من زعمائهم، فنفى أحمد الخصيب[60] إلى جزيرة كريت، وقتل أتامش، وباغر، ثمّ فرّ إلى بغداد للاحتماء بأهلها؛ عندئذ أعلن الأتراك خلعه، وبايعوا المعتز الذي تجمّع حوله معظه قادتهم، في حين سانده أهل بغداد بعض المنشقّين من الأتراك، ولكنّه كان ضعيفا، فتنازل، وقتله الأتراك[61].

المعتز بالله كان أبوه المتوكل قد جعله وليّا للعهد بعد أخيه المنتصر، فلم تتمّ له الولاية؛ لأنّ المنتصر أرغمه على خلع نفسه في 252هـ/866م، أحمد بن المعتصم نفسه من الخلافة، وبايع للمعتز بالله بن المتوكل، وخطب للمعتز ببغداد يوم الجمعة لأربع خلون من محرّم، وأخذ له البيعة على كلّ من بها من الجند[62]، ولما وليّ المستعين بعد المنتصر حبسه هو، وأخاه المؤيد، حتّى كانت الفتنة بين قوّاد المستعين، فأخرج المعتز، وبويع له، وتمّ له الأمر بعد خلع المستعين في252هـ/866م في رجب، فكانت مدّة خلافته ثلاث سنوات، وستّة أشهر، وعاد إلى سامرّاء.

ووقع تحت التّأثير التّركي، وعجز عن تلبية طلبات الأتراك؛ ممّا أدّى إلى إقدامهم على خلعه، وتنصيب أخيه المؤيد، وتخلّص المعتزّ من بعض الزّعماء الأتراك، مثل: وصيف، وبغا، باعتبارهما مسؤوليْن عن الحرب الأهليّة التي وقعت بينه وبين المستعين، فأرغمه الأتراك على خلع نفسه، وأسندوا الخلافة إلى محمّد بن الواثق، ولُقب بالمهتدي بالله[63]، وسلّموا المعتز إلى من يسجنه، ويعذبه إلى الموت، وبويع له بالخلافة بعد أن خلع المعتز نفسه لثلاث بقين من رجب255هـ/869م، كان تقيّا، ورعا، شديد الرّغبة في الإصلاح، أمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، وحرّم الشّراب، ونهى عن القيّان، وأظهر العدل، وكان يحضر كلّ جمعة إلى المسجد الجامع، فيخطب بالنّاس، ويؤمّهم، وأشرف على الدّواوين[64].

نظر في المظالم، فبني قبّة لها أربعة أبواب، سمّاها "قبّة المظالم"، كان يجلس فيها للعام، والخاص، فثقلت وطأته على العامّة والخاصّة، فاستطالوا خلافته، حتّى اعتراهم الضّجر من تلك المدّة، ولم تسمح أوضاع البلاد الدّاخليّة والخارجيّة بإنجاح إصلاحاته، فثار العامّة في بغداد ضدّ حكمه، ثمّ تبعهم الجند؛ بسببّ التّأخر في دفع أرزاقهم، واستغلّ الطالبيون هذا الموقف، ونشبت ثورة الزّنج، فقرّر المهتدي بالله أن يضرب الأتراك بعضهم ببعض، لكنّه فشل، واتّفق الأتراك على التّخلص منه، وقد انحاز إلى جانب بعضهم، وقتل أحد قادتهم، وهو "باكيباك"، مقلّدا بذلك مافعله المنصور مع أبي مسلم، فجاء الأتراك لمقاتلته، وخرج هو، وعلى رأسه مصحف يدعو النّاس لنصرته، فلمّا التحم الفريقان مال الأتراك الذين معه الى إخوانهم، وبقيّ هو وحده في المغاربة والفراعنة، ومن جاء من العامّة، وانتهى الأمر بقبض الأتراك عليه في الرّابع عشر من رجب256هـ/870م، ثمّ خلعوه؛ لما أبى خلع نفسه، ثمّ مات لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب[65].

المعتمد على الله[66] بويع له من غير عهد سابق 256هـ/870م بايعه الأتراك بعد وفاة المهتدي، ونتيجة تزايد الخلافات الدّاخليّة بينهم طلب الأتراك منه تولية أحد إخوته الجيش، فولىّ أخاه "أبا طلحة الموفق"، وكان الموفق موفقا في جمع شتات الدّولة العباسيّة وانتعاشها، فجمع الأمور كلّها في يده، وأبقى للخليفة المعتمد على الله السّكّة والخطبة، و إمرة المؤمنين كاسم، فانكسرت بذلك شوكة الأتراك، خاصّة بعد هزائمهم أمّام الزّنج، وعجزهم عن مقاومة المدّ الانفصالي، وقيّام الدّول، لكنّ الموفق توفيّ278هـ/892م، فجاء المعتمد على الله مكانه بابنه "أبي العبّاس، المعتضد"[67] .

سلك نهج والده في حروبه وأعماله الإدارية على مدى تسع سنوات مدّة خلافته، وكان يهدف إلى إنعاش الخلافة، وتثبيت هيبتها، واستمرّ في عهده تراجع نفوذ الأتراك، وتوفيّ في ربيع الآخر289هـ/902م، ليتولّى بعده المكتفي بالله[68]، وبويع بالخلافة بعد وفاة أبيه

المعتضد بالله بعهد منه، وذلك في 22ربيع الآخر289هـ/902م إلى أن توفيّ 295هـ/908م تفاقم في عهده أمر الحركات الإنفصاليّة والثّوريّة، من قرامطة، وإسماعيليّة، وعُبيديّة، وبذل جهدا في قمع الثّورات، فنكّل بالقرامطة، وأقرّ سلطان الخلافة على بلاد الشّام، وأزال نفوذ الطّولونيّين من مصر، وأعادها إلى حظيرة الخلافة، وتوفيّ 290هـ/903م، فعادت الخلافة إلى ضعفها؛ بفعل الخلافات الأسريّة داخل البيت العباسي.

وعادوا إلى نهجهم السّابق في اختيار الخلفاء؛ ليستمرّ نفوذهم، فعارضوا ترشيح "عبيد الله بن المعتز" لمنصب الخلافة؛ لأنّه كان قويا، واختاروا "أبا الفضل، جعفر بن المعتضد"، وكان في الثّالثة عشر من عمره، فولّوه الخلافة، وتلقّب ب"المقتدر بالله"، وهو جعفر بن المعتضد بالله بويع بالخلافة، وأمّه أمّ ولد هي، شغب، ولما نشأ عكف على لذّاته، ولم يكن على مستوى الخلفاء، وترك أمور الدّولة في إدارة مؤنس التّركي"، وبرزت في عهده ظاهرة تدّخل النّساء في الحكم، وانتشرت الفتن في الدّاخل والخارج؛ ممّا أدّى إلى ثورة الجيش عليه، وخلعه، فخلفه "عبد الله بن المعتز"، وجعلوه "الرّاضي بالله"، ثمّ أعيد المقتدر عن طريق خاله "غريب"، وبعض القادة الأتراك منهم، مؤنس الخادم الذي اختلف مع المقتدر، فقتل المقتدر على يدّ مؤنس، وجاء بعده القاهر بالله 320هـ/322هـ -932م/933م الذي لم يكن خيرا منه، ثمّ اتّبع القاهر سياسة القسوة مع القادة الأتراك، فتخلّص من مؤنس الخادم، ولكن القادة والجنود ثاروا عليه، وسملوا عينيه، ثمّ بايعوا للخليفة الرّاضي بالله[69] .

واستمّر النّفوذ التّركي في إضعاف الدّولة العباسيّة، قال ابن الأثير: "لم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها، والحكم في جميعها لابن رائق[70]، وهو محمّد بن رائق، أمير واسط والبصرة، استدعاه الرّاضي بالله، وأطلق في يده سلطات الدّولة كلّها، ولقّبه "أمير الأمراء"، ضعف نفوذ ابن رائق، وخرج عليه أحد قادته، ويسمّى "بجكم" الذي دخل بغداد327هـ/939م، واستولى على مقاليد الإمارة، وآلت إليه إمرة الأمراء، وفرّ ابن رائق إلى الشّام، وتدهور الحال في عهد بجكم ثلاث سنوات، وأدّت الفوضى إلى مقتله329هـ/941م، وكان على الخلافة، حين قتل بجكم الخليفة المتّقي لله، وهو إبراهيم المتقي لله، جعفر المقتدر بن أحمد المعتضد بالله، وأمّه، أمّ ولد اسمها"خلوب" بويع بالخلافة329هـ/941م، ولم يزل خليفة، حتّى خلع 333هـ/945م[71].

اجتمع أعيان الدّولة، ومنهم "القاسم، سليمان بن الحسن" وزير الرّاضي وأعيان الدّولة وأفراد البيت العباسي، وتشاوروا فيمن يصلح للخلافة بعد الرّاضي، فاختاروا ابن جعفر المقتدر بالله لهذا المنصب، وبايعوه، ولقبّ بالمتّقي، ولما أصبح خليفة وجد نفسه ألعوبة في أيدي القادة المتنافسين على السّلطة، خاصّة "أبو عبد الله البريدي"، و"ابن رائق"، والحمدانيّين، وأصبح البريدي أمير الأمراء الذي برز بعد مقتل بجكم، لكن لم يقلّده الخليفة المتقي هذا المنصب، وإنّما أضاف إلى منصبه هذا قيادة الجيش، فأصبح في يده سلطات أمير الأمراء، واختلف البريدي مع ابن رائق بعد أن انقلب على المتّقي، واستدعى ابن رائق من الشّام، ولكنّهما اختلفا عندما عزل ابن رائق البريدي، فجمع البريدي جيوشه، وهاجم بغداد، فاضطرّ الخليفة المتّقي و ابن رائق إلى الهرب، وذهبا إلى بني حمدان في الموصل، واستولى البريدي على منصب أمير الأمراء، ودخل بغداد[72].

ولكن المتّقي بالله استعان بناصر الدّولة الحمداني، فحارب البريدي، وأعاد المتقي إلى بغداد330هـ/942م، وفي هذه الأحداث ظهر قائد تركي هو "توزون"، فعينه المتّقي قائدا للشرطة، ثمّ جعله أميرا للأمراء، وسيطر الحمدانيون على الأوضاع في بغداد، ولكنّ توزون أصبح أقوى الأمراء الذين تولّوا الأمر في العهد العباسي بعد صراعه مع الحمدانيّين، وإخراجهم من بغداد بصحبة الخليفة إلى الموصل، واستطاع أن يقبض على الخليفة المتّقي، ويسجنه، واختار "توزون"، عبد الله بن المكتفي خليفة، ولقبّه ب"المستكفي بالله"، وهذه قمّة النّفوذ التّركي في عصر العباسيّين المستكفي، وهو أبو القاسم، عبد الله المستكفي بالله بن المكتفي بن المعتضد[73].

ولما قبض توزون على المتّقي أحضر المستكفي إليه، وبايعه مع عامة النّاس، وأصبحت الخلافة تحت سلطة آل بويه، ويبتدئ هذا الدّور من 334هـ/إلى447هـ-946م/1056م تولّى فيه الخلافة خمسة خلفاء وهم: المستكفي، المطيع، الطّائع، القادر، القائم، وخلافة

المستكفي لم تطل سنة وأربعة أشهر، استبدّ خلالها بالسّلطة، ثمّ خلفه ابن شيرزاد، وبقيّ في منصب أمير الأمراء، حتّى استولى معزّ الدّولة بن بويه على بغداد، وألغى منصب أمير الأمراء، واستمرّت الأحوال المتردّية إلى نهاية الحكم العباسي.

المستكفي بالله(أبو القاسم)333هـ/334هـ-945م/946م: أبو القاسم، عبد الله بن المكتفي بن المعتضد، أمّه، أمّ ولد اسمها، "أملح" النّاس، بويع له بالخلافة عند خلع المتّقي في صفر سنة330هـ/942م وعمره إحدى وأربعون سنة، مات توزون في أيّامه، ومعه كاتبه أبو جعفر بن شيرزاد، فطمع في المملكة، وحلف العساكر لنفسه، فخلع عليه الخليفة، ثمّ دخل أحمد بن بويه بغداد، فاختفى ابن شيرزاد، ودخل ابن بويه دار الخلافة، فوقف بين يدي الخليفة، فخلع عليه، ولقبّه معزّ الدّولة، ولقبّ أخاه عليّا "عماد الدّولة"، وأخاهما الحسن "ركن الدّولة"، وضرب ألقابهم على السّكّة، ولقبّ المستكفي نفسه "إمّام الحقّ"، وضرب ذلك على السّكة، ثمّ إنّ معزّ الدّولة قوى أمره، وحجر على الخليفة، وقدّر له كلّ يوم برسم النّفقة، خمسة آلاف درهم فقط، وهو أوّل من ملك العراق من الدّيلم ...وهاجم الدّيلم دار الخلافة إلى الحرم، ونهبوها، فلم يبق فيها شيء، ومضى معزّ الدّولة إلى منزله، وساقوا المستكفي ماشيا إليه، وخلع، وسملت عيناه يومئذ، وكانت خلافته سنة[74] وأربعة أشهر، وأحضروا "الفضل بن المقتدر"، وبايعوه، ثمّ قدّموا ابن عمّه المستكفي، فسلّم عليه بالخلافة، وأشهد على نفسه بالخلع، ثمّ سجن إلى أن مات سنة338هـ/950م، وله ستّ وأربعون سنة، وشهران، وكان يتظاهر بالتّشيع[75] .

المطيع لله(أبو القاسم)334هـ/363هـ-946م/974م: أبو القاسم، الفضل بن المقتدر بن المعتضد، أمّه، أمّ ولد اسمها"شغلة" ولد سنة 301هـ/914م، بويع له عند خلع المستكفي في جمادى الآخرة سنة334هـ/946م، وقرّر له معزّ الدّولة كلّ يوم نفقة مائة دينار فقط[76]، وفي 362هـ/973م صادر السّلطان بختيار المطيع، فقال المطيع: "أنا ليس لي غير الخطبة، فإن أحببتم اعتزلت"، فشدّد عليه، حتّى باع قماشه، وحمل أربعمائة ألف درهم، وشاع في الألسنة أنّ الخليفة صودر[77]، وفي 363هـ/974م حصل للمطيع فالج، وثقل لسانه، فدعاه حاجب عزّ الدّولة، الحاجب "سبكتكين" إلى خلع نفسه، وتسليم الأمر إلى ولده "الطائع لله"، ففعل، وعقد له الأمر في يوم الأربعاء ثالث عشر من ذي القعدة، فكانت خلافته مدّة خلافة المطيع تسعا وعشرين سنة وأشهرا، وأثبت خلعه على القاضي ابن أمّ شيبان، وصار بعد خلعه يسمّى "الشّيخ الفاضل"، وخرج المطيع إلى واسط مع ولده، فمات في المحرّم سنة 364هـ/975م [78].

الطائع لله(أبو بكر)363هـ/393هـ-974م/1003م:أبوبكر، عبد الكريم بن المطيع، أمّه، أمّ ولد اسمها"هزار" نزل له أبوه عن الخلافة وعمره ثلاث وأربعون سنة ، وفي 381هـ/922م: قبض على الطائع، وسببه أنّه حبس رجلا من خواص بهاء الدّولة، فجاء بهاء الدّولة، وقد جلس الطائع في الرّواق متقلّدا سيفا، فلمّا قرّب بهاء الدّولة قبّل الأرض، وجلس على الكرسي، وتقدّم أصحاب بهاء الدّولة، فجذبوا الطائع من سريره، وتكاثر الدّيلم، فلفّوه في كساء، وأصعد إلى دار السّلطنة، وارتجّ البلد، ورجع بهاء الدّولة، وكتب على الطائع أيمانا بخلع نفسه، وأنّه سلّم الأمر إلى القادر بالله، وشهد عليه الأكابر والأشراف، وذلك في تاسع عشر شعبان، ونفذ إلى القادر بالله ليحضر وهو بالبطيحة، واستمرّ الطائع في دار القادر بالله مكرّما، محترما في أحسن حال، ومات ليلة عيد الفطر سنة393هـ/1003م ، وكان شديد الانحراف لآل البيت[79].

القادر بالله(أبو العباس)393هـ/422هـ-1003م/1031م: أبو العباس، أحمد بن إسحاق بن المقتدر، ولد سنة336هـ/948م، أمّه أمّ ولد اسمها"تُمنى" أو "دمية" بويع له بالخلافة بعد خلع الطائع، وكان غائبا، فقدم في عاشر رمضان، وجلس من الغد جلوسا عامّا، وهنئ...وقيل: أنّه كان من السّتر والدّيانة والسّيادة، وإدامة التّهجد باللّيل، وكثرة البرّ، والصّدقات، وحسن الطريقة ...تفقّه على العلامة "أبي بشر الهروي الشّافعي، وصنّف كتابا في الأصول ذكر فيه فضائل الصّحابة على ترتيب مذهب أصحاب الحديث، وأورد في كتابه فضائل عمر بن عبد العزيز، وإكفار المعتزلة، والقائلين بخلق القرآن، وكان ذلك الكتاب يقرأ كلّ جمعة في حلقة أصحاب الحديث بجامع المهدي، وبحضرة النّاس[80]، وفي 422هـ/1031م توفيّ القادر بالله ليلة الإثنين الحادي عشر ذي الحجّة عن سبع وثمانين سنة، ومدّة خلافته إحدى وأربعون سنة وثلاثة أشهر[81] .

القائم بأمر الله(أبو جعفر)422هـ/467هـ-1031م/1075م: أبو جعفر، عبد الله بن القادر بالله، ولد في نصف ذي القعدة سنة 391هـ/1001م، أمّه أمّ ولد أرمينية اسمها، "بدر الدُّجى"، وقيل: "قطر النّدى"، وليّ الخلافة عند موت أبيه يوم الإثنين الحادي عشر ذي الحجّة سنة422هـ/1031م، وكان ولي عهده في الحياة، وهو الذي لقبّه ب"القائم بأمر الله""، وقيل عنه: بأنّه كان ورعا، دينا، زاهدا، عالما، قويّ اليقين بالله تعالى، كثير الصّدقة والصّبر، له عناية بالأدب، ومعرفة حسنة بالكتابة، مكثرا للعدل والإحسان وقضاء الحوائج، لا يرى المنع من شيء طلب منه[82].

ولم يزل أمر القائم بأمر الله مستقيما إلى أن قبض عليه في سنة450هـ/1059م، والسّبب أنّ أرسلان التّركي المعروف، ب"البساسيري" كان قد عظُم أمره...وانتشر ذكره، وتهيبته أمراء العرب والعجم، ودُعِيّ له على المنابر، وجبى الأموال، وخرّب القرى، ولم يكن القائم بأمر الله يقطع أمرا بدونه، ثمّ صحّ عنده أنّه سوء عقيدته، وبلغه أنّه عزم على نهب دار الخلافة والقبض على الخليفة، فكاتب الخليفة أبا طالب، محمّد بن مكيال سلطان الغزّ، المعروف ب"طغرلبك"، وهو بالرّي يستنهضه في القدوم، ثمّ أحرقت دار البساسيري، وقدم طغرلبك سنة447هـ/1056م، فذهب البساسيري إلى الرّحبة، وتلاحق به خلقا من الأتراك[83]، وفي 467هـ/1075م مات الخليفة القائم بأمر الله ليلة الخميس الثّالث عشر من شعبان، وذلك لأنّه افتصد، ونام، فانحلّ موضع الفصد، وخرج منه دمّا كثيرا، فاستيقظ، وقد انحلّت قوته، فطلب حفيده وليّ العهد، عبد الله بن محمّد، ووصّاه، ثمّ توفيّ، ومدّة خلافته خمسا وأربعون سنة[84] .

المقتدي بأمر الله(أبو القاسم)467هـ/487هـ-1075م/1095م:أبو القاسم، عبد الله بن محمّد بن القائم بأمر الله، مات أبوه في حياة القائم، وهو حمل، فولد بعد وفاة أبيه بستّة أشهر، وأمّه، أمّ ولد اسمها"أرجوان"، بويع له بعد موت جدّه، وله تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر، وكانت البيعة بحضرة الشّيخ أبي إسحاق الشّيرازي، وابن الصّباغ والدّامغاني، وظهر في أيّامه خيرات كثيرة، ومن محاسنه أنّه نفى المغنيات والخواطى ببغداد، وأمر أن لا يدخل أحد الحمّام، إلاّ بمئزر، وخرّب أبراج الحمّام صيانة لحرم النّاس[85]، وذلك في المحرّم سنة 487هـ/1095م، وعلم الخليفة على تقليده، ثمّ مات الخليفة من الغد فجأة، فقيل: إنّ جاريته شمس النّهار سمّته، وبويع لولده المستظهر بالله[86] .

المستظهر بالله(أبو العباس)487هـ/512هـ-1095م/1119م: أبو العباس، أحمد بن المقتدي بالله، ولد في شوال سنة470هـ/ 1078م، بويع له عند وفاة والده، وله ستّ عشرة سنة وشهران، وكان لينا، كريم الأخلاق، محبّا للعلماء والصّلحاء، كانت أيّامه مضطربة، كثيرة الحروب، وفي سنة 512هـ/119م، مات الخليفة المستظهر بالله يوم الأربعاء الثّالث والعشرين ربيع الأوّل، فكانت مدّة حكمه خمسا وعشرين سنة، وصلّى عليه ابنه المسترشد، وماتت بعده بقليل جدّته[87].

المسترشد بالله(الفضل بن المستظهر بالله)512هـ/529هـ-1119م/1135م: أبو منصور، الفضل بن المستظهر بالله ولد في ربيع الأوّل سنة485هـ/1093م، أمّه، أمّ ولد، وبويع له بالخلافة عند موت أبيه في ربيع الآخر سنة510هـ/1117م، وكان ذا همّة عالية، وشهامة، ورأي، وهيبة، ضبط أمور الخلافة، ورتّبها أحسن ترتيب، وأحيا رسم الخلافة، ونشر عظامها، وشيّد أركان الشّريعة، وباشر الحروب بنفسه[88] .

الرّاشد بالله(أبوجعفر)529هـ/530هـ-1135م/1136م: أبو جعفر، منصور بن المسترشد، ولد في سنة 502هـ/1109م، أمّه، أمّ ولد، وخطب له أبوه بولاية العهد سنة513هـ/1120م، وبويع له بالخلافة عند قتل أبيه ذي القعدة سنة529هـ/1035م، وكان فصيحا، أديبا، شاعرا، شجاعا، جوادا، سمحا، حسن السّيرة، يُؤثر العدل، ولما عاد السّلطان مسعود إلى بغداد خرج هو إلى الموصل، فأحضروا القضاة والأعيان والعلماء، وكتبوا محضرا فيه شهادة طائفة بما جرى من الرّاشد من الظّلم، وأخذ الأموال، وسفْك الدّماء، وشرب الخمر، واستفتوا الفقهاء فيمن فعل ذلك، هل تصحّ إمامته، وهل إذا ثبت فُسقه يجوز لسلطان الوقت أن يخلعه، ويُستبدل خيرا منه، فأفتوا بجواز خلعه، وحكم بخلعه أبو طاهر بن الكرخي، قاضي البلد، وبايعوا عمّه "محمّد بن المستظهر، ولُقّب "المقتفي لأمر الله" في سادس عشر ذي القعدة سنة ثلاثين530هـ/1036م [89].

وبلغ الرّاشد الخلع، فخرج من الموصل إلى أذربيجان، وكان معه جماعة، فقسطوا على "مراغة" مالا، وعاثوا هناك، ومضوا إلى همذان، وأفسدوا بها، وقتلوا جماعة، وصلبوا آخرين، وحلقوا لحى جماعة من العلماء، ثمّ مضوا إلى أصبهان، فحاصروها، ونهبوا القرى، ومرض الرّاشد بظاهر أصبهان مرضا شديدا، فدخل عليه جماعة من العجم كانوا فرّاشين معه، فقتلوه بالسّكاكين، ثمّ قُتلوا كلّهم في سادس عشر رمضان سنة532هـ/1138م [90] .

المقتفي لأمر الله(أبو عبد الله)530هـ/555هـ-11336م/1161م: أبوعبد الله، محمّد بن المستظهر **بالله،** ولد في الثّاني والعشرين ربيع الأوّل سنة489هـ/1097م، أمّه حبشية، بويع بالخلافة عند خلْع ابن أخيه، وعمره أربعون سنة، وبعث السّلطان"مسعود" بعد أن أظهر العدل، ومهّد بغداد، فأخذ جميع ما في دار الخلافة من دواب وأثاث وذهب وستور وسرادق، ولم يترك في اسطبل الخلافة، سوى أربعة أفراس، وثمانية بغال برسم الماء، فيقال: أنّهم بايعوا المقتفي، على أن لا يكون عنده خيل، ولا آلة سفر[91] .

وفي سنة531هـ/1137م، أخذ السّلطان "مسعود" جميع ما تعلّق الخليفة، ولم يترك له إلاّ العقّار الخاصّ، وأرسل الوزير يطلب من الخليفة مائة ألف دينار، فقال المقتفي: "ما رأينا أعجب من أمرك، أنت تعلم أنّ المسترشد سار إليك بأمواله، فجرى ماجرى، وإن الرّاشد وليّ، ففعل ما فعل، ورحل، وأخذ ما تبقى، ولم يبق إلاّ الأثّاث، فأخذته كلّه، وتصرّفت في دار الضّرب، وأخذت التّركات والجوالي، فمن أيّ وجه نقيم لك هذا المال؟، وما بقيّ إلاّ أن نخرج من الدّار، ونسلّمها، فإنّي عاهدت الله أن لا آخذ من المسلمين حبّة"، فترك السّلطان الأخذ من الخليفة، وعاد إلى جباية الأملاك من النّاس، وصادر التّجّار، فلقي النّاس من ذلك شدّة[92]، وقال الذّهبي:"كان المقتفي من سروات الخلفاء، عالما، أديبا، شجاعا، دمث الأخلاق، كامل السّؤدد، خليقا للإمامة، قليل المثل في الأئمّة، لا يجري في دولته أمر، وإن صغر، إلاّ بتوقيعه، وكتب في خلافته ثلاث ربعات، وسمع الحديث من مؤدّبه "أبي البركات بن أبي الفرج بن السّنّي"[93] .

ولما عاد المقتفي الإمّام "أبا منصور الجواليقي"، النّحوي؛ ليجعله إمّاما يصلي به دخل عليه، فما زاد على أن قال السّلام على أمير المؤمنين ورحمة الله، وكان ابن التّلميذ النّصراني الطّبيب قائما، فقال: "ما هكذا يسلّم على أمير المؤمنين يا شيخ"، فلم يلتفت إليه ابن الجواليقي، وقال: "يا أمير المؤمنين، سلامي هو ما جاءت به السّنّة النّبويّة"، وروى الحديث، ثمّ قال: "يا أمير المؤمنين، لو حلف حالف أنّ نصرانيا أو يهوديا، لم يصل إلى قلبه نوع من أنواع العلم على الوجه؛ لما لزمته كفارة؛ لأنّ الله ختم على قلوبهم، ولن يفُكَّ ختم الله إلاّ الإيمان"، فقال المتّقي: "صدقت، وأحسنت"، وكأنّما أُلْجِم ابن التّلميذ بحجر مع غزارة أدبه[94] .

المستنجد بالله(أبوالمظفر)555هـ/566هـ-1161م/1171م: أبو المظفر، يوسف بن المقتفي، ولد سنة 518هـ/1125م، أمّه،أمّ ولد كرجية اسمها "طاوس"، خطب له أبوه بولاية العهد سنة547هـ/1153م، بويع له يوم موت أبيه، وكان موصوفا بالعدل والرّفق، أطلق من المكوس شيئا كثيرا، بحيث لايترك بالعراق مكسا، وكان شديدا على المفسدين، سجن رجلا كان يسعى بالنّاس مدّة، فحضره رجل، وبذل فيه عشرة آلاف دينار، فقال: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار، ودلّني على آخر مثله؛ لأحبسه، وأكفّ شرّه عن النّاس، وقال ابن الجوزي: كان المستنجد موصوفا بالفهم الثّاقب، والرّأي الصّائب، والذّكاء الغالب، والفضل الباهر، له نظم بديع، ونثر بليغ بعمل آلات الفلك والإسطرلاب، وغير ذلك، ومات المستنجد في ثمان ربيع الآخر سنة566هـ/1171م[95] .

المستضيء بأمر الله(الحسن)566هـ/575هـ-1171م/1180م: الحسن، أبو محمّد بن المستنجد بالله، ولد سنة 536هـ/1142م، أمّه، أمّ ولد اسمها "غضّة" بويع له بالخلافة يوم موت أبيه، فنادى برفع المكوس وردّ المظالم، وأظهر العدل والكرم، وفرّق مالا عظيما على الهاشميّين والعلويّين والعلماء والمدارس والرّبط، وكان دائم البذل للمال، وليس له عنده وقع ذا حلم وأناة، ورأفة، ولما استخلف خلع على أرباب الدّولة، وغيرهم ...وفي خلافته انقضت دولة بني عُبَيْد، وخُطب له بمصر، وضربت السّكة باسمه، وجاء البشير بذلك، فغلقت الأسواق ببغداد، وعملت القباب، وصنّفت كتابا سمّيته النّصر على مصر، وفي سنة575هـ/1180م، مات الخليفة المستضيء في سلخ شوال، وعهد إلى ابنه أحمد[96] .

النّاصر لدين الله(أحمد)575هـ/622هـ-1180م/1226م: أحمد، أبو العبّاس بن المستضيء بأمر الله، ولد الإثنين، عاشر رجب، سنة553هـ/1159م، أمّه، أمّ ولد اسمها "زمرد"، بويع له عند موت أبيه في مستهلّ، ذي القعدة سنة575هـ/1180م، وأجاز له جماعة منهم، أبو الحسن، عبد الحقّ اليوسفي، وأبو الحسن، علي بن عساكر البطايحي، وشُهْدة، وأجاز هو لجماعة، فكانوا يحدّثون عنه في حياته، ويتنافسون في ذلك؛ رغبة في الفخر، لا في الإسناد[97] .

مدّة خلافته سبعا وأربعين سنة حارب المخالفين، وكان شديد الاهتمام بمصالح المُلْك، لا يخفى عليه شيئ من أحوال الرّعيّة، وأصحاب أخباره في أقطار البلاد يوصلون إليه أحوال الملوك الظّاهرة والباطنة، وكانت له حيلا لطيفة، ومكائدا غامضة، وحُدَع لا يفطن لها أحد يوقع الصّداقة بين ملوك متعادين، وهم لا يشعرون، ويوقع العداوة بين متفقين، وهم لا يفطنون، ولما دخل رسول صاحب "مزندران بغداد" كانت تأتيه ورقة كلّ صباح بما عمل في اللّيل، فصار يبالغ في التّكتم، والورقة تأتيه بذلك، فاختلى ليلة بامرأة دخلت من باب السّرّ، فصبحته الورقة بذلك، وفيها كان عليكم دواج، فيه صورة الفيلة، فتحيّر، وخرج من بغداد، وهو لا يشكّ أنّ الخليفة يعلم الغيب، لأنّ الإمّامية يعتقدون أنّ الإمّام المعصوم يعلم ما في بطن الحامل، وأتى رسول خوارزم شاه برسالة مخفيّة، وكتاب مختوم، فقيل له: ارجع، فقد عرفنا، ما جئت به، فرجع، وهو من أنّهم يعلمون الغيب، وقال الذّهبي: أنّ النّاصر كان مخدوما من الجنّ[98] .

كان النّاصر قد ملأ القلوب هيبة، وخيفة، فكان يرهبه أهل الهند ومصر، كما يرهبه أهل بغداد، فأحيا بهيبته الخلافة، وقيل: كان النّاصر شهما، شجاعا، ذا فكرة صائبة، وعقل رصين، ومكر، ودهاء، وله أصحاب أخبار في العراق، وسائر أطراف يطالعونه بجزئيات الأمور، حتّى ذكر أنّ رجلا ببغداد عمل دعوة، وغسل يده قبل أضيافه، فطالع صاحب الخبر النّاصر بذلك، فكتب في جواب : ذلك سوء أدب من صاحب الدّار وفضول من كاتب المطالعة، قال: وكان مع ذلك رديء السّيرة في الرّعيّة مائلا إلى الظّلم والعسف، ففارق أهل البلاد بلادهم، وأخذ أموالهم وأملاكهم، وكان يفعل أفعالا متضادة، وكان يتشيع، ويميل إلى مذهب الإماميّة بخلاف آبائه، حتّى أنّ ابن الجوزي سُئل بحضرته:"منْ أفضل النّاس بعد رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-؟، فقال: أفضلهم بعده من كانت ابنته تحته"، ولم يقدر أن يصرّح بتفضيل أبي بكر، وقال ابن الأثير:"كان النّاصر سيء السّيرة، خربت في أيّامه العراق؛ ممّا أحدثه من الرّسوم، وأخذ أموالهم، وأملاكهم، وكان يفعل الشّيء، وضدّه، وكان يرمي بالبندق، ويغوى الحمام"[99] .

وقيل: اشتغل برواية الحديث، واستناب نوابا في الإجازة عنه، والتّسميع، وأجرى عليهم جراياتا، وكتب للملوك والعلماء إجازاتا، وجمع كتابا سبعين حديثا، ووصل إلى حلب، وسمعه النّاس، وقال الذّهبي: أجاز النّاصر لجماعة من الأعيان، فحدّثوا عنه منهم "ابن سكينة، و"ابن الأخضر"، و"ابن النّجار"، و"ابن الدّامغاني"، وآخرون، وقال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: "قلّ بصر النّاصر في آخر عمره"، وقيل: "ذهب كلّه"، ولم يشعر بذلك أحد من الرّعيّة، حتّى الوزير، وأهل داره، وكان له جارية، قد علّمها الخطّ بنفسه، فكانت تكتب مثل خطّه، فتكتب على التّواقيع[100] .

كان الماء الذي يشربه النّاصر تأتي به الدّواب من فوق بغداد بسبعة فراسخ، ويغلي سبع غلوات كلّ يوم غلوة، ويحبس في الأوعية سبعة أيّام، ثمّ يشرب منه، ومع هذا ما مات، حتّى سقى المرقد مرّات، وشقّ ذكره، وأخرج منه الحصى، توفيّ النّاصر لدين الله الأحد سلخ من رمضان سنة622هـ/1226م، وفي سنة606هـ/1210م كان ابتداء أمر التّتر[101] .

الظاهر بأمر الله(أبو نصر)622هـ/623هـ-1226م/1227م: الظاهر بأمر الله، أبو نصر، محمّد بن النّاصر لدين الله، ولد سنة571هـ/176م، بايع له أبوه بولاية العهد، واستخلفه عدّة مرّات والده، وهو ابن اثنتين وخمسين سنة ...أحسن إلى الرّعيّة، وأبطل المكوس، وأزال المظالم، وفرّق الأموال، وقيل: لما وليّ الظاهر الخلافة أظهر العدل والإحسان ما أعاد به سنة العُمَرَيْن، فلو قيل: أنّه ما وليّ الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله؛ لكان القائل صادقا، فإنّه أعاد من الأموال المغصوبة والأملاك المأخوذة في أيّام أبيه، وقبلها شيئا كثيرا، وأبطل المكوس في البلاد جميعها، وأمر بإعادة الخراج القديم في جميع العراق، وبإسقاط جميع ما جدّده أبوه، وكان ذلك كثيرا لا يحصى، فمن ذلك أنّ قرية "يعقوبا"، كان يحصل منها قديما عشرة آلاف دينار، فلمّا استخلّف النّاصر كان يأخذ منها في السّنة ثمانين ألف دينار،

فاستغاث أهلها، فأعادها على الخراج الأوّل، ولما أعاد الخراج الأصلي على البلاد حضر خلق كثير، وذكروا أنّ أملاكهم قد يبست أكثر أشجارها، وخربت، فأمر أن لا يؤخذ إلاّ من كلّ شجرة سالمة، ومن عدله أن صنجة الخزانة كانت راجحة نصف قيراط في مثقال بها يقبضون، ويعطون بصنجة البلد، فخرج خطّه إلى الوزير، وأوّله "ويل للمطفّفين"،وقد بلغنا أنّ الأمر كذا وكذا، فتعاد صنجة الخزانة إلى ما يتعامل به النّاس، فكتبوا إليه أنّ في هذا تفاوتا كثيرا، وقد حسبنا في العام الماضي، فكان خمسة وثلاثين ألف دينار، فأعاد الجواب ينكر على القائل ويقول يبطل، ولو أنّه ثلاثمائة ألف وخمسون ألف دينار[102] .

ومن عدله أنّ صاحب الدّيوان قدم من واسط، ومعه أزيد من مائة ألف دينار من ظلم، فردّها على أربابها، وأخرج أهل الحبوس، وأرسل إلى القاضي عشرة آلاف دينار؛ ليفيها عمّن أعسر، وفرّق ليلة عيد النّحر على العلماء، والصّلحاء مائة ألف دينار، وقيل له: هذا الذي تخرجه من الأموال، لا تسمح نفس ببعضه"، فقال: "أنا فتحت الدّكان بعد العصر، فاتركوني، أفعل الخير، فكم بقيت أعيش؟، ووجد في بيت من داره ألوف رقاع كلّها مختومة، فقيل له: لِمَ لا تفتحها؟، قال: "لا حاجة لنا، فيها كلّها سعايات"، وقيل: لما دخل إلى الخزائن، قال له خادم: "كانت في أيّام أبائك تمتلىء"، فقال: "ما جعلت الخزائن؛ لتمتلىء"؛ "بل تفرغ، وتنفق في سبيل الله، فإنّ الجمع أشغل التّجار"، وقال ابن واصل: أظهر العدل ، وأزال المكس، وظهر للنّاس، وكان أبوه لا يظهر، إلاّ نادرا، توفيّ رحمه الله الخليفة الظاهر ثالث عشر رجب سنة623هـ/1227م، فكانت خلافته تسعة أشهر وأيّاما، وقد روى الحديث عن والده بالإجازة، وروى عنه عنه أبوصالح، نصر بن عبد الرّزاق بن الشّيخ عبد القادر الجيلي[103] .

المستنصر بالله(أبو جعفر)623هـ/640هـ-1227م/1243م: المستنصر بالله، أبو جعفر، منصور بن الظاهر بأمر الله، ولد في صفر سنة588هـ/1193م، أمّه جارية تركية، وبويع له بعد موت أبيه في رجب سنة623هـ/1227م، فنشر العدل في الرّعايا، وبذل الإنصاف في القضايا، وقرّب أهل العلم والدّين، وبنى المساجد والرّبط والمدارس والمارستانات، وأقام منار الدّين، وقمع المتمردة، ونشر السّنّن، وكفّ الفتن، وحمل النّاس على أقوم سنّن، وقام بأمر الجهاد أحسن قيام، وجمع الجيوش لنصرة الإسلام، وحفظ الثغور، وافتتح الحصون...وقيل: أنّه أنشأ المدرسة المستنصريّة، ورتبّ فيها الرّواتب الحسنة لأهل العلم[104] .

وقيل: بنى المستنصر على دجلة من الجانب الشّرقي مدرسة ما بنى على وجه الأرض أحسن منها، ولا أكثر منها وقوفا، وهي بأربعة مدرسين على المذاهب الأربعة، وعمل فيها مارستانا، ورتبّ فيها مطبخا للفقهاء، ومزملة للماء البارد، ورتبّ لبيوت الفقهاء الحصر والبسط والزّيت والورق والحبر وغير ذلك، وللفقيه بعد ذلك في الشّهر دينارا، ورتبّ أهمّ حمّاما، وهو أمر لم يسبق إلى مثله، واستخدم عساكر عظيمة لم يستخدم مثلها أبوه، ولا جدّه، وكان ذا همّة عالية وشجاعة وأقدام عظيم، وقصدت التّتر البلد، فلقيّهم عسكره، فهزموا التّتر هزيمة عظيمة، وكان له أخ يقال له: الخفاجي، فيه شهامة زائدة، وكان يقول: لئن، وليت لأعبرنّ بالعسكر نهر جيحون، وأخذ البلاد من أيدي التّتر، واستأصلهم، فلمّا مات المستنصر لم يرد الدّويدار، ولا الشّرابى تقليد الخفاجي خوفا منه، وأقاما ابنه "أبا أحمد"؛ للينه، وضعف رأيه؛ ليكون لهما الأمر؛ ليقضي الله أمرا كان مفعولا من هلاك المسلمين في مدّته، وتغلّب التّتر، فإنّا لله، وإنّا إليه راجعون[105] .

وقيل: وقد بلغ وقوف المستنصرية في العام نيفا وسبعين ألف مثقال، ابتداء عمارتها في سنة625هـ/1229م، وتمّت في سنة631هـ/1234م، ونقل إليها الكتب، وهي مائة وستة حملا من الكتب النّفيسة، وعدد فقهائها مائتان وثمانية وأربعون فقيها من المذاهب الأربعة، وأربعة مدرسين، وشيخ نحو، وشيخ طبّ، وشيخ فرائض، ورتبّ في الخبز والطبيخ والحلاوة والفاكهة، وجعل فيها ثلاثين يتيما، ووقّف عليها مالا يُعَبَّر عنه كثرة، ثمّ سرد الذّهبي، والرّباع الموقفة عليها، وقال:وفتحت يوم الخميس، في رجب، وحضر الفقهاء والمدّرسون والأعيان وسائر الدّولة، وكان يوما مشهودا، وفي632هـ/1239م أمر المستنصر بضرب الدّراهم الفضيّة؛ ليتعامل بها بدلا عن قراضة الذّهب، فجلس الوزير، وأحضر الولاّة والتّجار والصّيارفة، وفرشت الأنطاع، وأفرغ عليها الدّراهم، وقال الوزير:"قد رسم مولانا أمير المؤمنين لمعاملتكم بهذه الدّراهم عوضا عن قراضة الذّهب رفقا بكم، وإنقاذا لكم من التّعامل بالحرام من الصرف الرّبوي"، فأعلنوا بالدّعاء، ثمّ أدبرت بالعراق، وسُعرت كلّ عشرة بدينار، وفي سنة640هـ/1243م توفيّ المستنصر يوم الجمعة عاشر جمادى الآخرة، ورثاه الشّعراء [106].

المستعصم بالله(أبو أحمد بن المستنصر بالله)640هـ/659هـ-1243م/1262م: المستعصم بالله، أبو أحمد، عبد الله بن المستنصر بالله، آخر الخلفاء العباسيّين العراقيّين، ولد سنة609هـ/1213م، أمّه أمّ ولد اسمها "هاجر، بويع له بالخلافة عند موت أبيه، وأجاز له على يد ابن النّجار الطوسي، وأبو روح الهروي، وجماعة، وروى عنه بالإجازة جماعة منهم، النّجم البادرائي، والشّرف الدّمياطي، وخرّج له الدّمياطي أربعين حديثا بخطّه، وكان كريما حليما سليم الباطن حسن الدّيانة...وقيل: كان متدينا، مستمسكا بالسنّة كأبيه، وجدّه، ولكنّه لم يكن مثلهما في التّيقظ والحزم وعلوّ الهمّة، وكان للمستعصم أخًا، يُعْرف ب"الخفاجي"، يزيد عليه في الشّجاعة والشّهامة، وكان يقول: "إنَ ملَّكَني الله الأمر؛ لأعبرنّ بالجيوش نهر جيحون، وأنتزع البلاد من التّتر، وأستأصلهم"، فلمّا توفيّ المستنصر، لم ير الدّويدار، والشّرابي والكبار تقليد الخفاجي الأمر، وخافوا منه، وآثروا المستعصم للينه، والقيادة؛ ليكون لهم الأمر، فأقاموه، ثمّ ركن المستعصم إلى وزيره ميد الدّين العلقمي الرّافضي، فلعب بالخليفة كيف أراد، وباطن التّتر، وناصحهم، وأطمعهم في المجيء إلى العراق، وأخذ بغداد، وقطع الدّولة العباسيّة؛ ليقيم خليفة من آل علي، وصار إذا جاء خبر منهم كتمه عن الخليفة، ويطالع بأخبار الخليفة التّتر؛ إلى أن حصل ما حصل[107].

وازداد شرّ التّتر ونارهم تستعر والخليفة والنّاس في غفلة عمّا يُراد بهم، والوزير العلقمي حريص على إزالة الدّولة العباسيّة، ونقلها إلى العلويّة، والرّسل في السرّ بينه وبين التّتر، والمستعصم تائه في لذّاته لا يطّلع على الأمور، ولا له غرض في المصلحة، وكان أبوه المستعصم قد استكثر من الجند جدّا، وكان مع ذلك يصانع التّتر، ويهادنهم، ويرضيهم، فلمّا استُخلف المستعصم كان خليّا من الرّأي، والتّدبير، فأشار عليه الوزير بقطع أكثر الجند، وأنّ مصانعة التّتر، وإكرامهم يحصل به المقصود، ففعل ذلك، ثمّ إنّ الوزير كاتب التّتر، وأطمعهم في البلاد، وسهّل عليهم ذلك، وطلب أن يكون نائبهم، فوعدوه بذلك، وتأهبّوا لقصد بغداد [108] .

خاتمة: يتبيّن أنّ ولاية العهد شكلا من أشكال توليّ الحكم عند بني حكّام أسرة بني العباس للدّولة الإسلاميّة ، مرّت بمراحل مهمّة، وتأثّرت بمروف داخلية وأخرى خارجيّة، فكانت مدعاة لتهاوي الحكم العباسي، خاصّة وأنّ تحولاتها دفعت الوزراء والحجّاب والخدّام يتدخّلون في شؤون ولاية العهد والحكم عموما، فضلا عن تدخّل الجند .

---

(1) ولِيَ، وَلِيَه، ولْيًا: دنا منه، وأوليته إيّاه؛ أدنيْتُه، وكُلُ مما يليك. أنظر، الزّمخشري(أبو القاسم، جار الله، محمود بن عمر بن أحمد ت538هـ): أسّاس البلاغة، تحقيق: محمّد باسل عيون السّود، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، 1419هـ/1998م، ج2، مادة:(وله)، ص355 ؛عَهِدَ، عهد إليه، واستعهد منه إذا وصّاه، وشرط عليه، والرّجل العَهِدْ، المحبّ للولايات والعهود. أنظر، الزّمخشري: نفس المصدر، ج1، مادة: (عهد)، 687؛ يدّعي بنو العبّاس وراثة الحكم، ولم يستطع السفّاح مواصلة خطبته لتوعكه، فواصل عمّه داود بن علي، فقال:"الحمد لله شكرا الّذي هلك عدوّنا، وأصار إلينا ميراثنا من نبيّنا محمّد -صلّى الله عليه وسلّم-، أيّها النّاس، إنّما أخرجتنا الأنفة من ابتزازهم حقّنا، والغضب لبني عمّنا، وما كرثنا من أموركم، ولقد كانت أموركم ترفضنا، ويشتدّ علينا سوء سيرة بني أميّة فيكم، وخرقكم بكم، واستذلالهم لكم، واستئثارهم بفيئكم، وصدقاتكم، ومغانمكم عليكم، لكم ذمّة الله تعالى، وذمّة رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-، وذمّة العبّاس أن نحكم فيكم بما أنزل الله، ونعمل فيكم بكتاب الله، ونسير في العامّة منكم، والخاصّة بسيرة رسول الله...". أنظر، ابن الأثير: الكامل، ج5، ص68 ؛ أنظر الملحق، رقم 1، خلفاء بني العباس في العراق ومصر، ص ص 169 ، 170 ؛ في 132هـ/750م .

(2) عقد السّفاح، عبد الله بن محمّد بن علي بن عبد الله بن عبّاس لأخيه أبي جعفر، عبد الله بن محمّد بالخلافة من بعده، وجعله وليّ عهد المسلمين، ومن بعده ولد أخيه عيسى بن موسى بن محمّد بن علي، وجعل العهد في ثوب، وختمه بخاتمه، وخواتيم أهل بيته، ودفعه إلى عيسى بن موسى. أنظر، ابن الأثير: مصدر سابق، ص100.

(3) ابن كثير القرشي الدّمشقي(الإمام الحافظ عماد الدّين أبي الفدا ت 701هـ/774م): البداية والنّهايّة، راجعه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه: محمّد تامر، شريف محمّد، محمّد عبد العظيم، محمّد سعيد محمّد، دار: الوّعي للنّشر والطّبع والتّوزيع، الجزائر، ج5، ص530 .

(4) الطّبري(أبو جعفر، محمّد بن جرير الطّبري 224هـ/310م):تاريخ الطّبري(تاريخ الأمّم والملوك)، راجعه وقدّم له وأعدّ فهارسه: نواف الجرّاح، دار ومكتبة الهلال، الطّبعة الأولى، ج5، ص1642.

(5) المدّور(جميل نخلة): تاريخ العراق في عصر العبّاسيّين المسمّى حضارة الإسلام في دار السّلام، دار: الآفاق العربيّة، القاهرة، مصر، الطّبعة الأولى،1423هـ/2003م، ص ص34 ، 35 .

(6) عمرو بن عبيد بن باب، وباب من سبي كابل، من ثغور بلخ، مولى لآل عرّادة من يربوع بن مالك، كنيته عمرو أبو عثمان، في طبقة الإعتزال الرابعة، من روّاة الحديث، ولد عام80هـ/699م، وأختلف في تاريخ وفاته، أكّد الجاحظ أنّه عالما عابدا ذو بيان، وصاحب قرآن، وأضاف ابن النّديم، بين عينيه أثر السجود، و قيل فيه ربّما مبالغة في تعظيمه: صلّى أربعين عاما صلوة الفجر بوضوء المغرب، وحجّ أربعين حجّة ماشيا، يُحيي الليل بركعة واحدة، ويُرَجع آية واحدة، جمع بين علوم الدين والدنيا، حتّى وصفه

أحدهم"كان عمرو إذا رأيته مقبلا، توهمته جاء من دفن والديه، وإذا رأيته متكلما، توهمت أنّ الجنّة والنّار لم تُخْلقا إلاّ له. أنظر، ابن المرتضى(أحمد):طبقات المعتزلة، تحقيق: سوسنة ديقلد قلزر، منشورات: مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1960م، ص35؛ أنظر، الشّهرستاني(أبو الفتح، محمّد بن عبد الكريم ت548هـ): الملّل والنّحل، قدّم له وعلّق حواشيه: الدّكتور. صلاح الدّين الهوّاري، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، طبعة2008م، ج1، ص43؛ البغدادي(عبد الظاهر بن محمّد الإسفرائيني التّميمي ت469هـ/1037م) :الفرق بين الفرق، تحقيق و ضبط الشّكل و التّعليق على الحواشي: محمّد، محي الدّين عبد الحميد، دار المعرفة للطّباعة و النّشر، بيروت، لبنان، ص87؛ ابن النّديم(محمّد بن اسحاق، المعروف إسحاق أبي يعقوب الورّاق):كتاب الفهرست، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى 1427هـ/2006م، ص203 .

(7) المسعودي: مروج، ج3، ص219 .

(8) الدّينوري(أبوحنيفة، أحمد بن داود ت282هـ): الأخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: الدّكتور. جمال الدّين الشيّال، وزارة الثّقافة والإرشاد القومي، الإقليم الجنوبي، 1379هـ/1959م، ص384 .

(9) النّويري(شهاب الدّين، أحمد بن عبد الوهاب 677هـ/733هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب، مطابع كوتساتسوماس وشركاه، القاهرة، مصر، م3 ، ج6، ص41 .

(10) والنّظر في المظالم قديم، كان الفرس يرون ذلك من قواعد الملك، وقوانين العدل، الّذي لا يعمّ الصلاح، إلاّ بمراعاته، ولا يتّم التّناصف إلاّ بمباشرته، وكانوا ينتصبون لذلك بأنفسهم في أيّام معلومة، لا يُمنع عنهم من يقصدهم فيها من ذوي الحاجات، وأرباب الضّرورات، وسبب تمسّكهم بذلك أنّ أصل قيام دولتهم ردّ المظالم. أنظر، النّويري:نفس المصدر، م3، ج6، ص266 .

(11) القيرواني(أبو إسحاق، إبراهيم بن علي الحصري): زهر الأداب وثمر الألباب، شرحه ووضع فهارسه: علي محمّد البجاوي، وعارضه بمخطوطات القاهرة، وحقّقه: عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطّبعة الثّانية، 1389هـ/1969م، م1، ج1، ص83 .

(12) ابن الطّقطقي(محمّد بن علي بن طباطبا): الفخري في الآداب السّلطانية والدّول الإسلاميّة، عني بنشره: محمّد توفيق الكتبي، الطّبعة الرّحمانية، ص113.

(13) ابن خلدون(عبد الرّحمن بن محمّد بن خلدون الحضرمي المغربي ت808هـ): تاريخ ابن خلدون، المسمّى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر، مؤسّسة: جمال للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، 1399هـ/1979م، ج3، ص204 .

(14) كنانة، قبيلة من مُضر، وهوكنانة بن خُزيمة بن مدركة بن إلياس بن مُضر، وبنو كنانة من تغلب بن وائل، قريش تغلب. أنظر، ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطّبعة الأولى، م13، ص13 .

(15) ابن خلدون: العبر، ص271 .

(16) الرّبيع بن يونس، أبو الفضل، الرّبيع بن يونس بن محمّد بن عبد الله بن أبي فروة، واسمه كيسان، مولى الحارث الحفّار، مولى عثمان بن عفّان رضيّ الله عنه، كان حاجب الخليفة المنصور، ثمّ وزر له، بعد أبي أيوب الموريانى، أحد المقرّبين إلى الخليفة أبي جعفر، ومكين لديه؛ إذ أنّه مُقدّم على الموالي، توفّي عام 170هـ/787م. أنظر، ابن خلّكان: مصدر سابق، م2، ص299؛ المدّور: تاريخ العراق، ص33 .

(17) ابن خلدون: العبر، ج3، ص205 .

(18) سنة147هـ/764م، فيها خُلع عيسى بن موسى بن محمّد بن علي من ولاية العهد، وبويع للمهدي، محمّد بن المنصور، واختلف في السّبب الذي خلع لأجله نفسه، فقيل: أنّ عيسى لم يزل على ولاية العهد، وإمارة الكوفة من أيّام السّفاح إلى الآن، فلمّا كبر المهدي، وعزم المنصور علي البيعة له، كلّم عيسى بن موسى في ذلك، وكان يكرمه، ويجلسه عن يمينه، ويجلس المهدي عن يساره، فلمّا قال له المنصور في معنى خلع نفسه، وتقديم المهدي عليه، أبى، وقال: يا أمير المؤمنين، كيف بالأيمان عليّ وعلى المسلمين من العتق والطلاق وغيرذلك، ليس إلى الخلع سبيل، فتغيّر المنصور عليه، وباعده بعض المباعدة، وصار يأذن للمهدي قبله، وكان يجلس عن يمينه في مجلس عيسى، ثمّ يؤذن لعيسى، فيجلس إلى جانب المهدي، ولم يجلس عن يسار المنصور. أنظر، ابن الأثير: الكامل، ج5، ص180 .

(19) المدّور: مرجع سابق، ص65 .

(20) الطّبري: مصدر سابق، م5، ص1658.

(21) كانت الخيزران لرجل من ثقيف، قدم بها مكّة، فباعها في الرّقيق، فاشتريت، وعرضت على المنصور، فقال: من أين أنت؟ قالت: المولد مكّة، والمنشأ بحرش، فأمر غلامه، أن يذهب بها إلى المهدي، الّذي وقعت منه كلّ موقع، فلمّا ولدت موسى وهارون قالت: إنّ لي أهل بيت بحرش، لي أختان، ولي أمّ، وأخوان، فأتي بهم، فتزوّج جعفر بن المنصور سلسل، فولدت منه زبيدة، واسمها "سكينة"، و في 159هـ/776م أعتقها المهدي، وتزوّجها. أنظر، الجاحظ: المحاسن والأضداد، قدّم له وبوّبه وشرحه: الدّكتور. علي بوملحم، دار ومكتبة الهلال للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، طبعة2008م ، ص ص214،213؛ ابن عماد الحنبلي(أبو الفلاح، عبد الحي ت1089هـ): شذرات الذّهب في أخبار من ذهب، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى1399هـ/1989م شذرات، ج1، ص245؛ القضاعي(القاضي، محمّد بن سلامة بن جعفر الشافعي، أبوعبيد الله ت454هـ):تاريخ القضاعي، كتاب عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف، دراسة وتحقيق: الدّكتور. جميل عبد الله، محمّد المصري، جامعة أمّ القرى، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنيّة، طبعة1415هـ/1995م، ص411 .

(22) المسعودي: مروج، ج3، ص238 .

(23) ابن الطّقطقي: مصدر سابق، ص26 .

(24) المسعودي:مصدر سابق، ص238؛ الطبري: مصدر سابق، ج5، ص1659؛ ابن خلدون:العبر، م3، ص217 .

(25) ابن خلدون: نفس المصدر، ص217 .

(26) هارون الرّشيد، الخليفة هارون، أبو جعفر بن المهدي بن المنصور عبد الله بن محمّد بن علي بن عبد الله بن العبّاس، أستخلف بعهد من أبيه عند موت أخيه الهادي، ربيع الأوّل عام170هـ/787م، كان يبغض المراء في الدّين والكلام في معارضة النّص، استمرّ حكمه إلى عام 193هـ/809م. أنظر، السّيوطي:تاريخ الخلفاء، ص ص221 ، 222 .

(27) أمّ جعفر بن يحي، هي فاطمة بنت محمّد بن الحسين بن قحطبة، أرضعت الرّشيد مع جعفر؛ لأنّه كان يربّى في حجرها، وغُذي برسلها؛ لأنّ أمّه ماتت عن مهده، فكان الرّشيد يشاورها، مظهرا لإكرامها، والتّبرّك برأيها. أنظر، ابن عبد ربّه الأندلسي(أبو محمّد، أحمد بن محمّد): العقد الفريد، شرحه وصحّحه وعنون موضوعاته ورتّب فهارسه: أحمد أمين، أحمد الزّين، إبراهيم الأبياري، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر، القاهرة، مصر، 1384هـ/1965م، ج5، ص11 .

(28) ولاية العهد، كان الخليفة الرّشيد قد بايع بولاية العهد لابنه محمّد في سنة175هـ/792م، وله يومئذ خمس سنين؛ لحرص أمّه زبيدة على ذلك، وقال الذهبي: فكان هذا أوّل وهن جرى في دولة الإسلام من حيث الإمامة، ثمّ بايع لابنه عبد الله من بعده في سنة182هـ/798م، ولقبّه المأمون، وولاّه ممالك خراسان بأسرها، ثمّ بايع لابنه القاسم من بعد الأخوين في سنة186هـ/802م، ولقبّه المؤتمن، وولاّه الجزيرة والثغور، وهو صبي، فلمّا قسّم الدّنيا بين هؤلاء الثلاثة، قال البعض: لقد ألقى بأسهم بينهم، وغائلة ذلك تضرّ بالرّعية، ثمّ إنّه علّق نسخة في البيت العتيق. أنظر، السّيوطي: مصدر سابق، ص225 .

(29) الأمين، هو أبوعبد الله بن الرّشيد هارون بن أبي عبد الله المهدي بن أبي جعفر المنصور، وأمّه زبيدة بنت جعفر الأكبر بن المنصور، خلافته أربع سنين وثمانية أشهر وخمسة أيّام، وليّ الخلافة يوم الخميس إحدى عشرة ليلة بقيت من جمادي الأولى سنة193هـ/809م، وقتل ليلة الأحد لست بقين من محرم سنة198هـ/814م. أنظر، ابن الأثير:الكامل،ج5، ص406 .

(30) المأمون، الخليفة عبد الله، أبو العبّاس بن الرّشيد، ولد عام 170هـ/787م في منتصف ربيع الأوّل ليلة موت الخليفة الهادي، أمّه اسمها "مراجل"، عرف بالحزم والحلم والدّهاء والرّأي، في عهده محنة خلق القرآن، كان أمّارا بالعدل، حكم من198هـ/814م-218هـ/833م كان فقيه النّفس. أنظر، السّيوطي:مصدر سابق، ص236.

(31) النّويري: نهاية الأرب، م3، ج6، ص276 .

(32) ابن كثير: مصدر سابق، ص653 .

(33) ثمامة، ثُمامة بن أشرس ت213هـ/828م، ثُمامة بن أشرس، يُكنّى: أبا مُعن النُميري، واحد دهره في العلم والأدب، كان جدلا حاذقا، عُرف بعلاقته الحميمية مع القصر العبّاسي، من وزراء وخلفاء. أنظر، ابن المرتضى: مصدر سابق، ص62 .

(34) البيهقي(إبراهيم بن محمّد): المحاسن والمساوئ، تحقيق: محمّد، أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر،ج1، ص135 .

(35) علي بن موسى الرّضا، أبو الحسن، عليّ بن موسى الكاظم بن جعفر الصّادق بن محمّد الباقربن عليّ زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب -ﷺ-، أحد الأئمّة الاثني عشر في اعتقاد الإماميّة، ولد في يوم الجمعة 153هـ/770م بالمدينة، ولاّه الخليفة المأمون عهد المسلمين والخلافة من بعده، ولقبّه الرّضا من آل محمّد، وأمر جنده بطرح السّواد، ولبْس ثياب الخُضْرة، وكتب بذلك إلى الآفاق، توفّي في شهر صفر202هـ/818م، وصلّى عليه المأمون، ودفن قرب قبر الرّشيد. أنظر، الطّبري: تاريخ الطّبري، م4، ص1837؛ أنظر، ابن خلّكان: مصدر سابق، م3، ص ص269 ، 270 .

(36) المعتصم، الخليفة أبو إسحاق محمّد بن الرّشيد، ولد عام 178هـ/794م، أمّه "ماردة"، امتحن العلماء في خلق القرآن، يقال له: المثمّن، حكم من 218هـ/227هـ-739م/748م بعد المأمون، سلك مسلكه من امتحان النّاس بخلق القرآن، وقتل خلقا كثيرا. أنظر، السّيوطي: مصدر سابق، ص ص253 ،254 .

(37) عبد الله بن طاهر، أبو العبّاس، عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن رُزيق بن ماهان الخزاعي، كان الخليفة المأمون كثير الاعتماد عليه، وكان واليّا على الدّينور، أمره بالخروج إلى خراسان، فخرج، وحارب الخوارج في سنة213هـ/828م، وقدم نيسابور في ربيع الأول سنة215هـ/830م، توفّي بمرو في ربيع الأوّل سنة218هـ/833م، وقيل: ثلاثين. أنظر، ابن خلّكان: وفيات، ج3، ص ص83، 84؛ 230هـ/845م مات فيها عبد الله بن طاهر بنيسابور في ربيع الأول، وهو أمير خراسان، وكان إليه الحرب والشرطة والسّواد والريّ وطبرستان وكرمان وخراسان ومايتصل بها، وكان خراج هذه الأعمال يوم مات ثمانية وأربعين ألف ألف درهم، وكان عمره ثمانية وأربعين، فاستعمل الواثق ابنه "طاهر بن عبد الله" . أنظر، ابن الأثير: مصدر سابق، ج6، ص82 .

(38) أحمد بن أبي دؤادة247هـ/251هـ -861م/865م، القاضي أبوعبد الله، أحمد بن فرج بن حريز الإيّادي البصري البغدادي الجهمي، عدو أحمد بن حنبل، كان داعيّة إلى خلق القرآن، له كرم وسخاء وأدب، ولد عام 160هـ/777م بالبصرة، شاعرا مجيدا، فصيحا، مات هو، وولده منكوبين، عام 240هـ/855م، دفن في داره ببغداد. أنظر، الذّهبي: سيّر أعلام النّبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسّة الرّسالة، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّالثة 1405هـ/1985م، ج11، ص ص169 ،170 .

(39) ابن كثير:مصدر سابق، ص656 .

(40) القيرواني: زهر الأداب، ج2، ص785 .

(41) المسعودي: : التّنبيه والإشراف، طبع: في مدينة ليدن المحروسة ، مطبعة أبريل، 1893م، ص355 .

(42) الواثق، الخليفة أبو القاسم بن المعتصم بن الرّشيد، أمّه "قراطيس"، ولد عام196هـ/812م، ولي العهد بعهد من أبيه، بويع له في التّاسع من ربيع الأوّل عام227هـ/857م إلى232هـ/862م، كتب إلى أمير البصرة أن يمتحن الأئمّة والمؤذّنين بخلق القرآن، طغى على رأيه أحمد بن أبي دؤادة. أنظر، السّيوطي: مصدر سابق، ص 257 .

(43) ابن الأثير: الكامل في التّاريخ، ج6، ص73؛ الخليفة الواثق أحسن إلى النّاس، واشتمل على العلويّين، وبالغ في إكرامهم والإحسان إليهم، والتّعهد لهم بالأموال، وفرّق في أهل الحرمين أموالا لا تحصى، حتى أنّه لم يوجد في أيّامه بالحرمين سائل. أنظر، ابن الأثير: الكامل، ج5، ص93 .

(44) المتوكّل، الخليفة جعفر أبوالفضل بن المعتصم بن الرّشيد، أمّه اسمها "شجاع"، ولد سنة205هـ، أو207هـ/821م/823م، بويع له بعد الواثق، وبقي حكمه إلى سنة 247هـ/861م. أنظر، السّيوطي: مصدر سابق، ص260 .

(45) بويع للمتوكل على الله، جعفر بن المعتصم بعد موت الواثق؛ وسببّ خلافته، أنّه لما مات الواثق، حضر الدّار أحمد بن أبي دؤادة، وإيتاخ، ووصيف، وعمر بن فرج، وابن الزيّات، وأبو الوزير أحمد بن خالد، وعزموا على البيعة لمحمّد بن الواثق، وهو غلام أمرد، فألبسوه درّاعة سوداء ،وقلنسوة، فإذا هو قصير، فقال وصيف: أما تتّقون الله، تولون هذا الخلافة، فتناظروا فيمن تولونه، فذكروا عدّة، ثمّ أحضر المتوكل، فلمّا حضر، ألبسه أحمد بن أبي دؤادة الطويلة، وعمّمه، وقبّل بين عينيه، قائلا: "السّلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته"، ثمّ غُسّل الواثق، وصُليّ عليه، ودُفن، وكان عمر المتوكل حين بويع ستّا وعشرين عاما. أنظر، ابن الأثير: مصدر سابق، ج6، ص94 .

(46) السّيوطي: مصدر سابق، ص260؛ كان إيتاخ غلاما طبّاخا لسلام الأبرش، فاشتراه منه المعتصم في 199هـ/815م، وكان فيه شجاعة ، فرفعه الخليفتان المعتصم والواثق، وضمّا إليه أعمالا كثيرة ، منها المعونة بسامرّاء مع إسحاق بن إبراهيم، وكان المعتصم إذا أراد قتل أحد، فبيد إيتاخ، وبيده يحبس، وكان مع الخليفة المتوكل في مرتبته، وإليه الجيش والمغاربة والأتراك والأموال والبريد والحجابة ودار الخلافة. أنظر، ابن الأثير:الكامل، ج6، ص101 .

(47) ابن الأثير: نفس المصدر، ص 105 .

(48) يحي بن أكثم، ابن محمّد بن قطن، قاضي القضاة، الفقيه العلاّمة أبو محمّد التّميمي المروزي، ثمّ البغدادي، ولد في خلافة المهدي، وله معرفة، من أئمّة الإجتهاد، له تصانيف، منها: كتاب التّنبيه، واسع العلم بالفقه، كثير الأدب، غلب على المأمون، وكانت الوزراء لا تبرم شيئا حتّى تراجعه، ولاّه المأمون قضاء بغداد، من ولد أكثم بن صيفي، ولي قضاء البصرة، وعمره عشرون سنة، كان يقول :أنّ القرآن كلام، ومن قال: مخلوق، يُستتاب، فإن تاب، وإلاّ ضُربت عنقه، كانت كتبه في الفقه من أجَّلِ الكتب، مات عام242هـ/857م وعمره89سنة. أنظر، الذّهبي: سير أعلام النّبلاء، ج12، ص5وما بعدها .

(49) ابن الأثير: مصدر سابق، ص112 .

(50) سامرّاء، مدينة عراقيّة على الضّفة الشّرقيّة لنهر الدّجلة بين تكريت وبغداد، مشتقّة من اسم فارسي "سام"- "راه"، كتبت سرّ من رآى على السّكة الّتي كان يضربها الخلفاء، أنشأت عام221هـ/836م في عهد المعتصم على يد أشناس أحد قواده التّرك؛ لتأمين الخليفة، الّذي كان يعيش على الدّوام مهدّدا في بغداد. أنظر، دائرة المعارف الإسلاميّة، نقلها إلى العربيّة: محمّد ثابت الفندي وآخرون، جمادي الثّانية1352هـ /أكتوبر1937م، م10، ص82 .

(51) ابن الأثير: مصدر سابق، ص113 .

(52) المعتزّ، أبو عبد الله المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد، وأمّه أمّ ولد اسمها "قبيحة"، ولد 231هـ/846م، وكان أبوه المتوكل قد جعله وليّا للعهد بعد أخيه المنتصر، فلم تتمّ له الولاية؛ لأنّ المنتصر أرغمه على أن يخلع نفسه، ولما وليّ المستعين بعد المنتصر حبسه هو، وأخاه المؤيد، حتّى كانت الفتنة بين قوّاد المستعين، فأخرج المعتزّ. أنظر، السّيوطي:مصدر سابق، ص 269 .

(53) الفتح بن خاقان، الفتح بن خاقان بن غرطوج، في غاية الذكاء، وحسن الأدب، من أولاد الملوك، له خزانة كتب، جمعها له علي بن يحي المنجم، حضر داره فصحاء الأعراب وعلماء الكوفة والبصرة، تُركي الأصل، أديبا فاضلا، قرّبه المتوكّل. أنظر، ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج16، ص174وما بعدها.

(54) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص269 .

(55) المنتصر، هو محمّد المنتصر بن المتوكل بن المعتصم بن الرّشيد، وأمّه أمّ ولد رومية اسمها "حبشية"، ولد 222هـ/837م، ولما قتل أبوه بايعه القواد الأتراك عقب مقتل أبيه في الرّابع من شوال 247هـ/861م، واستمرّ حكمه إلى وفاته 248هـ/862م . أنظر، السّيوطي: نفس المصدر، ص228 .

(56) نفسه .

(57) المستعين، أحمد بن محمّد بن المعتصم بن الرّشيد، أمّه أمّ ولد صقلية اسمها "مخارق"، ولد220هـ/835م، وبويع بالخلافة248هـ/862م. أنظر، السّيوطي: نفس المصدر، ص 268 .

(58) في 251هـ/865م قتل باغر التّركي من وصيف، وبُغا التّركي. أنظر، ابن الأثير: مصدر سابق، ج7، ص163 .

(59) السّيوطي: مصدر سابق، ص 229 .

(60) أحمد بن الخصيب، وزير الخليفة المنتصر، ثمّ الخليفة المستعين، وكان من أقسط وزراء المشرق، وقلّة تفهمه، ونقص حظّه من العلم، وتعلّمه. أنظر، ابن فضل الله العمري(شهاب الدّين، أحمد بن يحي ت749هـ): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، ج11، مشاهير الوزراء، ص111.

(61) السّيوطي: تاريخ الخلفاء، ص269 .

(62) السّيوطي: نفس المصدر، ص ص 269 ،270؛ ابن الأثير: مصدر سابق، ج7، ص182.

(63) المهتدي، الخليفة محمّد بن هارون أمير المؤمنين المهتدي بن الواثق بن المعتصم بن الرّشيد، ولد في خلافة جدّه، بويع له، وعمره تجاوز الثّلاثين، عادلا، متعبّدا، ورعا، قويّا في أمر الله، طرح الملاهي، وحرّم الغناء، شديدا على الدّواوين، خرج عليه الأتراك، فحاربهم بنفسه، وجرح، وأسروه، وقتلوه عام 256هـ/870م، كانت خلافته عاما، إلاّ خمسة عشر يوما. أنظر ، الكتبي(محمّد بن شاكر بن أحمد ت764هـ): فوات الوفيات(هو ذيل على وفاة وفيات الأعيان لابن خلّكان)، حقّقه وضبطه وعلّق على حواشيه: محمّد محيّ الدّين، عبد الحميد)، مطبعة السّعادة، مصر، أوت1951م، ج2، ص534ومابعدها.

(64) ديوان المظالم: هيئة قضائيّة عالية(محكمة استئناف حاليا)، لذلك كانت سلطة صاحب المظالم أعلى بكثير من سلطة القاضي، هذه الهيئة موضوعة؛ لإنصاف المظلومين، وإغاثة المستضعفين؛ أي تنظر في ظلامات النّاس، أيّا كان نوعها تُسند رياسة ديوان المظالم لرجل جليل القدر، كثير الورع، يُعرف باسم "قاضي المظالم"، موضوع لما عجزعنه القضاة، وناظر المظالم يقود المتظالمين إلى التّناصف بالرّهبة، وزجر المتنازعين عند التّجاحد بالهيبة. أنظر، الماوردي(أبو الحسين، علي بن محمّد بن حبيب البصري البغدادي ت450هـ): كتاب الأحكام السّلطانيّة والولايات الدّينيّة، تحقيق: سمير مصطفى رباب، المكتبة العصريّة، صيدا، بيروت، لبنان، طبعة أخيرة،2004م، ص 94-262؛ مصطفى الرّافعي: الإسلام نظام إنساني، مراجعة: الشّيخ. حسن تميم، منشورات دار ومكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ط2، 1958م، ص178.

(65) السّيوطي: تاريخ الخلفاء، ص270ومابعدها.

(66) المعتمد،، أحمد المعتمد على الله بن المتوكل بن المعتصم، أمّه أمّ ولد كوفية اسمها "فتيان"، ولد231هـ/846م، بويع له من غير عهد سابق 256هـ/870م، توفي في رجب279هـ/893م؛ السّيوطي: نفس المصدر، ص272 .

(67) المعتضد: سلك نهج والده في حروبه وأعماله الإدارية على مدى تسع سنوات مدّة خلافته، وكان يهدف إلى إنعاش الخلافة، وتثبيت هيبتها، واستمرّ في عهده تراجع نفوذ الأتراك، توفي في ربيع الآخر289هـ/902م. أنظر، السّيوطي: نفس المصدر، ص275 .

(68) المكتفي، علي المكتفي بن المعتضد بن أبي أحمد المتوكل، أمّه أمّ ولد تركية اسمها "جيجك"، ولد236هـ/851م وتوفي 295هـ/908م. أنظر، السّيوطي: نفس المصدر، ص280 .

(69) الخليفة الرّاضي، ابن العباس أحمد بن المقتدر بالله، أُجلس يوم الأربعاء لست خلون من جمادي الأولى، لقبّ بالرّاضي، بايعه القواد والنّاس في 322هـ/934م. أنظر، ابن الأثير: الكامل، ج7، ص98 .

(70) ابن رائق، قلّد الشرطة في بغداد في 317هـ/929م، وقتل بالموصل في 942م، وقيل: بنو حمدان قتلوه بالموصل، وناصر الدّولة الحسن هو قاتله. أنظر، ابن الأثير: نفس المصدر، ص57-118.

(71) السّيوطي: تاريخ الخلفاء، ص290 .

(72) السّيوطي: نفس المصدر،ص291 .

(73) السّيوطي: نفس المصدر، ص292 .

(74) السّيوطي: نفس المصدر، ص293 .

(75) السّيوطي: نفس المصدر، ص294 .

(76) نفسه .

(77) السّيوطي: نفس المصدر، ص 296 .

(78) السّيوطي: نفس المصدر، ص 298 .

(79) السّيوطي: نفس المصدر، ص 301 .

(80) السّيوطي: نفس المصدر، ص302 .

(81) السّيوطي: نفس المصدر، ص304 .

(82) السّيوطي: نفس المصدر، ص305 .

(83) السّيوطي: نفس المصدر، ص ص305 ، 306 .

(84) السّيوطي: نفس المصدر، ص308 .

(85) السّيوطي: نفس المصدر، ص307 .

(86) السّيوطي: نفس المصدر، ص310 .

(87) السّيوطي: نفس المصدر، ص311 – 313 .

(88) السّيوطي: نفس المصدر، ص314 .

(89) السّيوطي: نفس المصدر، ص317 .

(90) نفسه .

(91) السّيوطي: نفس المصدر، ص ص317 ، 318 .

(92) السّيوطي: نفس المصدر، ص 318 .

(93) السّيوطي: نفس المصدر، ص 319 .

(94) السّيوطي: نفس المصدر، ص320 .

(95) السّيوطي: نفس المصدر، ص321 .

(96) السّيوطي: نفس المصدر، ص322 .

(97) السّيوطي: نفس المصدر، ص324 .
(98) السّيوطي: نفس المصدر، ص325 .
(99) السّيوطي: نفس المصدر، ص326 .
(100) نفسه .
(101) السّيوطي: نفس المصدر، ص327 ، 329 .
(102) السّيوطي: نفس المصدر، ص ص 330، 331 .
(103) نفسه .
(104) السّيوطي: نفس المصدر، ص332 .
(105) نفسه .
(106) السّيوطي: نفس المصدر، ص333 .
(107) السّيوطي: نفس المصدر، ص 333 -335 .
(108) السّيوطي: نفس المصدر، ص ص335 ، 336 .

ثانيا- الوزارة والوزراء والكتّاب والحجّاب في الدّولة العباسيّة:

دعت حاجة خلفاء بني العبّاس إلى الاستعانة بمساعدين لهم باسم "وزراء"، و"حجّاب"، و"كتّاب"، وكان أكثرهم فرُسًا، فإلى أيّ مدى نجح مسعاهم هذا؛ لتّوطيد حكمهم؟.

يقول الماوردي الوزارة على ضربين، تفويض، وتنفيذ، فالأولى هي، أن يستوزر الإمّام من يفوّض إليه تدبير الأمور، وبرأيه، وإمضائها على اجتهاده، وحكي عن الخليفة المأمون أنّه كتب في اختيار وزير" إنّي التمست لأموري رجلا جامعا لخصال الخير، ذا عفّة في خلائقه"، والملاحظ أنّ الخليفة لم يقتصر على مجرّد الوزارة، حتّى قرنها بشدّ أزره، وإشراكه في أمره؛ لأنّ اسم الوزارة مختلف في اشتقاقه على ثلاثة أوجه، أحدها: أنّه مأخوذ من الوِزْر، وهو، الثّقل؛ لأنّه يحمل عن الملك أثقاله، والثّاني: أنّه مأخوذ من الوِزْر، وهو، الملجأ؛ لأنّ الملك يلجأ إلى رأيه، ومعونته، والثّالث: أنّه مأخوذ من الأَزْر، وهو، الظّهر؛ لأنّ الملك يقوى بوزيره كقوّة البدن بالظّهر، ولأيّ هذه المعاني كان مشتقًّا، فليس في واحد منها ما يوجب الاستبداد بالأمور، فللإمام أن يعزل من قلّده الوزير، وليس للوزير أن يعزل من قلّده الإمّام[1].

ويعدّ أبو سلمة، حفص بن سليمان الخلاّل الهمذاني، مولى السُّبيع، وزير أبي العبّاس السّفّاح، وأبوسلمة أوّل من وقع عليه اسم الوزير، واشتهر بالوزارة في دولة بني العبّاس، ولم يكن من قبله من يعرف بهذا النّعت، لا في بني أميّة، ولا غيرها، وكان السفّاح يأنس به؛ لأنّه كان ذا مفاكهة حسنة، وممتعا في حديثه، أديبا، عالما بالسّياسة والتّدبير، وكان ذا يسار، ويعالج الصّرف بالكوفة، وأنفق أموالا كثيرة في إقامة دولة بني العبّاس، وصار إلى خراسان في هذا المعنى، وأبومسلم يومئذ تابع له في هذا الأمر، وكان يدعو إلى بيعة إبراهيم الإمّام، أخو السفّاح، فلمّا قتله الخليفة مروان بن محمّد بحرّان، وانقلبت الدّعوة إلى السّفّاح، توهّموا من أبي سلمة أنّه مال إلى العلويّين، فلمّا وليّ السّفّاح استوزره، والملاحظ أنّ وزراء العهد العبّاسي خاصّة في عصره الأوّل هم، وزراء تنفيذ[2]، كان أكثر وزراء الفرس وزراء تنفيذ، وأكثر وزراء ملوك الإسلام وزراء تفويض، ووزارة التّفويض استسلام، ووزارة التّنفيذ استمداد[3] .

وزارة التّفويض فيها شرطين هما، أوّلهما: يختصّ بالوزير، وهو مطالعة الإمّام لما أمضاه من تدبير، وأنفذه من ولاية، وتقليد؛ لئلاّ يصير بالاستبداد كالإمّام، والثّاني: مختصّ بالإمّام، وهو أن يتصفّح أفعال الوزير، وتدبيره الأمور؛ ليقرّ منها ما وافق الصّواب، وسيدرك ما خالفه؛ لأنّ تدبير الأمّة إليه موكول، وعلى اجتهاده محمول، ويجوز لهذا الوزير أن يحكم بنفسه، وأن يقلّد الحكّام، كما يجوز ذلك للإمّام؛ لأنّ شروط الحكم فيه معتبرة، وكلّ ما صحّ من الإمّام صحّ من الوزير، إلاّ ثلاثة أشياء وهي ولاية العهد، وأنّ للإمّام أن يستعفي الأمّة من الإمّامة، وأنّ للإمّام أن يعزل من قلّده الوزير، وليس للوزير أن يعزل من قلّده الإمّام[4]، ومن أشهر وزراء التّفويض: جعفر بن يحي البرمكي، أبو الفضل، جعفر بن بَرمك بن خالد بن جاماس بن يشتاسف البرمكي، وزير الخليفة هارون الرّشيد، فصيحا، فطنا، بليغا، كان أبوه، قد ضمّه إلى القاضي أبي يوسف الحنفي، حتّى علّمه الفقه، نكبه الخليفة مع أسرته[5] .

وإذا كان للوزارة ضربان، وزارة تفويض تجمع بين كفايتي السّيف والقلم، ووزارة تنفيذ تختصّ بالرّأي والحزم، ولكلّ منها حقوقا وشروطا...أمّا وزارة التّفويض، فجامعة بين كفايتي السّيف والقلم، فهي أعمّ نظرا، وأنفذ أمرا، وهذه الوزارة هي الاستيلاء على التّدبير، والعقد، والحلّ، والتّقليد، والعزل، فأمّا العقد، فيشتمل على شرطين، تنفيذ، وإقدام، وأمّا الحلّ، فيشتمل على شرطين، دفاع، وحذر، فصار الحلّ، والعقد هنا أحد شرطي هذه الوزارة يشتملان على أربعة شروط: تنفيذ، ودفاع، وإقدام، وحذر، ولكلّ شرط منها فصل، يشتمل على فصول، فأمّا الفصل الأوّل، وهو التّنفيذ، فهو أسّ الوزارة، وقاعدة النّيابة، وهو الأخصّ بكفاية القلم في مصالح الملك، واستقامة الأعمال، ويشتمل على أربعة أقسام أحدها: تنفيذ ما صدرت به أوامر الملك، فعلى الوزير فيها حقّان أحدهما، أن يتصفّحها من زلل في ابتدائها، ويحرسها من خلل في أثنائها؛ ليردّه عن زللها باللّطف، ويقوّي عزمه على صوابها بالإحماد، وقال أفلاطون:أوّل رياضة الوزير أن يتأمّل أخلاق الملك، ومعاملته، فإن كانت شديدة فظّة، عامل النّاس بدونها، وإن كانت ليّنة مطلقة، عاملهم بأقوى منها؛ ليقرب من العدل في سعيه، والثّاني، تعجيل إمضائها للوقت المقدّر لها، حتّى لا يقف، فيوحش؛ لأنّ وقوف أوامره يوحش، وهو مندوب للتّنفيذ دون الوقوف[6] .

والقسم الثّاني، تنفيذ ما اقتضاه رأي الوزير من تدبير المملكة، فعليه في إمضائه حقّان، أحدهما، أن يراعى أولى الأمور في اجتهاده، وأصوبها في رأيّه؛ لأنّه مندوب لأصلحها، ومأخوذ بأصوبها، والثّاني، أن يطالع الملك بما جلّ، ويجوز أن يطويه عنه إن قلّ؛ ليخرج عن الاستبداد المنفر، ويسلم من الحقد المؤثر...والقسم الثّالث، تنفيذ ما صدر عن خلفائه على الأعمال التي فوّضها إلى آرائهم، ووكلها إلى اجتهادهم، فإن تفردوا بتنفيذها أمضاها لهم، ولم يتعقّبها ما لم يتحقّق زللهم فيها، وكان درك تنفيذها عائدا على العمال دون الوزير، وإن وقّفوها على تنفيذ الوزير، فعليه في تنفيذها حقّين أحدهما، أن يستكشف عن أسبابها؛ ليعلم خطأها من صوابها، والثّاني تقوية أيديهم، ونفي الارتياب عنهم، فإنّ ظهور الارتياب يخنيهم، والقسم الرّابع، تنفيذ أمور الرّعايا على ما ألفوه من عادات، ومعاملات، واختلفوا فيها، حتّى ائتلفوا بها؛ لأنّ النّاس مجبولون على الحاجة إلى أنواع لا يقدر الواحد أن يقوم بجميعها، فخولف بين همّمهم؛ لينفرد كلّ قوم بنوع منها، فيأتلفوا بها، فيقوم الزّراع بمزارعهم، ويتشاغل الصّنّاع بصنائعهم، ويتوفّر التّجّار على متاجرهم...والثّاني، أنّ الملوك أشرف النّاس منصبا، فخصّوا بمواد السّلطنّة؛ لأنّها أشرف المواد مكسبا، فإن زاحموا العامّة في درك مكاسبهم أوهنوا الرّعايا بسوء الممالك، وعاد وهنهم عليها، فاختلّ نظامها، واعتلّ مرامها[7] .

فصل الدّفاع مهمّة الوزير، فأمّا الفصل الثّاني، وهو الدّفاع، ويشتمل على أربعة أقسام أحدها، الدّفاع عن الملك من الأولياء، والثّاني: الدّفاع عن المملكة من الأعداء، والثّالث: دفاع الوزير عن نفسه من الأكفاء، والرّابع: دفاعه عن الرّعية من خوف واختلال، فأمّا القسم الأوّل في دفاعه عن الملك من أوليائه، فيكون بثلاثة أسباب أحدها، أن يقودهم إلى طاعته بالرّغبة، ويكفّهم عن معصيته بالرّهبة، والثّاني، أن يقوم بكفايتهم حتّى لا ينفروا بالقوّة، أو يتفرّقوا بالضّعف ...وثبات الملك يكون بأن تكون القوّة للسّلطان؛ ليصير قاهرا لهم، بلغ المأمون تشاغل الجند بخراسان، فكتب إلى عامله:"لو عدلت لم يشغبوا"[8] .

فصل في الإقدام من مزايا الوزير: فأمّا الفصل الثّالث، وهو الإقدام، فهو في السّياسة أو في شرطيها، وفي الوزارة أكفى نظر بها بظفر الإقدام، وخيبة الإحجام، والإقدام ينقسم قسمين، أحدهما، الإقدام على اجتلاب المنافع، والثّاني، الإقدام على دفع المضار، فأمّا الإقدام على اجتلاب المنافع، فضربين، أحدهما، استضافة مُلك، والثّاني، استزادة مواد، فأمّا استضافة الملك، فيكون بالحزم، والعزم، إذا اقترنا برغبة، ورهبة، ولأن تكون بالاغتيال، والاحتيال أولى من أن تكون بالقتال، وقيل في أمثال الحكم: أربعة لا يركبها إلاّ أهوج، ولا يسلم منها إلاّ القليل مناجزة الحرب، وركوب البحر، وشرب السّمّ للتّجربة، وائتمان النّساء على السّرّ، وأمّا استزادة المواد، فيكون بالعدل والإحسان إذا اقترنا برفق ومياسرة؛ لتكثر بهما العمارة، وتتوفّر بهما الزّراعة، فإنّ الأرض كنوز الملك يستخرجها أعوان متطوعون يقنعهم الكفّ عنهم، ويقطعهم العسف بهم، وأمّا الإقدام على دفع المضار فضربين، دفع ما اختلّ من الملك، وله سببان، نفور، وجور، فادفع ضرّر كلّ واحد منهما بالضدّ من سببه، فإنّ علاج كلّ داء بضدّه من الدّواء[9] .

فأمّا الحذر فهو، عماد الدّين الباعث على الطّاعة، والحذر منه هو الوقوف على أوامره، والانتهاء عن زواجره، فيعمل بطاعته فيما أمر، وينتهي عن معصيته فيما حظر، وأمّا الحذر من السّلطان فهو، وثاب بقدرته، متحكم بسطوته، يميل به الهوى، فيقطع بالظّنّ، ويؤاخذ بالارتياب، فالثّقة به عجز، والاسترسال معه خطر، وقد قيل: ثلاثة لا أمان لهم، السّلطان والبحر والزّمان، وقيل: إذا تغيّر السّلطان تغيّر الزّمان، والحذر منه في حالتي السّخط، والرّضا أسلم؛ لأنّه يستذنب إذا ملّ حتّى يصير المحسن عنده كالمسيء، فاستخلص رأيه بالنّصح، واستدفع تنكره بالحذر[10] .

والثّاني في حذرك منه، أن تساعده على مطالبه، وتوافقه على محابّه ومشاربه ولا تصدّه عن غرض إذا لم يقدح في دين ولا عرض، ولا تتوقّف على إجابته، وإن شغلك ما هو أهمّ، فما يقيم لك عذرا، إذا وجدك في أغراضه مقصّرا، وإن كنت على مصالح مُلكه متوفرا؛ فإنّه اتّخذك لنفسه، ثمّ لملكه، وقد يُقَدِم حظّ نفسه على مصلحة مُلكه؛ لغلبة الهوى، ونازع الشّهوة .....وإن أصرّ عليها لِنت في متاركته، وأحجمت عن مساعدته، وهو خداع يتدلّس بالمغالطة، ويخفى بالحزم، فاستنجد فيه عقلك، واستعمل فيه حزمك؛ لتسلم من تنكّره، وتخلص من وزره[11] .

والثّالث في حذرك منه، أن تذبّ عن نفسه، ومُلكه بما استطعت من مال ونفس؛ فإنّك عن نفسك تذبّ، ولها ترب؛ لأنّه لا يصلح حالك مع فساد حاله، وأنت فرع من أصله، وهو يسترسل لثقته بك، ويستسلم لتعويله عليك، فقابل ثقته بأمانتك، واستسلامه بكفايتك، ولا تلجئه أن يباشر دفع الخوف والحذر، فيلجئك إلى ما هو أخوف وأحذر؛ لأنّك تخافه، وتخاف ما يخافه، فيتوالى عليك خوفان، ويتمايلا عليك خطران، فادفع خوفك منه بدفاعك عنه تكن من الخوفين أمنا، ومن الخطرين سالما[12] .

واعلم أنّ لسلطانك عليك حقوقا لك عليه مثلها، فحقوقه عليك ثلاثة أحدها، قيامك بمصالح ملكه، وهي أربع، عمارة بلاده، وتقويم أجناده، وتثمير مواده، وحياطة رعيّته، والثّاني من حقوقه عليك، قيّامك بمصالح نفسه، وهي أربع، إدراك كفايته، وتحمل عوارضه، وتهذيب حاشيّته، واستعداد ما يدفع به النّوائب، والثّالث من حقوقه عليك، قيّامك بمقاومة أعدائه، وذلك بأربعة أشياء، تحصين الثّغور، واستكمال العدّة، وترتيب العساكر، وتقدير الحدود، فأدّ حقوق سلطانه، ووفّ شروط ائتمانه، واحذر بادرة مأخذته إن قصرت، وسطوة انتقامه إن فرطت[13] .

وأمّا حذرك من الزّمان، فإنّه يتقلب بألوانه، ويخشن بعد لياقه، فيسلب ما أعطى، ويفرق ما جمع، وحذرك من زمانك يكون من أربعة أوجه: أحدها، أن لا تثق بمساعدته، ولا تركن إلى مسايرته، فتغفل عن الحذر والاستعداد، فربّما انعكس، فافترس، وخافض، فاختلس، والوجه الثّاني، أن تنتهز فرصة مكانتك بفعل الجميل، وغرس الصّنائع، و إسداء العوارف؛ ليكونوا لك ذخرا في النّوائب، وخلفا في العواقب، ولا يلهيك استكفاك عن الاستظهار، ولا يمنعك استغناك عن الاستكثار، والوجه الثّالث، أن تكفّ نفسك عن القبيح، وتقبض يدك عن الإساءة؛ لتكفي رصد التّراث، وغوائل الهفوات، فتأمن من وجلك، وتسلم من زللك، ولا تتطاول بالقدرة، فتغفل وأنت مطلوب، وتأمن، وأنت مسلوب[14] .

والوجه الرّابع، أن تستعد لآخرتك، وتستظهر لمعادك، ولا تغترّ بالأمل، فيجيئك الفوت، ولا تلهك الدّنيا، فتصدّك عن الآخرة، فقلّ من لابسها، فسلم من تبعاتها؛ لهفوات غرورها، وعواقب شرورها، وأمّا الحذر من أهل الزّمان، فلأنّ الإنسان محسود بالنّعمة، مغبوط بالسّلامة، والنّاس على أربعة أطوار متباينة.

فصل التّقليد والعزل: وأمّا تفصيل ما اشتمل عليه التّقليد والعزل، وهو الشّطر الثّاني، فالتّقليد على ضربين، تقليد تقرير، وتقليد تدبير، فأمّا تقليد التّقرير، فهو، فيما يستأنف إنشاء قواعده، ويبتدىء تقرير رسومه، وأمّا تدبير الأموال، فالوزير يُصان عن مباشرتها، إنّما يحفظ دخلها بالهيبة والاستظهار، ويضبط خرجها بالحاجة والاضطرّار، وللتّقليد على كلّ واحد منهما شروط[15] .

فصل وزارة التّنفيذ:فهي أخصّ؛ لقصورها عمّا اشتملت عليه وزارة التّفويض، واختصاصها من عموم التّفويض بأربعة قوانين، فالفصل الأوّل من قوانينها، السّفارة بين الملك وأهل مملكته؛ لأنّ الملك معظّم بالحُجّاب، مصون عن المباشرة بالخطاب، فاقتضى أن يختصّ بسفير محتشم، ووزير معظّم يطاع فيما يورده من الأوامر والنّواهي، ويهاب فيما يتحمّله إليه من المطالب والمباغي؛ ليكون للملك لسانا ناطقا، وأذنا واعية، وهذه السّفارة مختصّة بخمسة أصناف أحدها، السّفارة بين الملك وأجناده، والثّاني، السّفارة بين الملك وعمّاله، والثّالث، السّفارة بين الملك ورعيّته؛ ليتصدّى بإنصافهم، ويصغي إلى ظلاماتهم، فيمضي ما تيسّر، وينهي عن ما تعسّر عليه، ويحتاج في هذه السّفارة إلى استعمال اللّين واللّطف؛ ليصلوا إلى استيفاء الظّلامة، والرّابع، السّفارة في استيفاء حقوق السّلطنة التي للملك، وعليه من مباشرة قبض ولا تنقيص، ويحتاج في هذه السّفارة إلى الرّهبة فيما يستوفيه للملك، وإلى اللّطف فيما يتنجزه من الملك، والخامس، السّفارة في اختيار العمّال، ومشارفة الأعمال؛ لينهي حال من يرى تقليده، وعزله من غير أن يباشر تقليدا، ولا عزلا؛ لأنّ العزل والتّقليد داخل في وزارة التّفويض، وخارج عن وزارة التّنفيذ، والملك هو الذي يأمر بالتّقليد والعزل إن لم يباشره، وشروط هذه الوزارة أن يكون جيّد الحدْس، صحيح الاختيار، قليل الاغترار، عارفا بكفاءة العمّال، ومقادير الأعمال؛ ليحمد اختياره، ويقلّ عثاره[16] .

فصل في الرّأي والمشورة:هو الفصل الثّاني من وزارة التّنفيذ، أن يمدّ الملك برأيّه ومشورته، فإنّ الملك مع جزالة رأيّه، وصحّة رويته محجوب الشّخص عن مباشرة الأمور، فصار محجوب الرّأي عن الخبرة بها، فاحتاج إلى بارز الشّخص بالمباشرة؛ ليكون بارز الرّأي بالخبرة، فليس الشّاهد

كالغائب، ولا المختبر كالغائب والوزير أحقّ بهذه المرتبة، فكان أحقّ بالرّأي والمشورة، والثّاني، أنّ استشارة الوزير عائدة إلى مصالح الملك فعمّت، واستشارة غير عائدة إلى رأيه، فخصّت، والثّانية، أن يتعلّق بمشورته اجتلاب نفع، واستدفاع ضرّر، فإن اختصّ بالمملكة كان من حقوق الوزارة، وإن جاوزها كان من نصح الوزير، وعليه أن يذكر سبب ابتدائه، ويوضح صواب رأيه، وإذا استقرّ الأحزم على ما اقتضاه الرّأي لزمه فيما يبدي به من الاستشارة، ويبدي به من المشورة أن يكتمه على كلّ خاص وعام؛ لأمرين أحدهما، أنّ الرّأي يجب أن يبهر بالأفعال دون الأقوال؛ لأنّ هوره بالفعل ضرّر، وظهوره بالقول خطر[17] .

فصل عناية الوزير بالملك:الفصل الثّالث من قوانين وزارة التّنفيذ، أن يكون عينا للملك ناظرة، وأذنا سامعة، ينهي ما شاهد على حقّه، ويخبر بما سمع على صدقه؛ لأنّه قد سوهم بالملك، ومُيِّز بالاختصاص، ونُدب للمصالح، فلزم أن يتخصّص بمصالح الملك، فيقوم مقامه في مشاهدة ماغاب، وسماع ما بعد؛ لتقدّمه على من سواهم، وعليه في ذلك ثلاثة حقوق أحدها، أن يديم الفحص عن أحوال المملكة، حتّى يعلم ماغاب، كعلمه بالحاضر، ويعلم ماخفيّ، كعلمه بالظّاهر، فلا يتدلّس حقّ أمر من باطله، ولا يشتبه عليه صدق قول من كذبه، والثّاني، أن لا يعجل مطالعة الملك بها، ولا يؤخّرها، وإن جاز تأخير العمل بها؛ لأنّ عليه الإنهاء، وليس عليه العمل، والثّالث، أن يوضّح له حقائق الأمور، ويساوي فيها بين الصّغير والكبير، ولا يمايل قريبا، ولا يتحيّف بعيدا، ولا يعظّم من الأمور صغيرا، ولا يُصغِّر منها عظيما، فإنّ من خاف من صغار الأمور أن تصير كبارا، أو من كبارها أن تعود صغارا أخبر بحقائقها في المبادىء مخبرا، وفي الغايات مشيرا، فإن أخبر بالغايات، وأعرض عن ذكر المبادىء، كان تدليسا لخبره بمشورته، فلم يؤدّ الأمانة في خبره، وإن لم يكن في مناصحته، فكان بالإنكار حقيقا، والذّم جديرا[18] .

فصل حرصه على مصالح الملك:الفصل الرّابع من قوانين وزارة التّنفيذ، أن يفتدي راحة الملك بتعبه، ويقي دعته بنصبه، ولا يغيب إذا أريد، ولا يسأم إذا أعيد؛ لأنّه لسان الملك إذا نطق، وعينه إذا رمق، ويده إذا بطش، فلا تبعد عن دعائه، ولا تضجر من ندائه؛ لأنّ عوارض الملك من هواجس أفكاره، وتقلب خاطره، وقد يتجدّد مع الأوقات مالا يعرف أسبابه، ولا تتعين أوقاته، فليكن على رصد منها، حتّى لا تقف به أغراض الملك، فيفضي إلى نفور أو ضجر، وهو من كلّ واحد منهما على خطر؛ لأنّه قد يأخذ بالجريرة قبل ظهورها، ويعاقب على الصّغيرة مثل كبيرها، إذا حكم بالهوى، ووثب بالقدرة [19] .

أمّا وزراء التّنفيذ، فمنهم، أبو أيوب الموريانى، أبو أيوب، سليمان بن أبي سليمان بن مخلد، وقيل:داود الموريانى الخوزي، الأهوازي، كاتب الخليفة أبا العبّاس السّفّاح، وبعده الخليفة أبي جعفر المنصور[20]، و منهم، الرّبيع بن يونس، أبو الفضل، الرّبيع بن يونس بن محمّد بن عبد الله بن أبي فروة، واسمه "كيسان"، مولى الحارث الحفّار، مولى عثمان بن عفّان –رضيّ الله عنه–، كان حاجب الخليفة المنصور، ثمّ وزر له، بعد أبي أيوب الموريانى، أحد المقرّبين إلى الخليفة أبي جعفر، ومكين لديه؛ إذ أنّه مُقدّم على الموالي، توفّي عام 170هـ/787م [21]؛ الفضل بن يحي بن خالد بن برمك البرمكي، هو أبو العبّاس بن خالد، ولاّه الخليفة هارون الرّشيد الوزارة قبل أخيه جعفر، وجعل ولده محمّد في حجره، وقيل :أنّ جعفر لما كان عاملا بخراسان دخل بلخ، واتّجه إلى معبد النّوبهار الّذي توجد به نار المجوس، فهدّم جزءا منه، وبنى مكانه مسجدا[22]، ومن وزراء التّفويض في 170هـ/787م استوزر الرّشيد يحي بن خالد، وقال له: قد قلّدتك أمر الرعية، فاحكم فيها بما ترى من الصواب، واعزل من رأيت، واستعمل من رأيت"، ودفع له خاتمه[23].

وممّا يؤثر عن سيرة الخلفاء مراقبتهم للعمّال، إذ جاء في كتاب يحي بن خالد البرمكي إلى الفضل ابنه" حفظك الله يا بني، وأمتع بك، قد انتهى إلى أمير المؤمنين ما أنت عليه من التّشاغل بالصّيد، ومداومة اللّذّات عن النّظر في أمور الرّعيّة ما أنكره، فعاوِدْه ماهو أزين بك، فإنّه من عاد إلى ما يزينه، ويشينه لم يعرفه أهل دهره، إلاّ به والسّلام"[24] ، ووزارة التّنفيذ حكمها أضعف، وشروطها أقلّ؛ لأنّ النّظر فيها مقصور على رأي الإمّام، وتدبيره، وهذا الوزير وسط بينه وبين الرّعايا والولاّة يؤدي عنه ما أمر، وينّفذ عنه ما ذكر، ويمضي ما حكم، ويخبر بتقليد الولاّة، وتجهيز الجيوش، ويعرض عليه ما ورد من مهمّ، وتجدّد من حدث ملمّ؛ ليعمل فيه ما يؤمر به، فهو مُعَيَن في تنفيذ الأمور، وليس بوال عنها، ولا متقلّدا لها [25]، وهو ماذكره الجهشياري، من أنّ مسألة البحث عن الأسرار، تبدأ من التّعرّف على سيرة العمّال[26]، والكتّاب

"وليس شيئ أفسد لسائر العمّال والكتّاب، ولا أدْعى إلى خراب آماناتهم، وهلاك ما تحت أيديهم من جهالة المِلكِ، وقلّة معرفته بحالاتهم، وترْكه مكافأة المحسن بإحسانه والمسيئ بإساءته، فأكثر الفحْصَ عن عمّال الخراج، وسِيَرّهم، وآثارهم، واختار لذلك العيون الموثوق بهم"[27].

ذكره ابن عبد ربّه "السّلطان زمام الأمور، ونظام الحقوق، وقوام الحدود، والقطب، الّذي عليه مدار الدّنيا، وهو حمى الله في بلاده، وظلّه الممدود على عباده، به يمتنع حريمهم، وينتصر مظلومهم، وينقمع ظالمهم، ويأمّن خائفهم قال الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم-: "عَدْلُ سَاعَةَ فِي حُكُومَةٍ خَيْر مِنْ عِبَادَةِ سِتّينَ سَنَةً"[28]، و أشار إليه الجاحظ في العلاقة بين الحاكم والرّعيّة، ممّا يؤكّد توسّط مذهبه، فالدّولة كما يتصوّرها كتاب السّياسة الشّرعيّة بين الرّاعي والرّعيّة دولة تعاون وتعاضد، تستمدّ القوّة الّتي تملكها والمشروعيّة الّتي تطمح إليها، لا بالتماسها الطّاعة السلبيّة من جميع الأفراد الّذين تتكوّن منهم؛ بل بالتماسها المشاركة الفعليّة في الحياة الجماعيّة المشتركة، فالحكّام والمحكومين بما يربط بينهم من عقدة البيعة، لا يسعهم، إلاّ أن يُقْسموا يمين الولاء والطّاعة لكلمة الله، وأن يعْقدوا شركة تكون الشّريعة ميثاقها، ويكون تطبيقها الفعلي مقصدها الأسمى[29].

ولهذه الفروق الأربعة بين الوزارتين تفترق في أربعة شروط، وهي —أنّ الحريّة معتبرة في وزارة التّفويض، وغير معتبرة في وزارة التّنفيذ– أنّ الإسلام معتبر في التّفويض، ولا في التّنفيذ– أنّ العلم بالأحكام الشّرعيّة في وزارة التّفويض، وغير معتبر في التّنفيذ–لأنّ المعرفة بأمري الحرب، والخراج معتبرة في وزارة التّفويض، وغير معتبرة في التّنفيذ، فافترقا في شروط التّقليد من أربعة أوجه، كما افترقا في حقوق النّظر من أربعة أوجه، واستويا فيما عداها من حقوق، وشروط[30].

وتذكر كتب التّاريخ ما كان من حصافة بعض الوزراء، ودليلا على حسن اختيار الخلفاء لهم، فكان الوزير يعقوب بن داوود يعرف مخاطر الإفراط في شرب النّبيذ، لذلك كان يعظ الخليفة المهدي في تعاطيه شرب النّبيذ بين يديه، وكثرة الغناء، ويلومه على ذلك، قائلا:"ما على هذا استوزرتني، ولا على هذا صحبتك، أبعد الصلوات الخمس في المسجد الحرام، يُشرب عندك النّبيذ، ويُسمع السُّمّاع بين يديك؟"[31]، في حين تغير على أبي عبيد الله، وزير الخليفة المهدي، ضمّه الخليفة أبوجعفر المنصوو إيّاه، حين وجهّه إلى الرّيّ[32]، فكان يرسل للمنصور كتبا والموالي يُحرِضون عليه الخليفة المهدي، فتغيّر عليه الخليفة سنة إحدى وستين ومائة هجريّة[33].

أمّا الخليفة هارون الرّشيد، فكان يُقَدِم في المشورة البرامكة أيضا، وغضب عبد الملك بن صالح من كبراء بني هاشم، فقصد باب البرامكة[34]، فقال له جعفر:"أنت تقصدني، فهل من حاجة تبلغها مقدرتي، وتحيط بها نعمتي، فأقضيها لك؟"[35]، حتّى أنّ نكبة الخليفة هارون بالبرامكة أرجعها ابن خلدون إلى تزاحم النّاس على أبواب قصورهم، حتّى تضايق الخليفة من ذلك، فأخذ الخليفة هارون الرّشيد من البرامكة ضياعهم وأموالهم ومتاعهم، فوجد لهم ممّا حباهم به اثني عشر ألف ألف، ووجد من سائر أموالهم ثلاثين ألف ألف وستّمائة ألف وستّة وسبعين ألفا، وأمّا غير الأموال من الضّياع، والغلاّت، والأواني، فشيئ لا يوصف أقصاه، ولا يُعرف أيسره[36].

ووزر الفضل بن الرّبيع بعد البرامكة لهارون الرّشيد، وكان من أكبر السّاعين في دمارهم والمساعدين على خراب ديارهم، وكان قائما ببيعة الأمين وتدبيره، وهو الذي أخذ البيعة للأمين لما مات الخليفة هارون الرّشيد بطوس، ولهذا نقم الخليفة المأمون عليه ذلك، ثمّ صلح أمره معه فيما بعد[37]، واشتهر من الوزراء في عهد الخليفة المأمون، الفضل بن سهل "ذو الرّيّاستين"، وكان يبغض السّعاة، ويغصبهم، وإذا أتاه ساع قال له: "إن صدقتنا أبغضتنا، وإن كذبتنا عاقبناك، وإن استقلتنا، أقلناك"[38].

كما استخفّ بعض المؤرّخين بحكم الخليفة المعتصم، فابن طباطبا ذكر" أنّ أوّل وزراء المعتصم كاتبه قبل الخلافة الفضل بن مروان كان عاميًّا، لا علم عنده ولا معرفة، وكان رديئ السّيرة جهولا بالأمور[39]، وكان محمّد بن عبد الملك، الوزير الأديب أبوجعفر، محمّد بن عبد الملك بن أبّان بن الزّيّات، والده زيّاتا سوقيا، فساد هذا بالأدب وفنونه، معاديا لابن أبي دؤادة الّذي أغوى المتوكّل، حتّى عذّبه، قال بخَلق القرآن، مات عام 233هـ/848م، وكان الخليفة المتوكل قد قبض عليه من قبل، وحبسه رغم أنّ الخليفة الواثق قبله كان قد استوزره، وفوّض إليه الأمور كلّها[40]، أمّا الخليفة المنتصر، فقد ندم على تقليد أحمد الخصيب الوزارة، وكان كاتبه قبل أن يستخلف، وكان مقصّرا في صناعته، مطعونا في عقله، وكانت فيه مروءة[41]، وكان من أشهر الوزراء ابن العلقمي، وهو محمّد بن أحمد بن علي مؤيّد الدّين، أبوطالب وزير، ليته ماوزر، وزير

الخليفة المستعصم العبّاسي، ولد 539هـ/1145م، اشتغل في حياته بالأدب، وارتقى إلى الوزارة في 642هـ/1245م، ووثق به الخليفة، فألقى إليه زمام أموره، وكان مغاليا في التّشيع زمن وصول هولاكو لبغداد[42].

أمّا بالنسبة للكتّاب، فأكتفي بما ذكره ابن قيّم الجوزيّة عن أنّه كان للخليفة المهدي على بعض ضيّاعه كاتب نصراني بالبصرة، فظلم النّاس في معاملته، فتظلّم المتظلّمون إلى القاضي، فأحضر وكلاء النّصراني، واستدعى بالبيّنة، فشهدت على النّصراني يظلم النّاس، وتعدّى مناهج الحقّ، فأخذ كتاب المهدي إلى القاضي بالتّثبّت في أمره، فجاء البصرة ومعه الكتاب وجماعة من النّصارى، وجاؤوا إلى المسجد، فدخله، وتجاوز الموضع الّذي كان يجب الوقوف عنده، فمنعه الخدم، فلم يعبأ بهم، وسبّهم، ودنا، حتّى جلس عن يمين القاضي، ودفع له الكتاب، فوضعه بين يديه، ولم يقرأه، وقال:النّسب نصرانيّا؟، فقال:بلى، أصلح الله القاضي، فرفع رأسه، وقال:جرّوا برجله، فسُحب إلى باب المسجد، وأدّبه تأديبا بالغا، وحلف، ألاّ يبرح واقفا إلى أن يوّفى المسلمين حقوقهم، أمّا هارون الرّشيد، فإنّه لما قلّد الفضل بن يحي أعمال خراسان، وجعفر أخاه ديوان الخراج، أمرهما بالنّظر في مصالح المسلمين، فعُمّرت المساجد، والجوامع، والصّهاريج، والسّقايات، وجعل في المكاتب مكاتب لليتامى، وصرف الذّمّة عن أعمالهم، واستعمل المسلمين عوضا عنهم، وغيّر زيّهم ولباسهم، وخرّب الكنائس، وأفتاه بذلك علماء الإسلام[43].

وفي رواية ذكرها الجُويني، أنّ الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ اشتدّ نكرا على أبي موسى الأشعري، لما اتّخذ كاتبا نصرانيا[44]، وكان ابن المقفّع عبد الله أحد البلغاء، والفصحاء، رأس الكُتّاب، أصولي الإنشاء، من نظراء عبد الحميد الكاتب، من مجوس فارس أسلم على يد الأمير عيسى عمّ السّفاح، وكتب له، واختصّ به، اتُّهم بالزّندقة، وهو الّذي عرّب كتاب كليلة ودمنة، أمر المنصور بقتله، قيل:أنّ المهدي ذكر، بأنّ أيّ كتاب زندقة، إلاّ وكان أصله ابن المقفّع، عاش ستّا وثلاثين سنة، مات عام145هـ/762م[45].

كما كان للوزراء دورا في إثارة النّزاعات في القصر؛ إذ قيل: أنّ الفضل بن الرّبيع علم أنّ الخلافة، إذا أفضت إلى المأمون لم يُبق عليه، فأغوى ا الأمين به، وحثّه على خلعه، وأن يولّي العهد لابنه موسى[46]، وكان المتوكل بايع بولاية العهد لابنه المنتصر، ثمّ المعتزّ، ثمّ المؤيد، ثمّ إنّه أراد تقديم المعتزّ لمحبّته لأمّه، فسأل المنتصر أن ينزل عن العهد، فأبى، فكان يحضره مجلس العامّة، ويحطّ منزلته، ويتهدّده، ويشتمه، ويتوعّده، واتّفق أنّ التّرك انحرفوا عن المتوكل لأمور، فاتّفق الأتراك مع المنتصر على قتل أبيه، فدخل عليه خمسة، وهو في جوف اللّيل في مجلس لهوه، فقتلوه هو ووزيره الفتح بن خاقان وذلك في خامس شوال 247هـ/861م[47].

ولما بويع المكتفي بالله له عند موت أبيه كان غائبا بالرّقّة، فنهض بأعباء البيعة الوزير أبو الحسن، القاسم بن عبيد الله، وكتب له، فوافى بغداد في سابع جمادى الأولى ...ونزل المكتفي بدار الخلافة، وخلع على الوزير سبع خلع، وهدّم المطامير التي اتّخذها أبوه، وصيّرها مساجدا، وأمر بردّ البساتين والحوانيت التي أخذها أبوه من النّاس؛ ليعملها قصرا إلى أهلها[48]، أمّا المقتدر بالله جعفر، أبو الفضل بن المعتضد، لما اشتدّت علّة أخيه المكتفي سأل عنه، فصحّ عنده أنّه احتلم، فعهد إليه، ولم يل الخلافة قبله أصغر منه، وليّها وله13سنة، فاستصباه الوزير العباس بن الحسن، فعمل على خلعه، ووافقه جماعة على أن يولّوا عبد الله بن المعتزّ، فأجاب ابن المعتزّ أن لا يكون فيها دمّ، فبلغ المقتدر ذلك، فأسلم حال العباس، ودفع إليه أموالا أرضته، فرجع عن ذلك، وأمّا الباقون، فإنّهم ركبوا عليه في عشرين ربيع الأوّل 268هـ/882م، والمقتدر يلعب الأكرة، فهرب، ودخل، وأغلقت الأبواب، وقتل الوزير وجماعة، وأرسل إلى ابن المعتزّ، فجاء، وحضر القوّاد والقضاة والأعيان، وبايعوه بالخلافة، ولقبّوه "الغالب بالله"، فاستوزر محمّد بن داود بن الجراح[49].

وفي301هـ/914م، وليّ الوزير علي بن عيسى، فسار بعفّة، وعدل، وقوى، وأبطل الخمور، وأبطل من المكوس ما ارتفاعه في العام خمسمائة الف دينار[50]، أمّا في سنة317هـ/929م خرج مؤنس الخادم الملّقب ب"المظفر" على المقتدر؛ لكونه بلغه أنّه يريد أن يولي إمرة الأمراء والجنود، وجاؤوا إلى دار الخلافة، فهربت خواص المقتدر، وأخرج المقتدر بعد العشاء في 14محرّم من داره وأمّه وخالته وحرمه، ونهب لأمّه 600ألف دينار، وأشهد عليه بالخلع، وأحضر محمّد بن المعتضد، وبايعه مؤنس والأمراء، ولقبّوه "القاهر بالله"، وفوضت الوزارة إلى أبي علي بن مقلة، وذلك يوم السّبت، وجلس القاهر بالله يوم الأحد، وكتب عنه الوزير إلى البلاد، وعمل الموكب الإثنين، فجاء العسكر يطلبون رزق البيعة ورزق السّنة، ولم يكن مؤنس حاضرا، فارتفعت الأصوات، فقتلوا الحاجب، ومالوا إلى دار مؤنس يطلبون المقتدر ليردّوه إلى الخلافة،

فحملوه على أعناقهم من داره إلى قصر الخلافة، وأخذ القاهر، فجيئ به، وهو يبكي، ويقول: لا ذنب لك، الله في نفسي، فاستدناه، وقبّله، وقال له: "يا أخي، أنت والله لا ذنب لك، والله، لا جرى عليك من سوء أبدا، فطب نفسا"[51] .

وفي سنة324هـ/936م تغلّب محمّد بن رائق أمير واسط ونواحيها، وحكم على البلاد، وبطل أمر الوزارة والدّواوين، وتولّى هو الجميع، وكتّابه، وصارت الأموال تُحمل إليه، وبطلت بيوت المال، وبقي الرّاضي معه صورة، وليس له من الخلافة إلاّ الاسم، وفي سنة326هـ/938م خرج بجكم على ابن رائق، فظهر عليه، واختفى ابن رائق، فدخل بجكم بغداد، فأكرمه الرّاضي، ورفع منزلته، ولقبّه أمير الأمراء، وقلّده إمارة بغداد وخراسان[52]، أمّا في سنة في سنة329هـ/854م قُتل بجكم التّركي، فوليّ إمرة الأمراء مكانه "كورتكين الدّيلمي، وأخذ المتّقي حواصل بجكم التي كانت ببغداد، وهي زيادة على ألف ألف دينار، وفي هذه السّنة هرب ابن رائق، فقاتل كورتكين ببغداد، فهزم كورتكين، واختفى، ووليّ ابن رائق إمرة الأمراء مكانه[53] .

وفي سنة362هـ/973م صادر السّلطان بختيار المطيع، فقال المطيع: "أنا ليس لي غير الخطبة، فإن أحببتم اعتزلت"، فشدّد عليه، حتّى باع قماشه، وحمل أربعمائة ألف درهم، وشاع في الألسنة أنّ الخليفة صودر، وفيها قتل رجل من أعوان الموالي ببغداد، فبعث الوزير أبو الفضل الشيرازي منْ طرح النّار من النّحّاسين إلى السّمّاكين، فاحترق حريق عظيم لم يُر مثله، واحترقت أموال، وأناس كثيرون في الدّور والحمامات، وهلك الوزير من عامه[54] .

وفي سنة382هـ/993م ابتاع الوزير أبونصر سابور أردشير دارا بالكرخ، وعمّرها، وسمّاها دار العلم، ووقّفها على العلماء، ووقّف بها كتبا كثيرة، وفي سنة609هـ/1213م قدم بغداد أبونصر بن الأستاذ، أبو القاسم القشيري حاجّا، فوعظ بالنّظاميّة، وجرى له فتنة كبرى مع الحنابلة؛ لأنّه تكلّم على مذهب الأشعري، وحطّ عليهم، وكثر أتباعه، والمتعصبون له، فهاجت فتنا، وقتلت جماعة...وعزل فخر الدّولة بن جهير من وزارة المقتدي؛ لكونه شذّ عن الحنابلة [55]، وفي سنة632هـ/1235م أمر المستنصر بضرب الدّراهم الفضّيّة؛ ليتعامل بها بدلا عن قراضة الذّهب، فجلس الوزير، وأحضر الولاّة، والتّجّار والصّيارفة، وفُرشت الأنطاع، وأفرغ عليها الدّراهم، وقال الوزير: "قد رسم مولانا أمير المؤمنين لمعاملتكم بهذه الدّراهم عوضا عن قراضة الذّهب رفقا بكم، وانقاذا لكم من التّعامل بالحرام من الصّرف الرّبوي، فأعلنوا بالدّعاء، ثمّ أدبرت بالعراق، وسعرت كلّ عشرة بدينار[56] .

وركن المستعصم إلى وزيره مؤيد الدّين العلقمي الرّافضي، فأهلك الحرث والنّسل، ولعب بالخليفة كيف أراد وباطن التّتر، وناصحهم، وأطمعهم في المجيء إلى العراق، وأخذ بغداد، وقطع الدّولة العباسيّة؛ ليقيم خليفة من آل علي، وصار إذا جاء خبر منهم كتمه عن الخليفة، ويطالع بأخبار الخليفة التّتر إلى أن حصل ما حصل، وفي سنة647هـ/1250م والوزير العلقمي حريص على إزالة الدّولة العباسيّة، ونقلها إلى العلوية والرّسل في السّرّ بينه وبين التّتر والمستعصم تائه في لذّاته، لا يطّلع على الأمور، ولا له غرض في المصلحة، وكان أبوه المستعصم قد استكثر من الجند جدّا، وكان مع ذلك يصانع التّتر، و يهادنهم [57] .

واهتمّ خلفاء الدّولة العبّاسيّة بوظيفة الحاجب، وشروط اختياره، حتّى يكون نقطة اتصال بين الخليفة ورعيّته، رغم تعدّد فئاتها وطبقاتها، بل وذكر الجاحظ سندها الدّيني[58]، فهذا الخليفة أبوجعفر يحدّد أهمّ صفات الحاجب، بأن لايكون جهولا، ولا غبيّا، ولا ذهولا، ولا متشاغلا، ولا خاملا، ولا محتقرا، ولا جهما، ولا عبوسا[59]؛ ممّا يؤكّد مدى حساسيّة هذا المنصب في بقاء الملك، ومدى فاعليّته في إقرار العدل، خاصّة وأنّ للأعاجم رأي في ذلك، دليلا على تجربتهم[60].

وأُثر أقوال عن بعض خلفاء الدّولة العبّاسيّة الأوائل فيما أصدروه من أوامر لحجبتهم، ممّا يخصّ حُسْن معاملاتهم مع الرّعيّة، إذ قال موسى الهادي لحاجبه:" لا تحجب النّاس عنّي، فإنّ ذلك يزيل التّزكيّة، ولا تلْق إليّ أمرا إذا كشفته وجدته باطلا، فإنّ ذلك يونغ المملكة[61]، وبنفس السّيرة كان الخليفة هارون الرّشيد الّذي عهد إلى حاجبه أن لا يحبس عنه كتاب أحد قرُب، أو بعُد[62]، وقد أثبت الخليفة مدى اهتمامه بما يرفع إليه الحجّاب من كتب الرّعيّة، والتّعرّف على مطالبها واحتياجاتها، الّتي لم تكن تخرج وقتها عن العمل والمسكن والرّاحة[63].

وعليه فما سبق ذكره يناقض ماذكره ابن خلدون[64] في أنّ مهمّة الحاجب عند خلفاء الدّولة العبّاسيّة الأوائل، لم ترتبط فقط بمن لايأمنوهم على مُلكهم؛ بل شملت الكلّ؛ ربّما لأنّ القصد منها وقتها كان تنظيم الدّخول والخروج على الخليفة، لضمان وصول كلّ فئات المجتمع إليه، ومنه تحقيق العدل، وهو ما أوصى به سهل بن هارون الفضل بن سهل[65]، وربّما شدّة الحجّاب لم تكن مقتصرة على الخلفاء؛ بل شملت وزرائهم كالبرامكة، فكان جعفر البرمكي شديد الحجّاب حجب غلامه عنه الكثيرين، فكانت تصله رُقَعًا من بعضهم إليه، يشتكون من الّذين حالوا بينهم وبين الوصول إليه[66]، ومن بين الوزراء أسماء كثير أهمّهم[67] .

وعليه فللوزارة، والحجابة، والكتابة أدوارًا إيجابيّة في عهد قوّة الخلافة العباسيّة، وسلبية مصلحيّة في عهد فقدان الخلفاء لهيبتهم.

---

(1) شروط وزير التّنفيذ هي أن يؤدّي إلى الخليفة الأمانة، حتّى لا يخون فيما قد أؤتمن عليه، ولا يغشّ فيما قد يستصيح فيه، أو صدق اللّهجة، حتّى لا يوثق بخبره فيما يؤدّيه، ويعمل على قوله فيما ينهيه–أن يؤدّي عنه، فيراعي فيه سبعة أوصاف –قلّة الطّمع، حتّى لا يرتشي فيما يلي، ولا ينخدع، فيتساهل– أن يسلم فيما بينه، وبين النّاس من عداوة وشحناء، فإنّ العداوة تصدّ عن التّناصف، وتمنع من التّعاطف –أن يكون ذكورا لما يؤدّيه إلى الخليفة، وعنه لأنّه شاهد له، وعليه –الذّكاء، والفطنة، حتّى لا تدلس عليه الأمور، فتشتبه، ولا تموّه عليه، فتلتبس، فلا يصحّ من اشتباهها عزم، ولا يصلح من التباسها حزم –أن لا يكون من أهل الأهواء، فيخرجه الهوى من الحقّ إلى الباطل، ويتدلّس عليه المحقّ من المبطل، فإنّ الهوى خادع اللّباب، وصارف لها عن الصّواب، ولا يجوز أن تقوم بذلك امرأة، وإن كان خبرها مقبولا لما تضمنه معنى الولايات المصروفة عن النّساء، قال الرّسول" مَا أَفْلَحَ قَوْمٌ أَسْنَدُوا أَمْرَهُمْ إلى امْرَأَة"، ولأنّ فيه من طلب الرّأي، وثبات العزم ما تضعف عنه النّساء، ومن الظّهور في مباشرة الأمور ما هو عليهنّ محظورا، ويجوز أن يكون هذا الوزير من أهل الذمّة، وإن لم يجز أن يكون وزير التّفويض منهم، ويكون الفرق بين هاتين الوزارتين بحسب الفرق بينهما في النّظر ، وذلك من أربعة أوجه، وهي – أنّه يجوز لوزير التّفويض مباشرة الحكم، والنّظر في المظالم، وليس ذلك لوزير التّنفيذ– أنّه يجوز لوزير التّفويض أن يستبدّ بتقليد الولاّة، وليس ذلك لوزير التّنفيذ– أنّه يجوز لوزير التّفويض أن ينفرد بتسيّير الجيوش، وتدبير الحروب، ولا يجوز ذلك لوزير التّنفيذ– يجوز لوزير التّفويض أن يتصرّف في أموال بيت المال بقبض ما يستحقّ له، ويدفع ما يجب فيه، وليس ذلك لوزير التّنفيذ، وليس فيما عدا هذه الأربعة ما يمنع أهل الذّمّة منها، إلّا أن يستطيلوا، فيكونون ممنوعين من الاستطالة، ولهذه الفروق الأربعة بين النّظيرين افترق في أربعة شروط هي بين الوزارتين، وهي –أنّ الحريّة معتبرة في وزارة التّفويض، وغير معتبرة في وزارة التّنفيذ– أنّ الإسلام معتبر في التّفويض، ولا في التّنفيذ– أنّ العلم بالأحكام الشّرعيّة في وزارة التّفويض، وغير معتبر في التّنفيذ–لأنّ المعرفة بأمري الحرب والخراج معتبرة في وزارة التّفويض، وغير معتبرة في التّنفيذ، فافترقا في شروط التّقليد من أربعة أوجه، كما افترقا في حقوق النّظر من أربعة أوجه، واستويا فيما عداها من حقوق وشروط . أنظر، الماوردي(أبو الحسين، علي بن محمّد بن حبيب البصري البغدادي ت450هـ): كتاب الأحكام السّلطانيّة والولايات الدّينيّة، تحقيق: سمير مصطفى رباب، المكتبة العصريّة، صيدا، بيروت، لبنان، طبعة أخيرة،2004م، ص33 ومابعدها؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج11، مشاهير الوزراء، ص18.

(2) ابن خلّكان: وفيات، ج2، ص196.

(3) الماوردي(أبو الحسن ، علي بن محمّد بن حبيب ت45هـ): أدب الوزير للماوردي المعروف بقوانين الوزارة وسياسة الملك، صحّحه: حسن الهادي حسين، النّاشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر،ط1، 1348هـ/992م_ط2، 1414هـ/1994م، ص43 .

(4) الماوردي: الأحكام السّلطانيّة، ص ص35،36.

(5) ابن خلّكان: وفيات، ج1، ص328 وما بعدها.

(6) الماوردي: أدب الوزير، ص10 .

(7) الماوردي: نفس المصدر، ص ص 11 ، 12 .

(8) الماوردي: نفس المصدر ، ص13 .

(9) الماوردي: نفس المصدر، ص18 ، 19 ، 20 .

(10) الماوردي: نفس المصدر، ص ص 22 ، 23 .

(11) الماوردي: نفس المصدر ، ص24 .

(12) الماوردي: نفس المصدر، ص24 .

(13) الماوردي: نفس المصدر، ص25 .

(14) الماوردي: نفس المصدر، ص27 – 29 .

(15) الماوردي: نفس المصدر، ص30 –33 .

(16) الماوردي: نفس المصدر، ص ص37 ، 38 .

(17) الماوردي: نفس المصدر، ص 38، 39 ، 40 .

(18) الماوردي: نفس المصدر، ص41 ، 42 .

(19) الماوردي: نفس المصدر، ص42 .

(20) وليّ الوزارة بعد خالد البرمكي، وكان له كاتب خاص به اسمه محمّد بن الوليد، وكان كاتبه حريصا على أخذ الرشا. أنظر، ابن العمري، فضل الله:مصدر سابق، ص24 .

(21) ابن خلّكان: مصدر سابق، م2، ص41؛ ابن عبد ربّه: العقد الفريد، ج4، ص475 .

(22) ابن خلّكان: مصدر سابق، ج4، ص27ومابعدها؛ كان متكبرا، ووزيرا لهارون ولاّه خراسان، فبسط العدل فيها، وبنى الحياض، والمساجد، والرّباطات، وزاد الجند عشر مئات، والقواد خمسمئات ...وقيل: لما سار إلى خراسان فرّق بينهم أموالا، ولأخذ البيعة بالعهد لمحمّد الأمين بن الرشيد، وسمّاه الأمين، فبايع النّاس له. أنر، ابن فضل الله: مصدر سابق، ص47 .

(23) ابن الأثير: مصدر سابق، ج5، ص278 ؛ وللثعالبي كلاما في التّقليد: وزارة التّفويض: يستوزر الخليفة من بفوض إليه تدبير الأمور برأيه، وبمضيها على اجتهاده، يستفيد الوزير بهذه الولاية ببسط يده، ونفاذ حكمه، وصلاحية في التّصرف بأحوال الدّولة بما يقتضيه نظره، واجتهاده، وتنعقد وزارة التّفويض بقول الخليفة الإمّام، أو الملك لمن يندبه لهذا المنصب: "قلّدتك وزارتي، والنّيابة عنّي في جميع ما إليّ ولاية الرّعية"، فيجيبه بقوله، وإن سكت، وباشر، فهو كالقبول، وهل يكفي في ذلك الخطّ، والرّسالة، والتّوقيع مع العبيد والخدم، ففيه خلاف بين العلماء، والأظهر عند أصحاب الشافعي أنّه يكفي مجرد الخطّ ، ولا ينعقد به حكما شرعيا، فيكون الردّ: قبلت، وتقلّدتُ، وكانت الخلفاء من بني العباس يباشرون الوزراء بلفظ التّقليد، والنيابة، وكذلك كانوا يباشرون الملوك، والأمراء أيضا، فكانوا إذا عزموا على تقليد الأمراء أحضروا الأعيان، والقضاة، وأركان الدّولة، ثمّ يقول الخليفة لمن يولّيه الملك: "قلّدتك النّيابة عنّي، وفوضت إليك ما وراء بابي"، فيخدم، ويقبل، ويقول: قبلتُ، وربّما قلّده بسيف، وعقد له اللّواء، وإن قال: قد استوزرتك، أو فوضت إليك الوزارة أجزاه، ولو قال: "قلّدتك وزارتي"، لم يكن ذلك تفويضا؛ لأنّ المقيدة ببعض القيود تسمّى: وزارة التّقييد، وللإمّام أن يستدرك على الوزير بعض ما فوّض إليه، فيكون حُكمُه حُكْم الذي دخله التّخصيص. أنظر، الثّعالبي(أبو منصور عبد الملك بن محمّد بن اسماعيل ت429هـ): تحفة الوزّراء، تحقيق حبيب علي الرّاوي، الدّكتورة إبتسام مرهون الصفار، دار الآفاق العربيّة، مدينة نصر، الطّبعة الأولى، 1420هـ/2000م، ص ص75، 76 .

(24) المسعودي:مروج الذّهب، ج3، ص266 .

(25) في سنة155هـ/772م عزل الخليفة المنصور محمّد بن سليمان بن عليّ عن إمرة الكوفة، فقيل:لأمور بلغته عنه في تعاطي منكرات، وأمور، لا تليق بالعمّال. أنظر، ابن كثير: البدّاية والنّهايّة ، ج5، ص492 .

(26) الماوردي: الأحكام السّلطانيّة، ص36 .

(27) الجهشياري(أبو عبد الله، محمّد بن عبدوس ت331هـ/942م): كتاب الوزراء والكُتّاب، عُني بتصحيحه وتحقيقه ومراجعة أصله وصدّره بمقدمة وضع فهارسه، حضرة الأستاذ عبد الله إسماعيل الصّاوي، المكتبة العربيّة، بغداد لصاحبها نعمان الأعظمي، طُبع بمطبعة: عبد الحميد أحمد حنفي بمصر، ص5 .

(28) ابن عبد ربّه: مصدر سابق ، ج1، ص7 .

(29) ابن تيميّة(أبو العبّاس، أحمد): السيّاسة الشّرعيّة في إصلاح الرّاعيّ والرّعيّة، تقديم: عبد السّميع جبّاري، موفم1990م، مقدمة الكتاب، ص7 .

(30) الماوردي: مصدر سابق، ص38 .

(31) ابن كثير: مصدر سابق، ج6، ص526 .

(32) الرّيّ، مدينة مشهورة، سمّيت كذلك، نسبة إلى رجل من بني شهلان بن أصبهان بن فلوح، اهتمّ المهدي ببنائها في خلافة أبيه المنصور، وجعل حولها خندقا، وبنى فيها جامعا، وأتمّ عملها في158هـ/775م، وسمّاها المحمدية. أنظر، ياقوت الحموي(الإمّام شهاب الدّين، أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرّومي البغدادي ت626هـ): معجم البلدان، تصحيح وترتيب وضعه وكتابة المستدرك عليه: محمّد أمين الخانجي الكتبي بقراءته على الأستاذ الأديب النّحوي الرّاوية أحمد بن الأمين الشّنقيطي، مطبعة السّعادة، مصر، الطّبعة الأولى، 1324هـ/1906م، م3، ص ص117 ،118 .

(33) الطّبري: مصدر سابق، ص1668.

(34) البرامكة كانوا أمّة كرم، وملّة فضل وكعبة جود، ومحلّ قصد، وكانوا يتنافسون في الصنائع، ويتهافتون على المعروف، وكان خالد بن برمك، استوزره المهدي لإبنه الرّشيد، فكان يقوم بأمره، فلمّا صارت الخلافة إلى الهادي، أراد خلع أخيه الرّشيد، والعهد إلى ابنه جعفر، فدعا بيحي، فلمّا وصل إليه، أكرمه، ورفق به، وناظره في خلع هارون، ولما صار الأمر إلى الرّشيد، كانت الدّواوين كلّها إلى يحي بن خالد مع الوزارة خلا ديوان الخاتم، فإنّه كان إلى أبي العبّاس الطوسي، ثمّ ولاّه جعفر بن محمّد بن الأشعث، ثمّ دفع الخاتم إلى يحي بن خالد، وقلّده الفضل ابنه. أنظر، ابن فضل الله: مصدر سابق، ص37 .

(35) المدّور: مرجع سابق، ص ص110 ،111 .

(36) ابن عماد الحنبلي: شذرات الذّهب، م1، ج1، ص315 .

(37) ابن فضل الله العمري: مسالك، ص80 .

(38) ابن فضل الله: نفس المصدر، ص ص81 ،82 .

(39) ابن الطقطقي: الفخري، ص171 .

(40) ابن الأثير، الكامل، ج6، ص96 .

(41) الذّهبي: سير النّبلاء، ج11، ص ص172 ،173 .

(42) ابن فضل الله العمري: مصدر سابق، ص154-156 .

(43) ابن قيّم الجوزية(الشّيخ شمس الدّين، أبي عبد الله، محمّد بن أبي بكر691هـ/751هـ): أحكام أهل الذّمّة، حققه وعلّق على حواشيه الدّكتور: صبحي الصّالح، دار العلم للملايّين، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّانية1401هـ/1981م، ص ص216، 217 .

(44) الإمّام الجويني(أبو المعالي ت478هـ): كتاب غِياثُ الأمّم في التِيّاثِ الظُلمِ، تحقيق ودراسة: الدّكتور، مصطفى حلمي، والدّكتور. فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الدّعوة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الإسكندرية، مصر، ص115؛ يذكر الجاحظ تقريب الخليفة هارون لبعض منهم ، إذ وُصف يحي بن خالد الفضل بن سهل، وهو غلام على المجوسيّة للرّشيد، وذكر أدبه، وحسن معرفته، فعمل على ضمّه إلى المأمون، فقال ليحي يوما: أدخل إلي هذا الغلام المجوسي، حتّى أنظر إليه، فأوصله، فلمّا مثل بين يديه، ووقف، تحيّر، فأراد الكلام، فارتج عليه، فأدركته كبوة، فنظر الرّشيد إلى يحي نظرة منكرة، لما كان تقدّم من تقريظه إيّاه، فانبعث الفضل بن سهل، فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ من أبين الدّلائل على فراهة الملوك شدّة إفراط هيبته لسيّده، فقال له الرّشيد: أحسنت والله، لئن كان سكوتك، لتقول هذا، إنّه لحسن، ولئن كان شيئا أدركك عند انقطاعك، إنّه لأحسن، ثمّ جعل لا يسأله عن شيئ، إلا رآه فيه مقدّما، فضمّه إلى المأمون. أنظر، الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص28؛ وقيل: أنّ البرامكة كانوا قديما على دين المجوس، ثم أسلم منهم من أسلم، وحسن إسلامهم. أنظر، ابن الطقطقي: مصدر سابق، ص143 .

(45) الذّهبي: سير النّبلاء، ج6، ص ص208 ،209 .

(46) السّيوطي: تاريخ الخلفاء، ص230 .

(47) السّيوطي: نفس المصدر، ص263 .

(48) السّيوطي: نفس المصدر، ص280 .

(49) السّيوطي: نفس المصدر، ص282 .

(50) السّيوطي: نفس المصدر، ص283 .

(51) السّيوطي: نفس الصدر، ص ص 284 ، 285 .

(52) السّيوطي: نفس المصدر، ص290 .

(53) السّيوطي: نفس المصدر، ص292 .

(54) السّيوطي: نفس المصدر، ص ص296 ، 297 .

(55) السّيوطي: نفس المصدر، ص302-309 .

(56) السّيوطي: نفس المصدر، ص333 .

(57) السّيوطي: نفس المصدر، ص ص334 ، 335 .

(58) قال الرّسول صلّى الله عليه وسلّم: "ثلاث من كنّ فيه من الولاّة، اضطلع بأمانته، وأمره، إذا عدل في حكمه، ولم يحتجّب دون غيره "، وأقام كتاب الله في القريب، والبعيد. أنظر، الجاحظ: رسائل الجاحظ(الرّسائل السّياسيّة)، قدّم لها وبوّبها: الدّكتور. علي بوملحم، دار ومكتبة الهلال للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، الطّبعة الأخيرة2004م، ص566 .

(59) الجاحظ: نفس المصدر، ص570؛ الرّبيع بن يونس من كثرة مؤازرته للخلفاء، ورغم كونه حاجبا، إلاّ أنّ هناك من يذكره ضمن قائمة الوزراء. أنظر، ابن فضل الله: مصدر سابق، ص76.

(60) تقول الأعاجم:"وما شيئ أضيع للمملكة، ولا أضيع للرّعيّة من صعوبة الحجّاب، ولا شيئ أهيب للرّعيّة من سهولة الحجّاب؛ لأنّ الرّعيّة إذا وثقت من الوالي سهولة الحجّاب، أحجمت عن الظّلم، وإذا وثقت منه بصعوبة الحجّاب، هجمت على الظّلم، وركب القويّ منهم الضّعيف، فخير خِلالِ السّلطان سهولة الحجّاب. أنظر، البيهقي: مصدر سابق، ج1، ص151 .

(61) الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص567 .

(62) ابن قتيبة: الإمامة والسّياسة، تحقيق: الأستاذ علي شيري، دار الأضواء للطباعة والنّشر، بيروت، لبنان، ط1410،1هـ-1999م، ج1، ص219 .

(63) أوصل حاجب إلى الخليفة هارون الرّشيد من أعرابي كتابا فيه أربعة أسطر، الأوّل:الضّرورة، والأمل قاداني إليك، الثّاني:العدم يمنع من الصّبر، الثّالث:الإنقلاب عنك بلا فائدة شماتة الأعداء، الرّابع:فإمّا نعم مثمرة، وإمّا لامريحة، فلمّا وصل الكتاب إليه، قال:هذا رجل قد ساقته الحاجة، ووصلت إليه الفاقة، فليدخل، فدخل، فقال له:إرفع حاجتك، وحويجاتك يا أعرابي، فقال الأعرابي:إنّ مع الحاجة حويجات، فقال له:ارفع حاجتك، وحويجاتك، تُقض كلّها، قال الأعرابي:تأمر لي ياأمير المؤمنين بكلب أصيد به، فضحك الرّشيد، ثمّ قال له:قد أمرنا لك بكلب تصيد به، فقال:تأمر لي يا أمير المؤمنين بدابة أركبها، فقال له:قد أمرنا لك بدابّة، تركبها، فقال:تأمر لي يا أمير المؤمنين بجارية تطبخ لنا الصّيد، وتطعمنا منه، فقال له:قد أمرنا لك بجاريتين؛ جارية تؤنسك، وجارية تخدمك، فقال الأعرابي:لا بدّ لهؤلاء من دار يسكنونها، فقال له:قد أمرنا لك بدار، فقال الأعرابي : يا أمير المؤمنين، يصيرون فيها عالّة على النّاس، وعليّ كلالة، لا بدّ لهم من صنعة تقيهم، فقال له:قد أقطعنّاك مئة جُريب عامرة، ومئة جريب غامرة. أنظر، ابن قتيبة: نفس المصدر، ص 220.

(64) "إذا كانت الدّولة في أول أمرها بدوية، كان صاحبها على حال الغضاضة والبداوة والقرب من النّاس وسهولة الإذن، فإذا رسّخ عزّه، وصار إلى الانفراد بنفسه عن النّاس للحديث مع أوليائه في خواص شؤونه، لما يكثر حينئذ بحاشيته، فيطلب الانفراد من العامّة ما استطاع، ويتّخذ الإذن ببابه على من لا يأمنه من أوليائه، وأهل دولته، ويتّخذ حاجبا له عن النّاس يقيمه ببابه لهذه الوظيفة". أنظر، ابن خلدون: المقدّمة، دار القلم، بيروت، لبنان، الطّبعة السّابعة،1409هـ/1989م، ص291 .

(65) إنّ الحاجب أحد وجهي الملك، يعتبر عليه برأفته، ويلحقه ما كان في غلظته، وفظاظته، فاتّخذ حاجبك سهل الطّبيعة، معروفا بالرّأفة، مألوفا منه البرّ، والرّحمة، وليكن جميل الهيئة حسن البسطة، ذا قصد في نيته، وصالح أفعاله/ ومُرّه، فليضع النّاس على مراتبهم، وليأذن لهم في تفاضل منازلهم، وليعط كلاّ بقسطه من وجهه، ويستعطف قلوب الجميع إليه، حتّى لا يغشى الباب أحد، وهو يخاف، أن يقّصر به عن مرتبته، ولا أن يمنع أحدا مرتبته، وليضع كلاًّ عندك على منزلته، وتعهدّه، فإن قصّر مقصّر قام بحُسْن خلافته، وتزيّين أمره. أنظر، الجاحظ: الرّسائل السّياسيّة، ص571 .

(66) الجاحظ: نفس المصدر، ص 514؛ وقيل:وقف عبد الله بن العبّاس بن الحسين العلوي على باب المأمون يوما، فنظر إليه الحاجب، ثمّ أطرق، فقال عبد الله لقوم معه، إنّه لو أذن لنا لدخلنا، ولو صرفنا، لانصرفنا، ولو اعتذر إلينا لقبلنا، فأمّا الفترة بعد النّظرة، والتّوقف بعد التّعرف، فلا أفهمه، وانصرف، فبلغ المأمون كلامه، فصرف الحاجب، وأمر لعبد الله بصلة جزيلة، وعشْر دواب، وحجب بعض الهاشميّين، فرجع مغضبا، فرُدّ، فلم يرجع، وقال: ليس بعد الحجّاب، إلاّ العذاب. أنظر، النّويري: نهاية الأرب، م3، ج6، ص90 .

(67) يذكر خليفة بن خياط في تاريخه أسماء للحجّاب منهم، للرّشيد حاجبه مولاه بشير بن ميمون، ثمّ محمّد بن خالد البرمكي، ثمّ الفضل بن الرّبيع. أنظر، خليفة بن خياط ت240هـ: تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: الدّكتور:أكرم ضياء القمري، دار طيبة للنّشر والتّوزيع، الرّياض، الطبعة الثّانية مزيدة ومنقحة، 405هـ/1985م، ص465 .

3. حركات المعارضة، والثورات ضدّ الحكم العباسيّ:

تنامت حركات المعارضة ضدّ وصول البيت العباسي للحكم، من رجال الدّعوة، ومن الفرس، ومن الفرع العلوي، ولكلّ منها مبرّراته، وأهدافه، وفي الأوّل كانت من الخوارج فقط؛ باعتبارهم يرفضون الحكم المتوارث، فتصدّت لها الخلافة العبّاسيّة بما يناسبها من حلول؛ للإبقاء على البيت العبّاسي في سدّة الحكم للدّولة الإسلاميّة، ويمكن تقسيمها إلى التّالي:

أوّلا: تصفية الخصوم من رجال الدّعوة العباسيّة: شملت التّصفيّة شخصياتا هامّة، أدّت أدوارا مختلفة؛ لإنجاح الدّعوة، منها الآتي:

أ. تصفية شخصية "أبو سلمة، حفص بن الخلاّل":

قام الخليفة السّفاح بتصفية المنافس السّياسي الّذي أراده أن يملك، ولا يحكم، وهو "أبو سلمة، حفص بن الخلاّل"، وزير آل محمّد، فاتّهمه بأنّه كان يريد الخلافة من بني العبّاس للعلويين، ولكنّه لم يقتله بمجرّد تسلّمه الخلافة، وكان أبوسلمة إلى جانب العباسيّين، فلمّا بلغه مقتل الإمّام إبراهيم أراد أن يُحَوِل الأمر للعلويّين، ودخل أبو سلمة على السّفاح عندما دعاه، وكساه، وما إن خرج من بيته ليلا، حتّى أرسل خلفه من يقتله غدرا، ثمّ يغطي مؤامرته بإرسال أخيه "يحي بن محمّد"؛ ليصلي عليه، وأشاع أنّ الخوارج قتلوه، وكان لذلك ردّ فعل في 133هـ/751م؛ إذ خرج "شريك بن شيخ المهري"، ومعه ممّن تبعه ثلاثون ألفا، خرجوا على أبي مسلم الخراساني، وقالوا:"ما على هذا بايعنا آل محمّد، على سفك الدّماء، وقتْل الأنفس"، وبعث إليه أبو مسلم قائدا من قوّاده، وقاتله، فقتله وفي 134هـ/752م خرج بسّام بن إبراهيم على السّفاح، فبعث إليه السّفاح "خازم بن خُزَيمة"، فقتل عامّة أصحابه، واستباح عسكره[1].

وبينما هو عائد في طريقه مرّ بقوم من بني عبد الدّار أخوال السّفاح، فسألهم عن شيئ ينصرون به الخليفة، فلم يردّوا، واستخفّوا به، فأمر بضرب أعناقهم، وكانوا عشرين رجلا، ومعهم مواليهم، واستعدى بنو عبد الدّار السّفاح على "خازم"، وهمّ بقتله، ولكنّه لرأي ما فضّل أن يُرسل في مهمّة صعبة، فإن قُتل فيها، فذاك ما يريده السّفاح، فبعثه إلى عُمّان، حيث الخوارج تمرّدوا، وخرجوا على الإمّام، ومعه سبعمائة، وكتب إلى عمّه بالبصرة بأن يحملهم في السّفن إلى عُمّان، وقاتل خازم الخوارج، وهزمهم، وقتل أمير الخوارج "الجلندي"، وقتل أصحابه عشرة آلاف، وأرسل رؤوسهم إلى البصرة، وبعث بها نائب البصرة إلى السّفاح[2].

وبعد عدّة أشهر كتب أبو سلمة، حفص بن سليمان الخلاّل الهمذاني، وكان السّفاح يأنس به؛ لأنّه كان ذا مفاكهة، وممتعا في حديثه، أديبا، عالما بالسّياسة، والتّدبير، وكان ذا يسار، ويعالج الصّرف بالكوفة، وأنفق أموالا كثيرة في إقامة دولة بنّي العباس، وصار إلى خراسان في هذا المعنى، وأبومسلم يومئذ تابعا له في هذا الأمر، وكان يدعو إلى بيعة إبراهيم الإمّام أخو السفّاح، فلمّا قتله "مروان بن محمّد" بحرّان، وانقلبت الدّعوة إلى السّفاح توهمّوا من أبي سلمة أنّه مال إلى العلويّن، فلمّا وليّ السّفاح، واستوزره، بقي في نفسه منه شيئ، فيقال: أنّ السّفاح سيّر إلى أبي مسلم وهو بخراسان يُعرِفه بفساد نيّة أبي سلمة، ويحرّضه على قتله[3].

ويقال: أنّ أبا مسلم لما اطّلع على ذلك، كتب إلى السّفاح، وعرّفه بحاله، وحسّن له قتله، فلم يفعل، وقال: هذا الرّجل بذل ماله في خدمتنا، ونصحنا، وقد صدرت منه هذه الزلّة، فنحن نغتفرها له، فلمّا رآى أبومسلم امتناعه من ذلك، سيّر جماعة كمنوا له ليلا، وكانت عادته أن يسمر عند السّفاح، فلمّا خرج من عنده وهو في مدينته بالأنبار، ولم يكن معه أحد، وثبوا عليه، وخبطوه بأسيافهم، وأصبح النّاس يقولون: "قتله الخوارج"، وكان قتله بعد خلافة السّفاح بأربعة أشهر، ووليّ السّفاح الخلافة ليلة الجمعة، ثالث عشر ربيع الآخر سنة132هـ/ 750م، ولما سمع السّفاح بقتله أنشد: "إلى النّار، ومن كان معه على أيّ شيئ فاتنا منه نأسف"[4].

ب. مقتل سليمان بن كثير:

بعد مقتل الخلاّل وجّه السّفاح أخاه أبا جعفر إلى أبي مسلم، ومعه ثلاثين رجلا، ولما قدم هذا الأخير على أبي مسلم سايره "عبيد الله بن الحسين الأعرج"، و"سليمان بن كثير"، فقال سليمان للأعرج: "يا هذا، إنّا كنّا نرجو أن يتمّ أمركم، فإن شئتم، فادعونا إلى ما تريدون"، فأتى الأعرج لأبي مسلم، وأخبره بما كان من سليمان، وبعث أبو مسلم إلى سليمان، فقال له: "أتحفظ قول الإمّام لي: من اتّهمته، فاقتله؟"، قال: نعم، قال: "فإنّي قد اتهمتُك"، فقال سليمان: "أنشدك الله"، فقال أبو مسلم: "لا تناشدني، الله منطو على غشّ الإمّام"،

وأمر بضرب عنقه، وانصرف أبو جعفر من عند أبي مسلم، فقال لأبي العبّاس: "لستَ خليفة، ولا آمُرُك بشيئ إنْ تركت أبا مسلم، ولم تقتله"، فقال أبو العبّاس: "وكيف؟"، فقال أبو العبّاس: "أسكت، فاكتُمها"، ومنذ ذاك الحين، وأبو جعفر كاره لأبي مسلم، ويكيد له، كما رأى طاعة الجند له، واستخفافه بأمر أبي جعفر، وقد فهم أبو جعفر من ذلك أنّه إن تُرك استبدّ بالأمر، ودعا لنفسه، وحينئذ لا ينفع النّدم، ولا تُغْني يا ليت، وسار أبو جعفر، ومعه أبو مسلم إلى الحجّ، وحجّا، وعادا، وهكذا تخلّص السّفاح من كلّ خصومه، وبقيّ أبو مسلم لأبي جعفر فيما بعد[5].

ت. مواجهة الخليفة أبوجعفر لعمّه عبد الله بن علي:

هدّد استقرار الحكم العبّاسي ثلاثة مخاطر أوّلها: منافسة "عبد الله بن علي" عمّه له؛ لما كان له من نباهة الذّكر، وقوّة الشّخصيّة من بني العبّاس؛ ولأنّه كان يقود جيشا ضخما من أهل فارس وأهل الشّام والجزيرة والموصل، الّذي أمّره عليه السّفاح قبل وفاته؛ ليغزو به الرّوم، وقد أظهر أبو جعفر خوفه من عمّه لأبي مسلم، حينما جاءه الخبر بوفاة أخيه السّفاح والبيعة له، فكان أبوجعفر محقّا، فلمّا خرج عبد الله بن علي غازيا البيزنطيّين على رأس جيش في عهد السّفاح، وكان بجيشه عددا كبيرا من العرب، ولما وصل "دَلْوَك" بنواحي "حلب" علم بوفاة السّفاح، والبيعة لأبي جعفر بالخلافة توقّف عن الزّحف، و رحل إلى حرّان، حيث اجتمع بأركانه، وتقرّر بالنّتيجة ترشيح نفسه للخلافة، فبايعه الجند، ومنها راح زاحفا نحو الجزيرة؛ ليستخدم الجيش؛ قصد تحقيق أطماعه، مدّعيا أنّ السّفاح أقامه وليّا لعهده، حينما أرسله لقتال الخليفة الأُموي مروان الثّاني[6].

كان المنصور قد أحضر "عيسى بن موسى" بعد أن خلع نفسه، وسلّم له عمّه "عبد بن علي"، وأمره بقتله، وقال له: "إنّ الخلافة إليك بعد المهدي، فاضرِبْ عنُقه، وإيّاك أن تضعف، فتنتقض على أمري الذي دبّرته"، ثمّ مضى إلى مكة، وكتب إلى عيسى بن موسى من الطريق يستعلم منه ما فعل في الأمر الذي أمره، فكتب عيسى في الجواب "قد أنفذتُ ما أمرتَ به، فلم يشك أنّه قتله، وكان عيسى، حيث أُخذ عبد الله بن عند المنصور، دعا كاتبه "يونس بن أبي فروة"، وأخبره الخبر، فقال: "أراد أن تقتله، ثمّ يقتلك؛ لأنّه أمر بقتله سرّا، ثمّ يدّعيه عليك علانية، فلا تقتله، ولا تدفعه إليه سرّا أبدا، واكتم أمره"، ففعل ذلك عيسى[7].

استخدم أبوجعفر أبومسلم الخراساني للقضاء على عمّه؛ لكي يضرب أعداءه ببعضهم، إضافة إلى محاولة استقطابه الخراسانيّين في جيش عمّه عن طريق أبي مسلم، فسار أبومسلم لقتال عبد الله بن علي، متّجها إلى حرّان، وجمع إليه الجند والسّلاح، والمؤونة، وخندق حول معسكره، أمّا عبد الله، فقد تكوّن جيشه من أهل الشّام، وأهل خراسان، وانتابه شك من جنود خراسان أنّهم سينحازون لأبي مسلم، فأمر بقتلهم، وهذا كان خطؤه الأوّل الذي جعل جيشه ينهار، وأصابه العار؛ ممّا فعله مع جنده.

والثّانية أنّه كان ضمن قادة جيشه "حمُيَد بن قحطبة"، و هو من كبار القوّاد في الدّولة العباسيّة، فأراد أن يستريح منه، فكتب له كتابا يأخذه معه إلى والي حلب، فيه أمْر بقتله، ولما كان حميد فطنا، فقد فكّ الكتاب في الطّريق، وقرأه، فلمّا علم بما فيه دعا أناسا من خاصّته، وأخبرهم الخبر، وشاورهم، وقال: "ومن أراد منكم أن ينجو، ويهرب، فلْيَسِر معي، فإنّي أريد أن آخذ طريق العراق، ومن أراد منكم أن يحمل نفسه على السّير، فلا يفشين سرّي، وليذهب حيث أحبّ، فاتّبعه على ذلك ناس من أصحابه، وبذلك فقد عبد الله قائدا، محنكا ك"حميد"، واتّخذ عبد الله مدينة "نصيبين" معسكرا له، وحصّنها، فأقبل إليه أبومسلم، وكان داهية، قد مارس الحروب، ومعه جند مدرب لا يفسد عليه بالعصيان تدبيره[8].

أراد أن يحتلّ موقع عبد الله لحصانته، فكتب إليه: لم أُومر بقتالك، ولم أوّجه إليك، ولكن أمير المؤمنين ولاّني الشّام، وإنّما أريدها، ولم تكن هذه الحيلة لتنطوي على عبد الله، وبعدها تقابل الجيشان، وكان أهل الشّام أكثر فرسانا وعدّة، واستمرّ القتال ستة أشهر، وفي السّابع من جمادي الآخرة 137هـ/755م كانت الموقعة الفاصلة؛ إذ أرسل أبومسلم للحسن بن قُحطبة، وكان على الميمنة بضمّ أكثرها إلى الميسرة.

وانتهت إلى فرار عبد الله إلى العراق، تاركا معسكره، فاحتواه أبو مسلم، فأمّن النّاس، ولم يقتل أحدا، وأمر بالكفّ عنهم، وسار عبد الله إلى البصرة، وكان أميرها أخوه "سليمان بن علي"، فأواه، وأقام عنده مدّة متواريا، ولما علم الخليفة أبو جعفر بذلك بعث إلى سليمان،

يأمره بإظهار عبد الله بن علي، وأعطاه الأمان لعبد الله، ما رضيّه، ووثق به، فخرج به سليمان، حتّى قدم به إلى أبي جعفر 139هـ/757م، فأمر بحبسه، وحبس من كان معه، ثمّ أمر بقتل بعضهم، وأرسل آخرين منهم إلى خراسان، فقتلوهم هناك، واستمرّ عبد الله في محبسه، حتّى مات 147هـ/764م[9].

ولما توفي السّفاح كان أبوجعفر بمكة، فأخذ البيعة لأبي جعفر، "عيسى بن موسى"، وكتب إليه يُعلمه وفاة السّفاح والبيعة له، فلقيّه الرّسول بمنزل صفية، فقال: "صفَتْ لنا إن شاء الله، وكتب إلى أبي مسلم يستدعيه، وكان أبوجعفر قد تقدّم، فأقبل أبومسلم إليه، فلمّا جلس، وألقى إليه كتابه، قرأه، وبكى، واسترجع، ونظر إلى أبي جعفر، وقد جزع جزعا شديدا، فقال: "ماهذا الجزع، وقد أتتك الخلافة؟"، قال: "أتخوف شرّ عمّي "عبد الله بن علي"، وشيعة علي، قال: "لا تخفه، فأنا أكفيكه إن شاء الله، إنّما عامّة جنده، ومن معه أهل خراسان وهم لا يعصونني"، فسرى عنه، وبايع له أبومسلم والنّاس، وأقبلا، حتّى قدما الكوفة[10].

ث. تصفية أبي مسلم الخراساني:

لعب الخراسانيون وأبو مسلم الخراساني دورا كبيرا في إيصال بني العبّاس إلى دولتهم، وكانوا يتطّلعون إلى التّخلّص من الحكم الأموي، الّذي ميّز بين العنصر العربي والموالي، وإعادة مجد الفارسيّين والخراسانيّين، ولكن سياسة العباسيّين إزاءهم كانت السّماح لهم بالمشاركة في إطار الطّاعة لبني العبّاس والقمع والبطش إذا خرج هؤلاء على طاعة بني العبّاس، فما إن قامت دولة العباسيّين، ورآى الخراسانيون أنّها لم تحقّق لهم شعاراتها، وكان أبومسلم يشعر بأنّه المؤسّس الحقيقي لهذه الدّولة، وكان الفرس يأتمرون بأمره.

فكّر بالانفراد بالحكم في خراسان وبلاد فارس كلّها، وكان أبوجعفر شديد الحساسيّة لهذه الطموحات، ويضمر الشّرّ لأبي مسلم، فقد حاول أبو مسلم الظّهور على أبي جعفر من خلال أعمال إدرايّة كإنفاقه الأموال الكثيرة في إصلاح الطّرق، وبتقدُّمه عليه في الطّريق، ولما بويع أبوجعفر بالخلافة تباطأ أبو مسلم في بيعته، وكانا عائدين من الحجّ، فكتب إليه يعزّيه بوفاة أخيه أو يهنؤه بالخلافة أو يبعث إليه بالبيعة أو يتريّث في طريقه، حتّى يلحق به، متجنبا لقاءه؛ ممّا أدخل الرّعب والقلق في نفسه.

وما إن تخلّص من عبد الله بن علي، حتّى بدت بوادر أزمة بينهما؛ لما حصل أبو مسلم على أموال عبد الله، فأراد أبوجعفر أن يُشعره بأنّه أحد قادته، وعاملا من عمّاله فقط، فأرسل إليه رسولا يحصي المغانم التي غنمها من عمّه، فلمّا وصل الرّسول غضب أبو مسلم، وكاد يقتل الرّسول، لولا أن قيل له: "ماذنبه؟، إنّه رسول"، فخلّى سبيله، وقال: "أأكون أمينا على الدّماء، ولا أكون أمينا على الأموال؟"، فعاد الرّسول، وأخبر الخليفة بذلك، فانتهج معه الخليفة معه بعد ذلك أساليب أخرى هي: أن يُبعده عن منطقة نفوذه في خراسان، حتّى لا يؤلِّب عليه أهلها، ويستقلّ بحُكمها، وجعله قريبا من مركز الخلافة، حتّى تسهل مراقبته، فبدأ الخليفة بكتابه إلى أبي مسلم "أنّي قد ولّيتك مصر والشّام، فهي خير لك من خراسان، فوجّه إلى مصر مَنْ أحببت، وأقِم بالشّام، حتّى تكون بقرب أمير المؤمنين، فإن أحبّ لقاءك أتيته من بعيد"[11].

ولما جاء الكتاب أبا مسلم، غضب، وقال: "هو يولّيني الشّام ومصر وخراسان لي"، وصمّم على المضَي إلى خراسان، وأقبل من الجزيرة مُجمعا على الخلاف مريدا خراسان مخالفا أمر الخليفة، فاستخدم الدّهاء معه للإيقاع به، فتوجّه الخليفة إلى المدائن، وكتب له يدعوه لزيارته، وهو في طريقه إلى خراسان؛ لأمر هام، لكنّ أبا مسلم أدرك مرامي الخليفة، وردّ عليه برسالة عبّر فيها عمّا يعتريه من حقد، قال فيها: "أنّه لم يبق لأمير المؤمنين أكرمه الله عدو، إلاّ أمكنّه الله منه، وقد كنّا نروي عن ملوك آل ساسان: "أنّ أخوف ما يكون الوزراء، إذا سكنت الدّهماء، فنحن نافرون من قُرْبك، حريصون على الوفاء لك بعهدك ما وُفيتَ، حرّيون بالسّمع والطّاعة، غير أنّها من بعيد، حيث تقارنها السّلامة، فإنْ أرضاك ذلك، كنّا كأحسن عبيدك، فإن أبيت، إلّا أن تُعطي نفسك إرادتها نقضْتَ ما أبرمْت من عهدك، ظنّا بنا"، فغضب الخليفة، وشعر بأنّ أبا مسلم يساوي نفسه بالخليفة[12].

كتب لأبي مسلم: قد فهمت كتابك، وليس صِفَتُك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الّذين يتمنون اضطراب حبل الدّولة لكثرة جرائمهم، فإنّما راحتهم في انتشار نظام الجماعة، فلِمَ سويت نفسك، فأنت في طاعتك، ومناصحتك، واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا

الأمر على ما أن به، وليس مع الشّريطة التي أوجبت منك سماع ولا طاعة، وحمل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالته؛ لتسكن إليها إن أصغيت إليها، وأسأل الله أن يحول بين الشّيطان ونزعات هو بينك، فإنّه لم يجد بابا يفسد به بينك أوكد، وأقرب من طبّة الباب الّذي فتحه عليك، أرسل هذا الكتاب مع عيسى بن موسى، ووجّه معه "أبا حميد المروزي"، وأمره الخليفة بأن يكلّم أبا مسلم بألين الكلام[13].

وتوجّه إليه وقال: "يقول لك أمير المؤمنين، لستَ للعبّاس، وأنا بريئ من محمّد إنْ مضيت مشاقا، ولم تأتني إن وكلت أمرك لأحد سواي، وإن لم آل طلبك، وقتالك بنفسي، ولو خضْتَ البحر، لخُضْتُه، ولو اقتحمت النّار لاقتحمتها وراءك، حتّى أقتلك أو أموت قبل ذلك"، فوصل المروزي إلى أبي مسلم، وكلّمه باللّين، وذكّره بحقوق الإمّام، وخوّفه من تفريق الكلمة، واستشار أبو مسلم مختصّيه، فأشاروا عليه بعدم القدوم على الخليفة؛ لأنّه لم يعد يأمنه، فقال للمروزي: ارجع إلى صاحبك، فليس من رأيّي أن آتيه، وحينها أبلغه الرّسالة الأخيرة التي كتبها الخليفة لخليفة أبي مسلم في خراسان، وعلى جنده يعطيه ولاية خراسان ما عاش[14].

وكان هذا داء الخليفة بتأليب قائد جنده عليه، فكتب إليه خليفته: إنّا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيّه صلّى الله عليه وسلّم، فلا تخالفنّ إمامك، ولا ترجعنّ إلاّ بإذنه، ووافاه الكتاب حين جاءه كتاب الخليفة، فازداد رعبا، وبقيت الرّسائل بين الخليفة وأبي مسلم الّذي حسب ابن خلّكان بقي حائرا بين الاستبداد برأيّه في أمره أو الاستشارة، فقال يوما لسالم بن قتيبة بن مسلم الباهلي: "ماترى في أمر أبي مسلم؟"، قال قول الله: "لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ، إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا" الأنبياء22 ، فردّ الخليفة: "حسبك يا ابن قتيبة، لقد أودعتها أذنا صاغية"، ورحّب الخليفة بأبي مسلم حين رجعته، وأمره بالانصراف إلى مخيمه، وأظهر له الإكرام[15].

وقيل: أنّه مرّة جاء إليه، وكان الخليفة يتوضأ للصّلاة، فجلس أبو مسلم تحت الرّواق، ورتبّ له الخليفة جماعة يختبؤون خلف السّتار الّذي كان خلفه، وأمرهم إذا هو عاتبه لا يظهرون، فإذا ضرب بيده على يده الأخرى ظهروا، وضربوا عنقه، واستدعى الخليفة أبا مسلم، فلمّا دخل عليه سأله عن سيفين أصابهما لعمّه عبد الله بن علي، وكان أبو مسلم مقلّدا أحدهما، فقال أبو مسلم: "هذا أحدهما، فأخذه الخليفة"، ثمّ عاتبه قائلا: كتبت إلى السّفاح تنهاه عن الموات، كأنّك تعلّمه"، فردّ أبو مسلم: "ظننتُ أنّه لا يحلّ، ثمّ افتديت بكتاب السّفاح وعلمت أنّك معدن للعلم"، فقال الخليفة: فتقدّمتَ عنّي بطريق مكّة"، فردّ أبومسلم: "كرهتُ مزاحمتك على الماء"، قال: "فامتناعَك عن الرّجوع إليّ حين بلغك موت السّفاح، وامتناعك من الإقامة، حتّى ألحقك"، فردّ أبو مسلم: "طلبتُ الرّفق بالنّاس، والمبادرة إلى الكوفة"، قال: "فجارية عمّي عبد الله أردتَ أن تتّخذها لنفسك"، فقال أبو مسلم: "لا. وإنّما وكّلت بها من يحفظها"، قال: "فمراغمتك، وسيرك إلى خراسان"، قال: "خفتُ منك"، فقلت: "آتي خراسان، وأكتبُ بقدري، فأُذْهب ما في نفسي منّي"، قال: "فالمال الّذي جمعتَه بحرّان"، قال: أنفقته على الجند تقوية لكم"، قال: "ألستَ الكاتب إليّ تبدأ بنفسك، وتخطب "آمنة بنت علي بن عبد الله بن عبّاس" وهو أحد نقبائها، وتزعم أنّك من ذريّة سُلَيْط بن عبد الله بن عبّاس، لقد ارتقيتَ لا أمّ لك مرتقى صعبا"[16].

قال الخليفة: "ما الّذي دعاك إلى قتل سليمان بن كثير، مع أثره في دعوتنا، وهو أحد نقبائها من قبل أن تدخل في هذا الأمر؟"، قال أبو مسلم: "أراد الخلافة، فقتلتُه"، ثمّ قال أبو مسلم: كيف يقال إليّ هذا بعد بلائي، وما كان منّي؟، فقال الخليفة: "يا ابن الخبيثة، لو كانت أمة مكانك؛ لأغنت بدولتنا، وريحنا"، فأكّب أبو مسلم يُقبّل يدي الخليفة معتذرا، وقال أبو مسلم: "دع هذا، فقد أصبحتُ لا أخاف، إلاّ الله وحده، فشتمه الخليفة، وصفّق بيده، فخرج الحرس، وضربه "عثمان بن نهيك"، فقطع علابيه، فقال أبو مسلم: "يا أمير المؤمنين، استبْقني لعدوّك"، فردّ: "لا أبقاني الله، إذًا، و أيّ عدوّ أعدى منك؟، وأخذه الحرس بسيوفهم، حتّى قتلوه في الخامس بقيت من شعبان 137هـ/755م وخرج الوزير أبو الجهْم، فصرف النّاس والجند، وقال: "الأمير قائل عند أمير المؤمنين، فانصرفوا"[17].

وأمر لهم بالجوائز، وأعطى أبا إسحاق مائة ألف، ودخل عيسى بن موسى على المنصور، وسأله عن أبي مسلم، وأخذ يمدحه، ويذكر رأي الإمّام إبراهيم فيه، فقال الخليفة: "والله لا أعلم على وجه الأرض عدوًّا أعدى لكم منه، هو ذا في البساط"، فقال عيسى: "إنّا لله، وإنّا إليه راجعون، فأنكر عليه الخليفة قائلا: وهل أنّ لكم مُلْكٌ معه، ثمّ دخل على الخليفة "جعفر بن حنظلة"، فاستشاره في قتل أبي مسلم، فأشار بقتله، فقال له الخليفة: وفّقك الله، ثمّ نظر إليه قتيلا، فقال: "عُدّ خلافتك من هذا اليوم"[18].

الاتّهامات الموجّهة لأبي مسلم هي: تجاوزه للعلاقات الإجتماعيّة، حين خطب عمّة الخليفة ""آمنة" بنت علي، وضع نفسه في المكانة الأولى في الدّولة، حين كتب إلى أبي جعفر بادئا بنفسه، ادّعاؤه النّسب العبّاسي لنفسه، زعم أنّه ابن سُليط بن عبد الله بن عبّاس، قتله لسليمان بن كثير نقيب النّقباء في الدّعوة بخراسان، قتله الكثير من رؤساء قبائل اليمنيّة، العزم على سيره إلى خراسان دون إذن الخليفة أو موافقته، وقتل أبي مسلم كان بداية ظهور المتاعب، والمشاكل في الدّولة العباسيّة[19] .

خاتمة: وعليه فإنّ حزم خلفاء بنّي العبّاس الأوائل، خاصّة أبي جعفر المنصور قد لجأوا إلى سياسة التّصفيّة الجسديّة لكلّ من يتوجّسون منه خوفا على هيبتهم، ودولتهم، فكان منهم أن قتلوا كلّ منازع من آل البيت أو رؤساء الجيش.

---

(1) المسعودي: مروج الذهب، ج3، ص 196 .

(2) نفسه.

(3) نفسه.

(4) ابن الأثير: الكامل في التّاريخ، ج5، ص196ومابعدها؛ ابن فضل الله العمري:مسالك، ج11، ص18 .

(5) ابن الأثير: مصدر سابق، ص196؛ المسعودي: مروج، ج3، ص 310 .

(6) ابن الأثير: الكامل، ج5، ص196.

(7) ابن الأثير: نفس المصدر، ص183؛ إبراهيم أيوب: التّاريخ العبّاسي السّياسي والحضاري، دار الكتاب العالمي، ط1، 1989م، ص33-35 .

(8) ابن الأثير: مصدر سابق، ص183.

(9) المسعودي: مروج، ج3، ص210 .

(10) ابن الأثير: الكامل في التّاريخ، ج5، ص100؛ قصة مقتل عبد الله بن علي. أنظر، ابن الأثير: نفس المصدر، ص ص103 ،104 .

(11) الطبري: تاريخ الطبري، ج4، ص 1547 ومابعدها؛ المسعودي: مروج، ج3، ص311 .

(12) المسعودي: نفس المصدر، ص311 .

(13) نفسه.

(14) نفسه .

(15) نفسه.

(16) نفسه.

(17) نفسه.

(18) نفسه.

(19) ابن الأثير: الكامل في التّاريخ، ج5، ص105ومابعدها؛ ابن خلّكان: وفيات، ج3، 154؛ المسعودي، ج3، ص ص210 ،211؛ إبراهيم أيوب: مرجع سابق، ص35 وما بعدها؛ في136هـ/754م، استأذن أبو مسلم الخليفة في القدوم عليه، فأذن له في خمسمائة ألف جندي، فاستقلّها أبومسلم، فكتب إليه الخليفة، أن يأتيه في ألف جندي، ولكنّ أبا مسلم قدم في ثمانية آلاف جندي فرقّهم في الأقاليم، وأخذ معه التّحف والهدايا، ولما قدم على السّفاح، لم يكن معه سوى ألف جندي، فتلقّاه القوّاد، والأمراء من مسافة بعيدة، وأكرمه الخليفة، وقرّبه منه، واستأذن أبومسلم السّفاح في الحجّ، فأذن له، وأرسل إلى أخيه أبي جعفر يخبره بأنّ أبا مسلم قد حضر، واستأذنه في الحجّ، وأذنت له، فاستأذن أنت في الحج، ثمّ قال السّفاح لأبي مسلم: "لولا أنّ أخي أبا جعفر استأذنني في الحجّ هذا العام؛ لجعلتك على الحجّ، وكان أبومسلم على كراهية مع أبي جعفر؛ لأنّ أبا مسلم أطاعه الجند، حينما ذهب إليه في نيسابور؛ ليأخذ البيعة للسّفاح والمنصور بعده، وأشار أبو جعفر على السّفاح بقتل أبي مسلم، فأمره السّفاح بأن يكتم هذا الخبر، ولما قدم أبومسلم الخراساني على السّفاح أمر أبو جعفر بقتله، ولكن الخليفة ردّه، وقال: "قد علمت بلاءه معنا، وخدمته لنا"، فقال أبوجعفر: "يا أمير المؤمنين، إنّما ذلك بدولتنا، والله، لو أرسلت سنّورا؛ لسمعوا لها، وأطاعوا، إنّك إن لم تتعش به تغدّ بك"، فقال السّفاح: "فكيف السبّيل إلى ذلك؟"، فقال أبوجعفر: "إذا دخل عليك، فحادثه، ثمّ أجيئ أنا من ورائه، فأضربه بالسّيف"، قال السفّاح: "كيف بمن معه؟" قال المنصور: "هم أذلّ، وأقلّ"، فأذن له في قتله، فلمّا دخل أبومسلم على السّفاح ندم على ماكان أذن لأخيه فيه، فبعث إليه يقول: "إنّ الّذي بينك وبين أمير المؤمنين قد ندم عليه، فلا تفعله، وجاءه الخادم، ووجده متهيئا لقتل أبي مسلم، فلمّا نحاه غضب غضبا شديدا". أنظر، ابن الأثير: مصدر سابق، ص 82-99.

ثانيا: الحركات الفارسيّة:

قامت الدّولة العبّاسيّة بفضل مساعدات العجم لها، خاصّة الفرس الّذين شكّلوا أغلبية الموالي الحاقدين على الحكم الأموي، والطامحين لاستبداله بنظام حكم عادل؛ ليحقّقوا ذواتهم، ويعيشوا في كنف العدل والمساواة والحرية، ولكن بمجرد قيام الدّولة العباسيّة كانوا أكثر المعارضين لها والسّاعين لإسقاطها، فكيف كان ذلك؟.

حركة سنباذ:

هي أول تنظيم كردّ فعل إزاء مقتل أبي مسلم الخراساني، اتّخذت اسم زعيمها "**سنباذ المجوسي**"، من إحدى قرى نيسابور، يقال لها: "أهروانة"، وحسب المسعودي" لما نمي مقتل أبي مسلم إلى خراسان وغيرها من الجبال اضطربت الخرّمية، وثار سنباذ في خراسان، وحسب الطبري" كان خروجه غضبا لمقتل أبي مسلم فيما قيل، وطلبا لثأره، وأخبر أتباعه أنّ أبا مسلم لم يمت، وأنّه تلا اسم الأعظم قبل أن يقتل، فصار حمامة بيضاء، وطار، كان أحد قوّاد الجيش عند أبي مسلم، ومقرّبا إليه، التفّ حوله الكثير من الخرّمية[1]، والمزدكية[2]، وأجابه كثير من طبرستان، والجبال، وكانوا حتّى ذاك الوقت مجوسا، وكان يبشر بنهايه السّلطان العربي، وإعلانه أنّه سيذهب إلى الحجاز، ويهدّم الكعبة، قيل: عدد أتباعه كان تسعون ألفا، فاتّخذ لنفسه لقبا، "فيروز أصبهبذ"؛ أي، القائد المنتصر، تسلّط سنباذ على مابين نيسابور، وقومس والرّي، حتّى همذان، فيما لا يزيد عن شهرين، وحاول رشوة أصبهبذ طبرستان، وضمّه إلى صفّه، فأرسل إليه بعض خزائن أبي مسلم الّتي استولى عليها عند فتح الرّي، ولكنّ نهايته كانت الإنهزام أمّام جند الخليفة أبو جعفر، بقيادة "مراد العجلي"، وقتل ستّون ألفا من أتباعه، وسبي ذراريهم، ونساءهم، ثمّ قُتل هو بين طبرستان، وقومس[3].

يتبين سرعة انتشارها رغم عمرها القصير حوالي سبعين يوما، يعني أنّه كان محضر لها من قبل كثرة أتباعه بلغوا تسعين ألفا، يعني دعوته كانت ذات شهرة استمرار ولاء الخراسانيّين لأبي مسلم ضخامة، عدد المتذمرين من حكم العباسيّين، مجوسية سنباذ تدعو إلى الحيرة، فهل كان مسلما، ثمّ ارتدّ؟، جرأته في الإعلان عن هدفه إنهاء الحكم العربي، وهدم الكعبة، وطلب من أنصاره التّوجّه إلى الشمس بالصلاة، سرعة انهيار الحركة بتأيّيد الموالي المسلمين للحكم العباسي، إجتماع العرب المسلمين المستقرّين في الجبال بقيادة "عمر بن العلاء" ضدّها[4] .

الحركة الرّوانديّة:

الرّوانديّة[5] مجموعتان همّا: الأولى، تعتقد بانتقال الإمامة من أبي هاشم إلى محمّد بن علي بالوصاية، وهم من أوائل من انضمّ إلى الدّعوة العبّاسيّة بعد وفاة أبي العبّاس السّفاح إلى ثلاث فرق هي: فرقة تعتقد بإمامة أبي جعفر المنصور، ومن بعده المهدي، ويبدو أنّ هذه الفرقة هي التي ظلّت على العبّاسيّة، وكانت آراؤها تُدَرس علنا في مساجد بغداد، كما كانت لها مؤلّفاتا زمن الخليفة الرّشيد، وفرقة أنشأها عبد الله الرّواندي، تعتبر أبا جعفر الإمّام القدير القادر، وهو إله، ونبيّه أبو مسلم الّذي حلّت به روح آدم، فلماّ قتل أبو مسلم عند أبي جفر على يدّ عثمان بن نهيك، وأربعة آخرين من الحرس، زعم الرّوندية أنّ روح آدم حلّت في عثمان [6].

ثارت هذه الفرقة ضدّ الخليفة أبي جعفر، ربّها الّذي يطعمها، ويسقيها؛ إذ جاء بعضها من خراسان إلى هاشمية الكوفة، حوالي 600شخص، فسكنوا بها، وصاروا يطوفون بقصر الخليفة أبي جعفر قائلين: "هذا قصر ربّنا، وصعدوا إلى قصر الخضراء، وأخذوا يُلقون بأنفسهم منه، كأنّهم يطيرون، فتضايق الخليفة منهم، فجلس مائتين من زعمائهم، فثار الباقون، وأخرجوا أصحابهم، وهجموا على القصر يريدون قتله، وكادوا يقتلونه؛ لعدم وجود الحرس الكافي، لولا أن أنقذه "مُعَن بن زائدة الشّيْباني"، وكان ذلك مدعاة للبحث عن عاصمة جديدة، وتسامح معهم الخليفة في البداية، لكنّهم لما جهروا بذلك، قال للهذلي عندما قال له: أنّهم ببابك يقولون: "هذا ربّ العزّة، هذا الّذي يطعمنا، ويسقينا"، فأجابه الخليفة: "يا هذلي، يدخلهم الله النّار في طاعتنا، ويقتلهم أحبّ إليّ من أن يدخلهم الجنّة بمعصيتنا"[7].

وهناك فرقة نقلت الإمّامة من أبي العبّاس إلى أبي مسلم، وهي فئتان، فئة اختلط بها بعض الخرّمية، وتسّمى المسلميّة، تعتقد أنّ أبا مسلم لم يمت، وأنّه في رأي بعضهم نبيّ أرسله زرادشت، وفي رأي آخرين، حلّ فيه جزء إلهي، فهو فوق الملائكة، وفئة تعتقد موت أبي مسلم، ولكنّها تنسب له الخوارق، والمعجزات، وهم الرّزاميّة أتباع رزام، والثّانية، مجموعة تتبع أبا هريرة الرّواندي، تعتقد أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أوصى بالإمامة لعمّه العباس، ثمّ ورثها عنه أولاده، وهي على ما يظهر من معتقدها أحدث من المجموعة الأولى، وتسمّى

العباسيّة، وتطرّفت في تقديس أبي مسلم، ونقلت الرّياسة الدّينية إليه، ولعلّ ذلك عن طريق ادّعائه بأنّه من نسل سُليط بن عبد الله العباسي و اصطدم الرّوانديون بأبي مسلم مرتين في خراسان، ثورة أبي اسحاق، وثورة أبي خالد، ثمّ اصطدموا بالمنصور الّذي هزمهم في هاشمية الكوفة في شمال الشّام، ومزّق كتبهم، وهكذا تمّ تصيدهم من المهدي في شمال الشّام، ومزّق كتبهم[8].

ثورة أستاذ سيز، أو حركة أستاذسيس 150هـ/767م:

قامت بخراسان، وتجمّعت فيها كافة الفئات الحاقدة على العباسيّين، وهي محاولة للتّعبير عن الرّفض لدى الخراسانيّين لسياسة بني العبّاس، التي لم تحقّق مطامحهم، وأستاذسيس كان أميرا على بعض الجيوش الخراسانيّة، فخرج بها عن الطاعة، واستولى على مدن خراسان الواحدة تلو الأخرى، فبعد احتلاله هراة، ومنطقة سِجِسْتان، اتّجه إلى مرو عاصمة خراسان، واستفحل الشّر على الخليفة أبي جعفر، وبلغ عدد الجيش الخراساني ثلاثمائة ألف مقاتل بين فارس وراجل، فعمل معهم، ولم يستطع قائد مرو وقتها إيقافهم في الوقت الّذي كان فيه يزيد بن منصور والي خراسان، وخال الخليفة المهدي بن الخليفة يهرب من بَسْتْ عاصمة سجستان بعد معارك إلى نيسابور[9].

إختار الخليفة إبنه المهدي، وأرسله مع الجيش، فعسكر في الرّي، واتّبعه بأعرق قواده "خازم بن خُزَيمة التّميمي" الخراساني، والمعارك الأولى كانت خاسرة معه؛ لتوزع الجيش، وطلب خازم من المهدي تحويل القيادة إليه، ولما لم ينفع ذلك طلب المدد من طخارستان، وعسكر خازم، وخندق في مكان قرب نيسابور، واستطاع هزْم الجيش، وضرْب أعناق الأكثرية، وهرب سيس في الجبال مع أعداد من جنده، فلحقه خازم، وحاصره مدّة، حتّى استسلم، فأُرسل في قيود حديدية إلى بغداد، حيث قتل، وعفا المهدي عن ثلاثين ألفا من الجند كانت مع أستاذسيس، وهدأت خراسان، واستُردّت بست عاصمة سجستان 151هـ/768م إلى الدّولة العباسيّة، واستُقبل المهدي في بغداد استقبال المنتصر بحفاوة بالغة[10].

حركة المقنّع الخراساني:

ذكر ابن الأثير، ظهر في 159هـ/766م، وكان يسمّى حكيما؛ ولأنّه رجل أعور قصير، من أهل مرو، هو رجل من أهل مرو اسمه "عطاء"، كان في مبدإ أمره قصّارا، يصبغ الثّياب، وكان يصرف من السّحر، وضع المقنّع على وجهه قناعا من ذهب؛ ليخفي ملامح وجهه القبيح، زاعما للنّاس أنّه وضعه؛ ليحجُب الذّات الإلهية، الّتي تجسدّت فيه عن عيونهم الدّنسة، وكان يؤمن بالتّناسخ[11]، فزعم أنّ الله سبحانه تحوّل إلى صورة آدم؛ ولذلك قال للملائكة: أسجدوا لآدم، فسجدوا إلّا إبليس، فاستحقّ بذلك سخط الله، ولعنته، ثمّ تحوّل إلى صورة نوح، وهكذا حتّى حصل في صورة أبي مسلم الخراساني، وانتقل من أبي مسلم إلى صورته هو، ودعا النّاس إلى ذلك، فأجابه خلق كثير وعبدوه، وقاتلوا دونه مع ما عاينوا من عظيم ادّعائه، وقُبح صورته؛ لأنّه كان مشوها الخلْق أعور، ألكن، قصيرا[12].

وكان لا يسفر عن وجهه، مكتفيا بالقناع الذّهبي الّذي سميّ به، وأنكر قتل ""يحي بن زيد"، وزعم أنّه أخذ بثأره، وتحصّن بقطعة بسام من رساتيق "كش"، ثمّ بدأ ظهوره سنة 161هـ/778م، وظلّ يغوي النّاس، ويضلّلهم إلى عام 163هـ/881م ،وكان قد ظهر ببخارى والصفد جماعة من المبيضة، فانضمّوا إلى المقنّع، وذلك للخلاف الّذي كان بينهم وبين المهدي، وأعانهم كثير من الكفار، وأغاروا على المسلمين من ناحيتهم، وأرسل الخليفة المهدي الجيوش إلى المقنّع؛ لحربه، وقتاله، وأحسّ المقنّع بالغلبة، وألحّ عليه "سعيد الحريش" بالحصار، ولما وجد أنّه لا مفرّ احْتسى سمّا، وسمّ نساءه، فماتوا جميعا، ودخل جيش المهدي القلعة، واحتزّوا رأسه، وبعثوا بها إلى الخليفة المهدي بحلب، واستحوذ المسلمون على حواصله، وأمواله[13].

بابك الخُرَّمي:

بابك الخرّمي، اهتمّ المؤرّخون بالحديث عن أخبار أمّه أكثر في التّرجمة لحياته، إذ قالوا: شَغُف بها رجل من النّبط في السّواد يقال له: عبد الله بن منبه، فحملت منه، وقُتل الرّجل، وهي حامل ببابك، فوضعته، وتكسّبت له، حتّى بلغ، فصار أجيرا لأهل قريته بطعامه وكسوته، وكان في تلك الجبل قوم من الخرّميّة ، فاستأجره "جاوندان" من أمّه، وكان ظهور بابك في سنة201هـ/817م بناحية أذربيجان، وهزم من جيوش الخليفة العبّاسي الكثير، إلى أن قضت عليه الخلافة العباسيّة[14]، تبرّأ أبوه من نسبته إليه، وأمّه كانت تشتغل بغسل الثياب وتخدم

البيوت، فجاءت به من أبيه "مطر" الّذي هدّد أمّه "ترتوميذ"، فأمسكت عن ذكر أبوّته لبابك، خوفا من القتل، وأخذت تتكسّب على بابك، حتّى صار رجلا، وأصبح أجيرا لأهل قريته، يرعى لهم سرْحَهم، مقابل طعامه وكسوته، وكان في تلك الجهات من الخرّمية قوم عليهم رئيسان، يحارب بعضهم بعضا أحدهما، "جاوندان"، والآخر اسمه "عمران"، وبينما جاوندان في طريقه يمرّ بقرية بابك، فيلمح فيه معالم الجلادة والصمود[15].

طلب من أمّه أن يستأجره، وحمله جاوندان إلى محلّته، ولم تكن زوجة جاوندان ترى بابك حتّى تعشقه، وعندئذ أفشت إليه أسرار زوجها، وأطلعته على خفايا أموره، ثمّ وقعت بين الزّعيمين المتنافسين، فيجرح جاوندان فيها جراحة يموت بسببها، فخرجت زوجة جاوندان وأعلنت لأتباعه أنّه استخلف بابك على أمره، فصدقوها، فجمع بابك أصحابه، وأمرهم أن يقوموا باللّيل، ويقتلوا كلّ من يجدونه من رجل أو صبي، فخرجوا، وأصبح النّاس قتلى، لا يدرون من قتلهم، ثمّ انضمّ إلى مجموعته الدّعار، والمفسدون، وقُطاع الطريق، والمنحرفون، واجتمع عليه النّاس، فملك مدنا، وقرى، وقتل، ونهب، وأحرق، وخرّب، وقتل، وكان بابك من زعماء الخرّمية، والباطنيّة الّذين استباحوا المحرّمات، فكان يستحلّ البنت، وأمّها، وكان إذا علم أنّ أحدا عنده بنت جميلة، أو أخت، بعث إليه يطلبها، فإن بعث بها إليه، وإلاّ بيته، وأخذها عنوة، وظهر بابك الخرّمي بأذربيجان 201هـ/817م، وظلّ عشرين عاما يحارب جيوش الخليفة، وهزم منهم كثيرا من القوّاد، وتفاقم خطره بعد أن دخلت أذربيجان في حوزته، فنشر الرّعب في المنطقة[16].

تمكّنت إحدى الفرق العبّاسيّة بقيادة "إسحاق بن إبراهيم بن مصعب" أن تقضي على أتباعه في إيران في عام218هـ/833م، وفي 220هـ/835م، وعيّن المعتصم أحد قوّاده الأفشين[17] بن حيدر بن كاوس أميرا على الجبال، وأمره بقتال بابك، وكان الأفشين حذرا، وخبيرا بالمسالك الجبلية، فاتّبع خطّة عسكرية، تستند على التّقدّم البطيئ، فضبط الحصون، ووزّع جنوده على القلاع، ومدّه المعتصم بالإمدادات والمؤن، ونفقات الجند، ورتّب البريد، ومهّد الطرقات، حتّى صار البريد بين سامرّاء والأفشين في أربعة أيّام[18].

واستعمل الحمام والجواسيس، وكان يستقطب من يظفر به، ويضعف له العطاء، ويسخره في التّجسّس لصالحه، ولما شعر بابك بهذا لجأ إلى الإمبراطور البيزنطي تيوفيل، وناشده مهاجمة الأراضي الإسلاميّة، ووعده بأن يعتنق النّصرانية، فأصدر له المعتصم أمرا ببدء القتال، محدّدا له المناطق الّتي يبدأ بها، وحاصر بابك بإحدى المدن، فدخلها الأفشين مدينة "البنو" الجمعة 10رمضان222هـ/837م، وهرب بابك إلى أرمينيا، فكتب الأفشين إلى ملوكها، وأمرائها بسدّ الطرق عليه، واستطاع بطريق يسمّى "سهل بن سنباط" أن يقبض عليه، ويعطيه الأمان، ثمّ يغدر به، ويسلمه إلى الأفشين، وجيئ به إلى سامرّاء في صفر222هـ/837م، ومعه أخوه عبد الله، وطيف به في شوارع سامرّاء، ثمّ تمّ إعدامه وأخيه، بعد أن مثلّ بهما، وصُلبا، وانتهت حركة بابك[19].

حركة المازيار:

حركة فارسية قادها "المازيار بن قارن بن ونداد هرمز"في سنة224هـ/839م، أحد الأمراء القاريانيّين بطبرستان، واعتنق المازيار الإسلام، وتسمّى بمحمّد، وولاّه الخليفة المأمون على طبرستان ومناطق أخرى، وسميّ "الأصبهبذ"، وأراد الإنفصال عن الدّولة، فاستغلّ الخصومة بين الطاهريّين الكاره لهم، وكان المازيار منافرا "عبد الله بن طاهر"، ولا يحمل إليه خراجه، وكاتب المعتصم يأمره بحمله إليه[20]، فيقول: لا أحمله إلا إليك وبين الأفشين الطامع في ولاية خراسان ليرفع راية الثورة، وكان قد كاتب المازيار، وشجّعه على إعلان العصيان على حكم الطاهريّين، أملا أن لا يتمكّن هؤلاء من إخضاعه، فيتّخذ عندئذ ذلك ذريعة لانتزاع خراسان منهم، وكان المازيار خرّميًا، معاديا للسّلطة العباسيّة، ونفذّ تدابيرا قاسية ضدّ الملاّكين العرب، فصادر أراضيهم، ووزعّها على الفلاحين، وأمر عامله على سرخستان بجمع مائتين وستين من هؤلاء الملاّك من أبناء القادة، ويسلّمهم إلى الفلاحين؛ ليقتلوهم باعتبارهم أناسا، يشكلون خطرا في محاولة تهدف إلى ضمّ قوى الطبقات العامّة، ودفعها للتّخلص من السّلطان العربي، وقتل المازيار في نهايتها، وصُلب مثل بابك قبله[21].

مؤامرة الأفشين:

صار للأفشين مكانا في البلاط العباسي، فأراد تأسيس دولة إنفصالية له في "أشروسنة"، وحاول استقطاب السّكان حتّى ينفصموا عن الخليفة المعتصم والعباسيّين، ويلتفوا حوله، كما حاول إزاحة والي خراسان "عبد الله بن طاهر" الّذي وقف في وجهه، وتصدّى له، ثمّ حرّض كلاّ من المازيار، وغيره بالثّورة على حكم المعتصم، وفشل الأفشين في مؤامرته، فحاكمه المعتصم على أنّه مجوسي، وطعن في إصلاحه، وجعل المحاكمة على هذا الأسّاس، حتّى لا يغضب الأتراك، ويثير الشّك في نفوسهم، وهم قادته، وبلاطه[22].

وكانت المحاكمة بحضور ابن الزّيات، فدعا محمّد برجلين، وقال لهما: ما شأنكما؟، فكشفا عن ظهورهما وهي عارية من اللّحم، فقال محمّد للأفشين: تعرف هذين؟ قال الأفشين: نعم هذا مؤذن، وهذا إمّام، بنيا مسجدا بأشروسنة، فضربت كلّ واحد منهما ألف سوط وذلك أن بيني وبين ملوك السّغد عهدا، وشرطا أن أترك كلّ قوم على دينهم، وماهم عليه، فوثب هذان على بيت كان فيه أصنامهم يعني أهل اشروسنة، فأخرجا الأصنام، واتّخذاه مسجدا، فضربتهما على هذا ألف ألف لتعدّيهما، ومنعهما القوم من بيعتهم،وعليه فهو قد منع بناء مسجد، وأجاز الأصنام، فسجن الأفشين، وتوفيّ في سجنه 226هـ/841م و قيل: غضب المعتصم على الأفشين، وسجنه، وضيّق عليه، ومنع من أهل الطّعام، حتّى مات، أو خنق، ثمّ صلب إلى جانب بابك، وأُتِي بأصنام من داره، أتُّهم بعبادتها، فأُحرقت[23].

خاتمة: يتبيّن أنّ المعارضة الفارسيّة لم تكن وليدة مقتل أبي مسلم الخراساني تحديدا، لكنّها كانت متزامنة مع وقائع الثورة العباسيّة.

---

(1) الخُرّمية، منسوبة إلى بلدة **"خرّم"** الفارسية، وإلى كلمة "خرم"، وتعني، اللّذة، والسّرور، ومن أصحاب هذا المذهب "بابك الخرّمي" الزّعيم الدّيني الفارسي...أنظر، عبد القادر صالح: العقائد والأديان، ص 22 .

(2) المزدكية: أصحاب مزدك، ومزدك هو الذي ظهر في أيّام "قباذ" والد أنوشروان، ودعا قباذ إلى مذهبه، فأجابه، واطّلع أنوشروان على خزيه، وافترائه، فطلبه قباذ، فوجده، فقتله، وتقول المزدكية كقول كثير من المانوية في الكونين، والأصْلَين، إلاّ أنّ مزدك كان يقول: إنّ النّور يفعل بالقصد، والاختيار، والظلمة تفعل على الخبط، والاتّفاق، والنّور عالم حسّاس، والظلام جاهل، وأنّ المزاج كان على الاتّفاق، والخبط، لا بالقصد، ولا الاختيار، وكذلك الخلاص إنّما يقع بالاتّفاق دون الاختيار، وكان مزدك ينهي النّاس عن المخالفة، والمباغضة، والقتال، ولما كان ذلك إنّما يقع بسبب النّساء، والأموال أحلّ النّساء، وأباح الأموال، وجعل النّاس شركة فيهما ،كاشتراكهم في الماء، والنّار، والكلإ، وحكي عنه: أنّه أمر بقتل الأنفس؛ ليخلصها من الشرّ، ومزاج الظلمة، ومذهبه في الأصول، والأركان أنّها ثلاثة:الماء، والأرض، والنّار، ولما اختلطت حدث عنها مدبر الخير، ومدبر الشرّ، فما كان من صفوها، فهو مدبر الخير، وما كان من كدرها، فهو مدبر الشرّ، وروي عنه: أنّ معبوده قاعد على كرسيه في العالم الأعلى، على هيئة قعود "خسرو في العالم الأسفل، وبين يديه أربع قوى: قوّة التّمييز، والفهم، والحفظ، والسّرور. أنظر، الشّهرستاني: الملّل والنّحل، ج1، ص277 .

(3) الطبري: تاريخ الطبري، ج4، ص1554 ؛ المسعودي: مروج، ج3، ص 213 ؛ في سنة137هـ/755م "فيها استغوى سنباذ أهل الرّي ، فانتقضوا". أنظر، خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص416 .

(4) ابن الأثير: مصدر سابق، ج5، ص ص113 ،114؛ الطبري: تاريخ الطبري،ج4، ص1554 .

(5) الرّواندية، تنسب إلى أبي الحسين، أحمد بن يحي بن إسحاق الرّواندي، من أهل مرو، سكن بغداد، وكان من متكلّمي المعتزلة، ثمّ فارقهم ، وردّ عليهم، ثمّ مات 298هـ/911م .أنظر، عبد القادر صالح، العقائد والأديان، ص 56 .

(6) الطبري: تاريخ الطبري، ج4، ص 1555 .

(7) نفسه .

(8) ابن الأثير: مصدر سابق، ص ص 130،129؛ إبراهيم أيوب: مرجع سابق، ص 37.

(9) الطبري: تاريخ الطبري، ج4 ، ص1554 .

(10) ابن الأثير: مصدر سابق، ص150ومابعدها .

(11) التّناسخ، انتقال الأرواح من جسم لآخر، وأقدم من قال بالتّناسخ، الفيلسوف اليوناني العالم الرّياضي فيتاغورس، المولود في ساموس 570 ق.م / 500ق.م ، ... والقائلون بالتّناسخيّة يقولون:أنّ الإنسان إمّا أن يكون في فعل، وإمّا أن يكون في جزاء، وهو في حال إمّا في حالة عمل مكافأة عليه الآن، أو يقوم بعمل، وهو ينتظر المكافأة عليه، والجنة والنّار في هذه الأبدان، وأعلى درجات النّبوة، وأسفل السّافلين دركة الجنّة...وبعضهم قال: الدّرجة العليا، والمرتبة العظمى، هي مرتبة الملائكة، أمّا الذين يكونون في الدّرك الأسفل، أو الدّرك السّفلى، فهم الشياطين. أنظر، عبد القادر صالح، العقائد والأديان، ص98 .

(12) ابن الأثير: الكامل في التّاريخ، ج5، ص150ومابعدها .

(13) نفسه .

(14) ابن الجوزي(أبو الفرج، عبد الرحّمن بن علي بن محمّد ت597هـ): المنتظم في تاريخ الملوك والأمّم، دراسة وتحقيق: محمّد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، راجعه وصحّحه: نعيم زوزور، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، 1412هـ/1992م، ج11، ص ص52، 53 .

(15) الطبري: تاريخ الطبري، ج6، ص 1881ومابعدها .

(16) نفسه.

(17) الأفشين، من أولاد ملوك الأكاسرة، اسمه حيدر بن كاوس، وكان بطلا شجاعا مطاعا، ليس في الأمراء أكبر منه. أنظر، ابن عماد الحنبلي: شذرات، ج2، ص58 .

(18) الطبري: تاريخ الطبري، ج6، ص1881وما بعدها .

(19) نفسه .

(20) ابن الأثير: الكامل في التّاريخ، ص350ومابعدها؛ ابن الأثير: نفس المصدر، ج6، ص18ومابعدها .

(21) ابن الأثير: نفس المصدر، ص50 .

(22) نفسه.

(23) ابن عماد الحنبلي: شذرات، ج2، ص58 .

ثالثا:الحركات العلويّة:

ظلّ العلويون يطالبون بحقّهم في خلافة الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– في حكم الدّولة الإسلاميّة طيلة العهد الأموي، وأعدّوا جهاز دعوة سريّة لذلك، ولكنّ هذا الجهاز استفاد منه العباسيون في ظهور دولتهم؛ ولذلك استمرّ رفضهم للحكم العباسي طيلة عمر هذه الدّولة، فكيف كان ذلك؟.

حركة محمّد النّفس الزّكية، محمّد بن عبد الله بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب:

ينقسم المتشيعون لآل البيت إلى ثلاث فرق، الأولى: ترى أنّ إمّام المسلمين معيّن بالنّص، من ولد فاطمة بنت محمّد –صلّى الله عليه وسلّم–، وهؤلاء (إمّامية)، وكانوا يتولّون إلى وقت الخليفة المنصور، جعفر بن علي بن الحسين المعروف، ب"جعفر الصادق"[1]، والثّانية: ترى أنّ إمّام المسلمين يكون من بني فاطمة، إلاّ أنّه معيّن بالوصف، لا بالاسم، وهؤلاء إمّامية زيدية[2]، يرون الخروج مع كلّ من دعا إلى نفسه من بني فاطمة متى كانوا موصوفون بالصفات الواجب أن تكون في الإمّام، من العلم، والشّجاعة، والورع، وهم نصراء "زيد بن علي"، وابنه "يحي"، والثّالثة: ترى إمّامة أهل البيت من غير تقيّيد ببني فاطمة –ﷺ–، وهم الذين نصروا بني العباس، وكانت الفرقتان الأوليّتان منتشرتين في كثير من الأقاليم العربية، والأعجميّة[3].

وكانت الدّعوة العباسيّة قبل ظهور أمرها مبهمة؛ لأنّها كانت أقرب إلى الرّضا من آل البيت، ولما ظهرت الدّولة العباسيّة عدّهم العلويون مغتصبين للحكم، ومثلّهم كلٌّ من جعفر الصادق إمّام الإماميّة، لكنّه لم يتحرّك، بينما الرّجل الثّاني فهو، محمّد بن عبد الله بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب –ﷺ–، وكان محمّد يدعو لنفسه، ويتطلّع إلى الخلافة قبل وصول العباسيّين للحكم، فلم يبايع لأبي العباس السّفاح، ولا لأخيه من بعده، ولما حجّ أبوجعفر في عهد السّفاح حضره بالمدينة بنو هاشم جميعا، إلّا محمّد بن عبد الله، وأخاه إبراهيم، فسأل المنصور عنهما، فقال له "زياد بن عبد الله الحارثي" أمير المدينة: مايهمّك من أمرهما، أنا آتيك بهما، فضمّنه إيّاهما، وأبقاه عاملا على المدينة، ثمّ دعا أبو جعفر بني هاشم رجلا رجلا، فيسأله عن محمّد، فيقول: يا أمير المؤمنين، قد علم أنّك، قد عرفته يطلب هذا الشّأن قبل اليوم، فهو يخافك على نفسه، وهو لا يريد لك خلافا، ولا يحبّ لك معصية، فعزل أبوجعفر زياد، وولىّ مكانه "محمّد بن خالد بن عبد الله القسري"، فبحث عن محمّد بن عبد الله، ولم يعثر عليه، فعزله الخليفة أيضا، وولّى بعده "رباح بن عثمان المرّي"، فورد رباح عام 144هـ/761م، وجدّ في طلب محمّد بن عبد الله، حتّى أرهقه التّعب، ونال من الشّدائد على يديه ما لم ينله على أيدي أحد قبله[4].

وقد بالغ المنصور في إرهاق آل طالب، فأمر بهم، فأُخذوا كلّهم، وكانوا نحوا من ثلاثة عشر رجلا، وحبسهم في المدينة، وشدّد عليهم، ولما علم محمّد بذلك جاء إلى أمّه "هند"، وقال لها: "إنّي قد حمّلت أبي، وعمومتي ما لا طاقة لهم به، ولقد هممتُ أن أضع يدي في أيديهم، فعسى أن يخلّى عنهم"، فتنكّرت هند، وجاءت إلى السّجن كهيئة الرّسول، فأذن لها، فلمّا رآها عبد الله، أبو محمّد عرفها، فنهض إليها، فأخبرته بما قال لها محمّد: فقال: كلاّ؛ بل نصير، فوالله، إنّي لأرجو أن يفتح الله به خيرا، قولي له: فليدَعْ إليّ أمره، وليجدّ فيه، فإنّ فرجنا بيد الله، فشجّعت هذه الكلمات محمّد على الاختفاء، وكان محمّد يكره سفك الدّماء، وذو خلق حميد، حتّى سمّوْه "النّفس الزّكية"، وظلّ بنو حسن، وأتباع محمّد محبوسين في المدينة، حتّى قدم الخليفة أبوجعفر المنصور على الحجّ عام144هـ/761م، وكان قد حجّ قبل ذلك سنة140هـ/758م، واتّصل بعبد الله، أبي محمّد، وسأله عن ابنيه، فأنكر معرفته، وتيقّن المنصور من كذبه، فحبسه، وصادر أمواله[5].

ولما حجّ في المرّة الثّانيّة 144هـ/761م أمر بنقل المحبوسين إلى العراق، فحُملوا مكبلين بالأغلال، ومشى بهم على شرّ ما يكون واستعمل معهم المنصور من الفظائع ما لا تقوى النّفس على تسطيره، وكانت النّتيجة الطبيعيّة أن مات كثير منهم في الحبس، ولما رآى محمّد ما ينزل بأبيه، وأعمامه من البلاء عزم على الخروج والظهور، وكان محمّد النّفس يختفي بوسائل لا تخطر على بال؛ ولذلك بقي من 137هـ/755م إلى 145هـ/762م، دون أن يقبض عليه أحد، أو يعرفه سوى من معه، وظنّ محمّد أنّ الظروف مواتية لخروجه؛ لما رآى

من تضيّيق الخناق من العباسيّين عليه، وقيام المنصور بتعذيب أسرته؛ للضغط عليهم؛ لتسليمه مع أخيه، ووصول رسائل تأيّيد له من أمراء الأقاليم، وكبار قادة المنصور يحثّونه على الخروج، وكان من بينها رسائل تضليل فقط، وبإيعاز من الخليفة، واعتراف الكثير من النّاس بإمّامّته، خاصّة في الحجاز، وإلحاح أصحابه عليه بالخروج، وتأييّد والده له، وإفتاء الإمّام مالك بجواز بيعته، ونقض بيعة الخليفة، واعتقاده بقوّته بعد انضمام أتباع له[6].

وخرج محمّد في أوّل رجب 145هـ/762م، فبات هو وأصحابه بالمذاذ، ثمّ قدم في اللّيل إلى المدينة، وفتح السّجن، وأخذ ما ببيت المال، وكان السّجن في دار هشام بن رباح، وابن مسلم، فسجنا معا في دار ابن هشام، وكان مع محمّد 150رجلا، فتح بهم السّجن، واستولى على كلّ شيئ، وساعده في ذلك أهل المدينة، وخذلوا رباحا، وبعدها ذهب محمّد إلى المسجد، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال"أيّها النّاس، إنّه كان أمرنا، وأمر الطاغية عدو الله أبي جعفر، ما لم يخف عليكم من بنائه القبّة الخضراء الّتي بناها معاندا الله في ملكه، وتصغيرا للكعبة الحرام، وإنّما أخذ الله فرعون، حين قال: أنا ربّكم الأعلى، وأنّ أحقّ النّاس بالقيام بهذا الدّين أبناء المهاجرين الأوّلين، والأنصار المؤمنين، اللّهم، إنّهم أحّلوا حرامك، وحرّموا حلالك، وأمّنوا من أخفت، وأخافوا من أمّنت، اللّهم، فاحصهم عددا، وأقتلهم بددا، ولا تغادر منهم أحدا...أيّها النّاس، إنّي والله ما خرجت بين أظهركم، وأنتم عندي أهل قوّة، ولا شدّة، ولكن اخترتكم لنّفسي، والله ماجئت هذه، وفي الأرض مصر يُعبد الله فيه، إلاّ وقد أخذت لي فيه البيعة"[7].

ولما علم المنصور بخروج محمّد ،كان منشغلا ببناء بغداد، فسار إلى الكوفة؛ ليرعى أحوالها بنفسه؛ لأنّ أهلها شيعة لآل علي، ويخاف منهم أن يخرجوا لمساعدة محمّد النّفس الزّكيّة، فأقفل أبوابها حتّى لا يخرج منها أحدٌ، ولا يدخلها أحد، وكتب إلى محمّد النّفس الزّكيّة كتابا، بدأه بآيات من سورة المائدة 33،34، يطلب منه التّوبة مقابل تأمينه هو وأهله، وشيعته، ومنحه مايريد من الحاجات، وإطلاق سراح أهله المساجين، فردّ عليه محمّد بكتاب ضمّنه فاتحة بآيات من سورة القصص من 1إلى 6، يعرض فيه الأمان على المنصور، ممّا يثبت أنّه يساوي مكانته بالخليفة، ويعطيه الأمان، ويذكره أنّ بني العبّاس وصلوا إلى هذا الحكم بفضل جهود الشيعة، وأنّ عليّا كان الوصي من الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم–، مفتخرا بنسبه، وأصله، ويذكره بأنّ بني العباس من أمّهات الأولاد، حتّى قال في آخرها"فأنا ابن الأخيار، وابن خير الأشرار، وابن خير أهل الجنّة، وابن خير أهل النّار، ولك عهد الله إن دخلت بيعتي أن أؤمنّك على نفسك، وولدك وكلّ ما أصبته، إلاّ حدّا من حدود الله، أو حقّا لمسلم، أو مُعاهد، فقد علمت ما يلزمك من ذلك، فأنا أوفى للعهد منك، وأحرى لقبول الأمان، فأمّا أمانك الذي عرضت عليّ، فأيّ الأمانات هو؟، أأمان ابن هُبَيرة، أم أمان عمّك عبد الله بن علي، أم أمان أبي مسلم ؟ والسّلام"[8].

ردّ عليه الخليفة المنصور بكتاب، ردّ فيه عل كلّ ما ادّعاه محمّد في كتابه السّابق، مؤكّدا له أنّ افتخاره بالنّساء، والنّساء ليس كالأعمام، مذكرا إيّاه بأنّه لا ينبغي له الافتخار بمن هو في النّار، وأمّا ردّه على أمّهات الأولاد، مذكرا إيّاه بإبراهيم عليه السّلام، وزواجه من الجارية، والمهمّ أنّ عيوب هذه المكاتبات بينهما قد كشفت حدّة الشّقاق بين أبناء العمومة بني العباس، وبني علي، في وقت كانت الحاجة فيه إلى لمّ الشّمل، واختار الخليفة المنصور لقتاله "عيسى بن موسى"، الذي كان السّفاح قد وضعه وليّ عهده بعد أبي جعفر، فقال عيسى لأبي جعفر:شاور عمومتك، فقال: امض أيّها الرّجل، فوالله ما يُراد غيري وغيرك، وماهو إلاّ أن تشْخص، أو أشخص، وأوصى المنصور بوصيّته، فقال:يا عيسى، إنّي قد بعثتك إلى مابين هذين، وأشار إلى جنبيه، فإن ظفرت بالرّجل، فشُمّ سيفك، وإن تغيب، فضمّنهم إيّاه، حتّى يأتوك به، فإنّهم يعرفون مذاهبه"[9].

وجهّز الخليفة المنصور جيشا قويّا، فلمّا وصل إلى "فيد" أرسل إلى رجال أهل المدينة في رسائل، عبارة عن خرق من الحرير، فلمّا وردت كتبه المدينة تفرّق النّاس عن محمّد النّفس الزّكيّة، وخرج بعضهم إلى جيش عيسى، ومنهم ناس من آل علي، ولما شعر محمّد بقروب الجيش خندق حول المدينة، أمّا موسى، فجاء بجنده حتّى جاء المدينة، وهناك أرسل فصيلة من جنوده تحرس طريق مكّة، حتّى إذا أراد محمّد الهروب إليها لم يجد طريقا، وكان نزول عيسى على المدينة في12رمضان 145هـ/762م، وقبل اللّقاء قدّم دعوة إلى محمّد؛

للخضوع، فلم يجبه، ثمّ دارت المعركة بين الفريقين، فقتل محمّد، وظهرت الأعلام السّوداء على مرتفعات المدينة، وعلى منارة المسجد النّبوي، فسلّم المحاربون، وكان قتل محمّد 14رمضان، وأرسل عيسى بن موسى إلى عمّه أبي جعفر بشارة الفتح، ورأس محمّد، وأمّن المدينة وأهلها، وفي19رمضان استولى على أموال بني الحسن كلّها، واتّجه إلى مكّة بعد أن أقام في المدينة شهرين وسبعة عشر يوما[10].

خروج إبراهيم بن عبد الله:

إبراهيم بن عبد الله هو، أخ محمّد النّفس الزكيّة، دخل البصرة، ودعا النّاس سرا لبيعة أخيه محمّد، وبايعه أربعة آلاف، ثمّ تحوّل إلى وسط المدينة، وظلّ بها حتّى أتاه كتاب أخيه يدعوه بالخروج، ويخبره بأنّه ظهر، فبعث إلى أهل الأهواز، فبايعوه، وبعث إلى أهل فارس فأذعنت، وأطاعوا، واستفحل أمرُ إبراهيم، ولكنّه انكسر بعد قتل أخيه، وخرج فصلّى بالنّاس صلاة العيد، وقد ظهر عليه الانكسار، ونعى أخاه محمّدا إلى النّاس، فازداد النّاس حقدا على الخليفة أبي جعفر، ثمّ المنصور كتب إلى عيسى بن موسى يستعجله في القدوم عليه، ولما ذهب إليه قال له:"اذهب إلى إبراهيم بالبصرة، ولا يهولنّك كثرة من معه، فإنّهما جملا بني هاشم المقتولان جميعا، فابسط يدك، وثِق بما عندك، وستذْكُر ما أقول لك"[11].

لزم المنصور مصلاه ليلا ونهارا، وأقبل إبراهيم في عسكره من البصرة إلى الكوفة في مائة ألف مقاتل، وأرسل إليه المنصور عيسى بن موسى في خمسة عشر ألفا، وعلى المقدمة "حمُيد بن قحطبة" في ثلاثة آلاف، وأقبل الجيشان، فتصافوا على مقربة من الكوفة، ودارت المعركة انهزم حميد، ومن معه، وثبت عيسى بن موسى في موقفه، ومعه مائة رجل من أهل بيته، وعلق المنهزمون بنهر بين جبلين، ولم يمكنهم خوضه، فرجعوا إلى الميدان، وقاتلوا جيش إبراهيم، فانهزم أصحاب إبراهيم، وثبت هو في خمسمائة، واستظهر عيسى بن موسى، وقُتل إبراهيم، ونُقل رأسه إلى الخليفة أبي جعفر المنصور، وكانت وفاة إبراهيم قبل خمس بقين من ذي الحجّة 145هـ/762م، ولما جيئ برأس إبراهيم، جلس الخليفة المنصور مجلسا عامّا، ودخل عليه النّاس مهنئين، ومقبحين في إبراهيم؛ لينالوا الرّضا من الخليفة المنصور[12].

ثورة الحسين بن علي169هـ/786م:

خرج بالمدينة الحسين في عهد الخليفة موسى الهادي، وهو الحسين بن علي بن الحسن، في عهد والي المدينة "عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب"، وسبب خروجه أنّ والي المدينة أخذ الحسين بن محمّد النّفس الزّكيّة، وجماعة كانوا على شراب، فأمر بحبسهم، فضُربوا جميعا، ثمّ أمر بهم، فجعل في أعناقهم حبال، وطِيف بهم في المدينة، فذهب إليه الحسين بن علي، فكلّمه، وقال له: "ليس هذا عليهم، وقد ضربتهم، ولم يكن لك أن تضربهم؛ لأنّ أهل العراق لا يرؤن به بأسا، فلِمَ تطوف بهم؟[13]"، فبعث إليهم، وقد بلغوا البلاط، فردّهم، وأمر بهم إلى الحسين، فحُبسوا يوما وليلة، فلمّا كلمّه فيهم الحسين بن علي، أطلقهم جميعهم[14].

وكانوا يعرضون، ففقد الحسن بن محمّد وكان في كفالة كلّ من الحسين بن علي ويحي بن عبد الله بن الحسن، فسألهما والي المدينة عنه، فحلفا أنّهما لا يدريان موضعه، فكلّمهما بكلام أغلظ فيه لهما، فحلف يحي بن عبيد الله لعمر بن عبد العزيز خوفا، ورهبة ألاّ ينام حتى يأتيه به، أو يضرب عليه باب داره، حتّى يعلم أنّه قد جاءه، فلمّا خرجا قال للحسين: سبحان الله مادعاك إلى هذا؟، وأين تجد حسنا؟ حلفت له بشيئ لا تقدر عليه، قال: والله لا نمت، حتّى أضرب عليه باب داره بالسّيف، فقال حسين: تكسر بهذا ما كان بيننا وبين أصحابنا من الصلة، قال: قد كان الذي كان، فلا بدّ منه[15].

وكانوا قد تواعدوا على أن يخرجوا بمنى، أو بمكة أيّام الموسم، وكان بالمدينة جماعة من أهل الكوفة من شيعتهم، وممّن بايع الحسين بن علي، ففي آخر اللّيل خرجوا، وجاء يحي بن عبد الله، حتّى ضرب باب مروان على العمري، فلم يجده، وتوارى منهم، وعليه عمامة بيضاء، وجعل النّاس يأتون المسجد، فإذا رأوهم رجعوا لا يصلون، فلمّا صلّى الغداة جعل النّاس يأتونه، ويبايعونه على كتاب الله، وسنّة نبيه للمرتضى من آل محمّد، وقاومهم جماعة من نصراء الدّولة، فلم يفلحوا، ولما تمّ للحسين بن علي ما أراد انتهب جماعته ما في بيت المال[16].

أقام الحسين بالمدينة بعد إعلان الخروج أحد عشر يوما، ثمّ فارقها لستّ بقين من ذي القعدة قاصدا مكة، وانتهى خبر الحسين إلى الهادي، وقد كان حجّ في تلك السنّة رجال من أهل بيته منهم، محمّد بن سليمان بن علي، والعباس بن محمّد، وموسى بن عيسى، سوى

من حجّ في الأحداث، وكان على الموسم سليمان بن أبي جعفر المنصور، فأمر الهادي بالكتاب بتولية محمّد بن سليمان على الحرب، وقد لقيّهم الكتاب، وقد انصرفوا عن الحجّ، وكان محمّد بن سليمان قد خرج في عدّة من السّلاح، فشمّر، وسار نحو الحسين بن علي، فلقيّه بفخّ، وكانت عاقبة الوقعة أن قتل الحسين بن علي الثّائر، وجماعة من معه، وأفلت من الموقعة رجلان هما: إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي أخو محمّد النّفس الزّكيّة، وهو مؤسّس دولة الأدراسة بالمغرب الأقصى، والثّاني أخوه "يحي بن عبد الله" ذهب إلى الدّيلم[17].

يذكر المؤرخون أنّ إدريس بن عبد الله أتى مصر، وعلى بريدها واضح مولى صالح بن المنصور، وكان شيعيّا لعلي، فحمله على البريد إلى أرض المغرب، فوقع بأرض طنجة بمدينة مليلية، فاستجاب له البربر، وقد بلغ الهادي خبر تهريب إدريس عن طريق واضح مولى صالح، فضرب عنقه، أمّا المسعودي، فيقول: فقتل الحسين، وأكثر من كان معه، وأقاموا ثلاثة أيّام، لم يواروا حتّى أكلتهم السّباع، والطّير، وسخط الخليفة الهادي على موسى بن عيسى لقتل الحسين، وترك المصير به إليه، ليحكم فيه بما يرى، وأظهر الذين أتوا برأس الحسين، الاستبشار والفرح، فبكى الخليفة الهادي، وزجرهم قائلا:" كأنّكم أتيتموني برأس رجل من التّرك، والدّيلم، إنّه رجل من عترة رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–، ألا إنّ أقلّ جزاءكم عندي، ألاّ أثيبكم شيئا"[18].

الخلافة العباسيّة، والخوارج:

الخوارج فرقة سياسيّة دينيّة، ثمّ صارت سياسيّة إجتماعيّة، وكانوا يثورون لمشكلة الحكم، فصار العدل الاجتماعي، ورفض الظلم والدّفاع عن الضعفاء من عقائدهم المحركة، وكانوا يتمركزون في العصر الأموي مابين الجزيرة والعراق، حتّى الأهواز، وفارس، ثمّ تحوّلوا منذ أواخره إلى أقاليم أكثر بعدا عن المركز إلى "أذربيجان"، و"سجستان"، و"خراسان"، و"كرمان"، و"عُمان"، و"اليمن"، و"إفريقيّة"، وكان الخليفة أبوجعفر قد تواجه مع الخوارج من قبل خلافته، منذ أن كان واليّا على الجزيرة، وفي ولايته للعهد، والجزء الأكبر في خلافته، وتصدّى لحركات الخوارج في المناطق المذكورة، رغم بعدها عن مركز الخلافة العباسيّة، فما هي أهمّ مميزات خروجهم؟.

في الجزيرة: وجّه أبوجعفر منذ ولايته للجزيرة جيشا؛ لمحاربة الخوارج فيها، وكان قائدهم "بريكة بن حميد الشّيباني"، مع قبائل ربيعة، وكان معهم بعض أمراء الأمويّين مثل، ""محمّد بن سعيد بن عبد العزيز"، وامتدّت ثورتهم بين "ماردين"، و"دارا"، فوجّه إليهم مقاتلا العكّي، فهزم بريكة، ودحره، وحاصره، حتّى لقيّ مصرعه، وفي عهد خلافة المنصور قامت الثّورة أيضا بالجزيرة، بقيادة "الملّبد بن حرملة الشّيباني" الّذي فرض نفوذه مابين "أذربيجان"، و"أرمينيّة" إلى "تكريت"، واحتلّ "الموصل"، وقتل الحاميات العباسيّة هناك، ولم يستطع قائد المنصور هناك "يزيد بن حاتم المهلبي" أن يمثل دور عمّه "المهلب بن أبي صُفرة"، فانهزم ومعه قوّاد آخرين، حتّى وصل "خازم" في ثمانيّة آلاف جندي، ولحق بثائر الخوارج، وقتل "ملّبد"[19].

في أذربيجان: ثار "مسافر بن كثير الشّيباني" في أذربيجان، وأرمينية، ويُعرف ب"مسافر القصّاب"، وكان "الضحّاك بن قيس"، قد عيّنه عاملا على هذين الإقليمين قبل أن يقتل 128هـ/746م، وتبعه هناك جماعة، واستولى على مواقع كثيرة، فتولّى أبو جعفر في ولايته للجزيرة وأرمينيّة أمْر قتاله، وأرسل إليه بأمر أبي العباس السّفاح القائد "محمّد بن صول" الّذي تمكّن من هزمه، وقتله، وفرّ أتباعه إلى مناطق سجستان[20].

في عُمّان: تحرّك فيها الإباضيّة[21]، وعلى رأسهم "الجلندي بن مسعود الأزْدي" الّذي أعطي الإمامة، وأعلن استقلال منطقته في عاصمته "نزوة"، كما تحرّك الخوارج الصُفريّة[22] بزعامة "شيبان بن عبد العزيز اليشكري" في جزيرة "ابن كاوان" في الخليج الّذي أعلن أصحابه اختياره للإمّامة أيضا، فأرسل السّفاح أحسن قوّاده "خازم بن خُزيمة التّميمي"135هـ/753م في جيش، حمله البحر إلى تلك الجزيرة، ولكنّ شيبان انهزم أمّامه، وركب البحر مع أصحابه، هاربين إلى ساحل "عُمّان"، لكنّ "الجلندي" تلّقاهم هناك بالعداء، ونصب لهم كمينا فيما يظهر، فانتهى الأمر بعد القتال الشّديد بمصرع شيبان، وأصحابه، ووصل خازم بعد ذلك، فنزل السّاحل عن بقعة صحراوية منه، فخرج لهم الجلندي على شاطئ البحر، ورفض إعلان الولاّء للعباسيّين، وقاتلهم ثلاثة أيّام، حتّى أشار أصحاب خازم عليه بجعل المشاقة على أطراف

الأسنّة، ويرووها بالنّفط، ويشعلوا فيها النّار؛ ليضرموا بها بيوت الخوارج الخشبيّة، فلمّا اشتغل الجلندي وأصحابه بعيالهم، وبالحريق، تمكّن خازم من وضع السّيف فيهم، فقتل عشرة آلاف منهم[23].

في أرمينيا:تحرّكت فيها الخوارج الصفريّة، فوجّه المنصور قائده "الحسن بن قُحطبة" عاملا عليها، واضطّر الحسن أمّام قوة الخوارج؛ لطلب المدد من الخليفة، وانتهي بأن انتصر عليهم بعد أن قتل في يوم واحد ستّة عشر ألف، ثمّ انصرف إلى "تفليس"، فقتل من كان معه من الأسرى، وفي **الموصل**:كانت ثورات الخوارج فيها بأعداد قليلة، مائة، أو مائتين مثل، ثورة "عطيّة بن بعثر التّغلبي"، "حسّان بن مجاهد الوادعي"148هـ/765م، ولكنّها كانت ثورات ذات طابع بدوي، تجتمع حول قائد ناقم، وفي **اليمن**، ثار الخوارج على الخليفة أبي جعفر140هـ/758م، وكانوا من بقية ما ترك "أبوحمزة الخارجي" من قبل، وسلّط عليهم الخليفة المنصور في141هـ/759م القائد "مُعَن بن زائدة الشّيباني"، وهو من ربيعة، مع تعليمات بأخذ النّاس بالشدّة، فبقي هناك سنوات، قتل فيها الكثير، وحين عيّن المنصور على البحرين واليمامة "عقبة بن مسلم الأزدي اليماني" أوقع المجازر الرّهيبة بقبائل ربيعة فيها ثأرا لليمانيّين[24].

في سِجِسْتان:تحرّك الخوارج في نهاية عهد المنصور في إيران الجنوبيّة في" كِرْمان"، وفارس، و"سجستان"، وكسبت حركاتهم عطف الموالي الإيرانيّين، وكانت أخطرها الّتي كانت في سجستان التي كانت مناطقها الغربيّة تدين بالزّرادشتيّة[25]، أمّا في الشرق، ف"بوذية"، ولها معبدها وفيها أصناما من ذهب، واستطاعت العناصر الهاربة من الهزيمة في العراق، والجزيرة، وأهل الشّام أن تجد في هذه البلاد مهربا، وشكّلوا بؤرة نشطت، ويقال: أنّ مذهب الخوارج وصلهم من طرف واحد عربي، من بني تميم، هو "عاصم"، أو "ابن عاصم"، وكان أهلها يتعاونون مع الخوارج العرب، كردّ فعل على الظلم من كثرة الخراج، والتّعسّف في جمعه، ورفضوا دفع الخراج للدّولة العباسيّة، ولم يدفعوا لأبي مسلم، الذي كان واليا على خراسان، رغم أنّه أرسل إليهم من يجمعه، ولم يدفع أمير سجستان ذلك لأبي جعفر[26].

وبعد استقرار وضع المنصور بعد145هـ/762م وجّه لسجستان "إبراهيم بن حميد المروزي" الذي طلب النّاس بالخراج، فانفجرت ثورة الخوارج في 150هـ/767م، ولم يستطع المهدي القضاء عليها، وطلب النّجدة من الخليفة المنصور، فاستدعى الخليفة المنصور مُعَنْ بن زائدة الشّيباني الّذي عامل النّاس هناك بطريقة الحجّاج على مدى تسع سنوات، فأقام معن عليها عمّالا، يجبون الخراج151هـ/768م، واستطاع خوارج سجستان قتْل مُعَن، فخرج بعد ذلك في سجستان خارجي آخر هو "عامر الشّيباني"، ثار مع ألف من أتباعه، ثمّ قتل بعد مضي سنة من خروجه[27].

حركة الزّط على طريق البصرة:كانت من الحركات الصعبة التي واجهت الخليفة المعتصم، وأزعجته، فقد تمكّن هؤلاء من السّيطرة على طريق البصرة، وهدّدوا مرافق الدّولة، وفرضوا المكوس على السّفن، وحالوا دون وصول الإمدادات إلى بغداد، فوجّه إليهم القائد "عجيف بن عنبسة"في 219هـ/834م؛ لصدّهم في البطيحة، وشدّد عليهم، حتّى طلبوا الأمان، فنفاهم الخليفة إلى منطقة "عين زربة"، وكان رئيس الزّط[28] رجلا، يقال له: "محمّد بن عثمان"، وكان صاحب أمره شخصا، يقال له: "سماق"[29]، وفي 220هـ/835م دخل "عجيف" بالزّط بغداد، بعد أن ضيّق عليهم، وقاتلهم، وطلبوا منه الأمان، فأمنّهم، فخرجوا إليه في ذي الحجّة سنة219هـ/834م، وكانت عدّتهم مع النّساء، والصبيان سبعة وعشرين ألفا، والمقاتلة منهم إثنا عشر ألفا، فلمّا خرجوا إليه جعلهم في السّفن، وعبّأهم في سفنهم على هيئتهم في الحرب، حتّى دخل بهم بغداد يوم عاشوراء[30].

وذهب اليعقوبي بالقول إلى أنّ الزط وثبوا بالبطائح بين البصرة وواسط، فقطعوا الطرق، فوجّه إليهم المعتصم أحمد بن سعيد بن قتيبة الباهلي، فهزموه، فعقد المعتصم لعجيف في جمادى الأولى 219هـ/834م، فطلبوا الأمان، وخرجوا برًّا إليه على حكم المعتصم، فأدخلهم بغداد، فأجاز المعتصم الأمان، وأسكنهم خانقين [31].

يتبيّن أنّ مطالب العلويّين في حقّهم بحكم الدّولة الإسلاميّة غير حقيقيّة، ولا سند لها؛ ولذلك ساد تنظيماتها الفوضى، والتّفرقة وهو ما مكّن العباسيّين من القضاء عليها، وكذا معارضة الخوارج، حاولت القضاء على الحكم العباسي دون نجاح، وإن لم تنجح في المشرق في تأسيس دول، فإنّها قد نجحت في بلاد المغرب، وأنّ الخلافة العباسيّة ستبقى هذه الحركات قائمة ضدّها مع من يشتبه بها.

(1) جعفر الصادق، أبو عبد الله، جعفر الصادق بن محمّد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أحد الأئمّة الإثني عشر، على مذهب الإماميّة، ولُقبّ بالصادق؛ لصدقه في مقالته، ولد سنة80هـ/699م، وتوفيّ سنة148هـ/765م بالمدينة. أنظر، ابن خلّكان، وفيات الأعيان، ج1 ، ص327 ؛ أنظر، المزيد عن فرقة الباقرية والجعفرية الواقفة، الشهرستاني: الملّل والنّحل، ج1 ، ص ص183 ، 184 .

(2) الزّيدية، نسبة إلى زيد بن علي زين العابدين بن الحسين ت122هـ/740م، إمّام الشّيعة الزّيديّة، يعدّ مذهبا خامسا إلى جانب المذاهب الأربعة، كان يسمّى، حليف القرآن، وله أقدم كتاب فقهي يسمّى: المجموع، والزّيدية هم الّذين جعلوا الإمامة بعد علي زين العابدين إلى ابنه زيد، مؤسّس هذا المذهب، و بويع له بالكوفة أيّام الخليفة هشام بن عبد الملك105هـ/125هـ -724م/743م ، فقاتله يوسف بن عمر، حتّى قتل، وكان زيد يُفضل علي بن أبي طالب على جميع الصحابة، ويتولّ أبوبكر، وعمر، ويرى الخروج على أئمّة الجوْر، و أنكر على من طعن على أبي بكر، وعمر – رضي الله عنهما- من أتباعه، فتفرّق عنه الّذين بايعوه، فقال لهم: رفضتموني على أبي بكر، وعمر، فسُمُّوا الرّافضة، ثمّ خرج ابنه يحي بعده بأيّام في عهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك125هـ/126هـ -743م/744م، فقُتل أيضا، ومن أهمّ المؤلّفات المطبوعة حاليا في هذا المذهب: كتاب بحر الزّخّار الجامع لمذاهب علماء الأمصار للإمّام يحي بن المرتضى ت840هـ/1088م، في أربعة أجزاء، وهو جامع لآراء الفقهاء، واختلافاتهم، ومثل هذا الفقه إلى فقه أهل العراق مهد التّشيع، والأئمّة، ولا يختلف عن فقه أهل السّنّة، ويفترقون في مسائل معروفة منها، عدم المسح على الخفّين، وتحريم ذبيحة غير المسلم، وتحريم الزّواج بالكتابيات، وخالفوا الشّيعة الإماميّة في إباحة زواج المتعة، فلا يبيحونه، ويزيدون في الآذان "حيّ على خير العمل"، ويكبرون خمس تكبيرات في الجنازة، وكان مذهب دولة اليمن منذ288هـ/901م، ومذهبهم في العقيدة هو مذهب المعتزلة، وهم يعتمدون في استنبباط الأحكام على القرآن والحديث، والإجتهاد بالرّأي، والأخذ بالقياس، والاستحسان، والمصالح المرسلة، والاستصحاب، والزّيديّة منسوبة لزيد؛ لقولهم بإمامته، وإن لم يكونوا على مذهبه في الفروع الفقهيّة، بخلاف الحنفيّة، والشّافعيّة مثلا: فهم يتابعون الإمّام في الفروع. أنظر، وهبة الزّحيلي: الفقه الإسلامي وأدّلته 'الشّامل للأدلّة الشّرعيّة، والآراء المذهبيّة، وأهمّ النّظريات الفقهيّة، تحقيق الأحاديث النّبويّة وتخريجها وفهرسة ألفبائيّة للموضوعات وأهمّ المسائل الفقهيّة، دار الفكر، الطّبعة الثّانيّة1405هـ-1958م، دمشق، سوريا، ص45ومابعدها.

(3) النّشار(علي سامي): نشأة التّفكير الفلسفي في الإسلام-نشأة التّشيع وتطوره-، ج2، ص73 وما بعدها.

(4) الطبري: تاريخ الطبري، ج4 ، ص 1576وما بعدها.

(5) نفسه .

(6) نفسه .

(7) نفسه

(8) نفسه

(9) نفسه

(10) نفسه

(11) الطبري: نفس المصدر، ج 4، ص1644 .

(12) ابن الأثير: الكامل في التّاريخ، ج5، ص 137ومابعدها؛ إبراهيم أيوب: مرجع سابق، ص38ومابعدها.

(13) أنظر لمزيد من الفهم، ابن حجر العسقلاني(الإمّام الحافظ أحمد بن علي 773هـ/856هـ):فتح الباري في شرح صحيح البخاري- طبعة مزيدة بفهرس أبجدي بأسماء كتب صحيح البخاري- قرأ أصله تصحيحا وتحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، كما رقّم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمّد فؤاد عبد الباقي وقام باخراجه وصحّحه وأشرف على طبعه: محبّ الدّين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، م12، كتاب الحدود، ج12 .

(14) الطبري: تاريخ الطبري، ج5، ص1689وما بعدها .

(15) نفسه .

(16) نفسه .

(17) نفسه .

(18) ابن الأثير: مصدر سابق، ج5، ص265ومابعدها .

(19) الطبري: تاريخ الطبري، ج4 ، ص1554 .

(20) نفسه .

(21) الإباضية: أصحاب عبد الله بن إباض الذي خرج في أيّام الخليفة "مروان بن محمّد"، فوجّه إليه "عبد الله بن محمّد بن عطية"، فقاتله ب"ثبالة"، وقيل:إنّ عبد الله بن يحي الإباضي كان رفيقا له في جميع أحواله، وأقواله، قال:إنّ مخالفينا من أهل القبلة كفار، غير مشركين، ومناكحتهم جائزة، وموارثتهم حلال، وغنيمة أموالهم من السّلاح، والكراع عند الحرب حلال، وما سواه حرام، وحرام قتلهم، وسبيهم في السرّ غيلة، إلاّ بعد نصب القتال، وإقامة الحجّة، وقالوا:إنّ مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد، إلاّ معسكر السّلطان، فإنّه دار بغي، وأجازوا مخالفيهم على أوليائهم، وقالوا في مرتكبي الكبائر: إنّهم موحدون، لا مؤمنون...ثمّ اختلفوا في النّفاق أيُسمّى شركا، أم لا؟، قالوا:

إنّ المنافقين في عهد رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– كانوا موحدين، إلاّ أنّهم ارتكبوا الكبائر، فكفروا بالكبيرة، لا بالشرك ...أنظر، الشّهرستاني: الملّل والنّحل، ج1 ، ص ص150 ، 150 .

(22) الصُفرية: أصحاب "زياد بن الأصفر"، خالفوا الأزارقة، والنّجدات، والإباضيّة في أمور منها: إنّهم لم يكفروا القعدة عن القتال، إذا كانوا موافقين في الدّين، والاعتقاد، ولم يسقطوا الرّجم، ولم يحكموا بقتل أطفال المشركين، وتكفيرهم، وتخليدهم في النّار، وقالوا: التّقيّة جائزة في القول دون العمل، وقالوا: ما كان من الأعمال عليه حدّ واقع، فلا يتعدّى بأهله الاسم الذي لزمه مشركا، وما كان من الكبائر ممّا ليس فيه حدّ؛ لعظم قدره، ترك الصلاة، والفرّار من الزّحف، فإنّه يكفر بذلك ...إلخ. أنظر، الشّهرستاني: الملّل والنّحل، ج1 ، ص 153 .

(23) الطبري: تاريخ الطبري، ج4 ، ص1541 .

(24) نفسه .

(25) الزّرادشتيّة: أصحاب زرادشت بن يورشب الذي ظهر أيّام كشتاسب بن الهراسب الملك، وأبوه كان من أذربيجان، وأمّه من الرّي، واسمها "دغدويه"...زعموا أنّ لهم أنبياء، وملوكا أوّلهم "كيومرت"، وكان أوّل من ملك الأرض، وكان مقامه ب"اصطخر"، وبعده "أوشنهك بن فارك"، ونزل أرض الهند، وكانت له دعوة ثمّة، وبعده "طمورث"، وظهرت الصابئة في أوّل سنة من ملكه، وبعده أخيه "جم" ...حتّى انتهى الملك إلى كشتاسب بن لهراسب، وظهر في زمنه زرادشت الحكيم...قال: النّور والظلمة أصلان متضادان، وكذلك "يزدان"، و"أهرمن"، وهما مبدأ موجودات العالم، وحصلت التراكيب من امتزاجهما...وله كتابا صنّفه، وقيل: إنّ ذلك أنزل عليه، وهو"زند أوستا"، يقسم العالم إلى قسمين: مينة، وكيتي، ويعني: الرّوحاني، والجسماني، أو الرّوح، والشخص...إلخ. أنظر، الشّهرستاني: الملّل والنّحل، ج1، ص263 وما بعدها .

(26) الطبري: تاريخ الطبري، ج4، ص1620وما بعدها.

(27) نفسه .

(28) الزّط، قوم من الهند، استقرّوا على شواطئ الخليج الفارسي، نُقلوا إلى فارس زمن بهرام جور، المتوفى عام439م، اعتنقوا الإسلام، أنزلهم "أبو موسى الأشعري" البصرة، فاندمجوا ببني حنظلة "تميم"، أقاموا معهم يقاتلون المشركين، خرجوا مع ابن عامر إلى خراسان، لم يشهدوا الجمل، وصفين، وبعد ثورة ابن الأشعث هدّد الحجّاج دورهم، وأجلى بعضهم، ونقل خلقا من زط السّند، أسكنهم بأسافل"كسكر" في أنطاكية والمصيصة. أنظر، البلاذري:فتوح البلدان، مراجعة وتعليق: رضوان محمّد رضوان، مطبعة السّعادة، مصر1959م، ص362 ومابعدها.

(29) ابن الأثير: الكامل في التّاريخ، ج6، ص16.

(30) ابن الأثير: نفس المصدر، ص18؛ إبراهيم أيوب: مرجع سابق، ص84 .

(31) اليعقوبي(أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب السّياسي): تاريخ اليعقوبي، تحقيق: عبد الأمي مهنا، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط1 ،1431هـ/2010م ، ج2، ص431 .

رابعا: **حركات معارضة متأخرة**:

عاشت في أرجاء الدّولة العباسيّة تركيبات مختلفة من حيث الأصول، ومن أشهرها "الزّنج" الّذين عرفوا بثورتهم في العصر العباسي الثّاني ضدّ الخلافة العباسيّة، والتي تزامنت مع حركة أخرى للقرامطة، فما أصول هذه الحركات، وما خلفياتها؟.

ثورة الزّنج:

قامت على أكتاف العرب، وفئات مختلفة، ومنهم الزّنج[1] وأهل القرى والعرب الضعفاء، وعشائر عربية ثائرة على السّلطة العباسيّة، اهتمّ بها الموفق طلحة أخ الخليفة المعتمد على الله256هـ/279هـ -870م/893م، وفي عهده دخلت الزّنج البصرة وأعمالها، وأخربوها، واستمرّ القتال مع الزّنج من حين تولّي المعتمد256هـ إلى270هـ – 870م- 844م، قتل فيها رأس الزّنج، واسمه "يهبوذ"، وكان ادّعى أنّه أرسل إلى الخلق، فردّ الرسالة، وأنّه مطّلع على المغيبات، وذُكر أنّه كان ينادى على المرأة العلوية في عسكره بدرهمين وثلاثة، وكان عند الواحد من الزّنج العشر من العلويات يطؤهنّ، ويستخدمهنّ[2].

قادها "علي بن محمّد الفارسي" الذي اتّصف بالطموح والموهبة والبعد عن الزّهد؛ بحكم مشاركته في السّلب والنّهب، وبدأ حياته شاعرا في بلاط الخليفة بسّامراء، ثمّ حاول القيام بحركة إنقلابيّة ضدّ النّظام في البحرين؛ للوصول إلى الحكم، وفشل، فسلك نهجا مغايرا؛ ليظهر كمتنبئ ديني، وقائد ديني، فادّعى نسبا علويا، وقال: أنّه علي بن محمّد بن الفضل بن حسن بن عبيد الله بن العباس بن علي بن أبي طالب، محاولا بذلك جذب عطف النّاس معه، ورفض مذهبه هذا أهل البحرين، وتنّكروا له، فغادرها إلى البادية؛ ليستقطب الأعراب حوله، فادّعى نسبا علويا آخر له، وهو "يحي بن عمر، أبو الحسين"، فالتفّ حوله الأعراب، واستغلّهم في إعادة السّيطرة على البحرين، إلاّ أنّه هزم في موقعة الرّوم، وفرّ إلى البّصرة، وفيها حاول فعل شيئ، لكنّه فشل، وطُرد، فذهب إلى بغداد، وفيها ادّعى نسبا علويّا آخر "يحي بن عيسى بن زيد"، محاولا الوصول إلى السّلطة[3].

الأتراك كانوا أقوياء يحكمون قبضتهم على كلّ شيئ، فعاد إلى البصرة في 255هـ/869م وهو تاريخ بدء هذه الحركة الثّوريّة، والتي ادّعى من خلالها أنّ الله اختاره؛ لتحرير العبيد، وإنقاذهم، ممّا كانوا يعانونه من بؤس ،كما ادّعى العلم بالغيب، وانتحل النّبوة، أنّه المهدي المنتظر؛ ليستقطب العلويّين حوله، مركزا على عراقة أصله، وسمّى نفسه "علي بن محمّد" المنقذ، وقد جهر علي بن محمّد في إحدى مراحل حياته بمذهب الخوارج، فحارب رافعا شعار المطالبة بالعدالة الاجتماعيّة والمساواة، وكتب على لوائه الآية 11من التّوبة وهي المفضلة عند الخوارج، ونقشها على نقوده، وكتبها على لوائه[4].

كتب شعاراته على الرّايات باللّونين الأخضر والأحمر، فالأخضر لون العلويّين، والأحمر لون الخوارج، وتعارض رأيه مع الشّيعة عن الخلافة والتي يؤكدون فيها على الوراثة، وتبنّى محمّد بن علي رأي الخوارج القائم على الشورى، فنفر منه الأعراب البسطاء كعرب البصرة والأهواز، وواسط، وما حولها، كما رفض "قرمط" أن يرتبط معه بعوامل دينيّة، وقسى على أعدائه، حتّى وُصف بالخارجي المتطّرف، وعامل الأسرى معاملة الرّقيق، وفي هذا الوقت كانت الخلافة في حرب مع "يعقوب بن اللّيث الصفار"، فاستطاع أن يدّمر، ويتوسّع، ويسيطر خلال عشر سنوات منذ 255هـ/869م إلى 265هـ/879م على مابين الأهواز، وواسط، وأصبحت بغداد مهدّدة، فشعر الخليفة المعتمد بخطورتها، فعهد إلى أخيه أبي أحمد الموفق طلحة بالخروج لقتال الزّنج، فتولّى الموفق قيادة القتال بنفسه والسّلاح، فحاصرهم إقتصاديا، وقطع التّموين عنهم الّذي كان يقدمه الأعراب لهم، وأحرق غلالهم، ومؤونتهم، فأصابهم الجوع، فاستسلموا، وفي قتال عسكري استطاع الموفق إجلاءهم عن الأهواز، واندفع نحو مدينتهم وعاصمتهم "المختارة"، ففتحها بالقوة، ولم يهدأ الموفق، حتّى هزمهم وقتل علي بن محمّد، واستسلم ما بقي من جيشه، وتمّ إخماد الثّورة 270هـ/884م[5].

حركات علوية متأخرة:

نشأت عن المذهب الإسماعيلي[6] قوتان هما: الحركة القرمطيّة، والأخرى هي الدّولة العبيديّة الفاطميّة التي انطلقت من سُلَميّة في بلاد المغرب، وظهرت الحركة القرمطيّة في النّصف الثّاني من القرن الثّالث الهجري، وهي استمرار للدّعوة الإسماعيليّة، رغم أنّ الإسماعيليّين

ينظرون للقرامطة على أنّهم فئة متمردة عليهم، وانشقّت عنهم، وبدأت نحلة القرامطة تشيع في سواد الكوفة، ويدخل فيها النّاس، حتّى كثر أتباعها، ونشأت في سواد العراق في أيّام الخليفة المعتمد، ثمّ انتقلت إلى بلاد الشّام والبحرين واليمن "في سنة278هـ/892م ظهرت القرامطة بالكوفة، وهم نوع من الملاحدة، يدّعون أنّه لا غُسْل مع الجنابة، وأنّ الخمر حلال، ويزيدون في أذانهم "وأنّ محمّد بن الحنفية رسول الله"، وأنّ الصوم في السنة يومان، يوم النّيروز، ويوم المِهْرجان، وأنّ الحجّ، والقبلة إلى بيت المقدس، وأشياء أخرى، ونفق قولهم على الجهّال، وأهل البرّ، وتعب النّاس بهم"[7] .

وحسب الطبري، في 278هـ/892م وردت الأخبار بحركة قوم يعرفون بالقرامطة بسواد الكوفة، فكان ابتداء أمرهم قدوم رجل من ناحية خوزستان إلى سواد الكوفة، ومقامه بموضع منه يقال له: النّهرين يُظهر الزّهد، والتّقشف، وسعف الخوَص، ويأكل منه كسبه، ويكثر الصلاة، فأقام على ذلك مدّة، فكان إذا قعد إليه إنسان ذاكره أمر الدّين، وزهده في الدّنيا، وأعلمه أنّ الصلاة المفترضة على النّاس خمسون صلاة في كلّ يوم وليلة، حتّى فشا ذلك عنه بموضعه، ثمّ أعلمهم أنّه يدعو إلى إمام من أهل بيت رسول الله، فلم يزل على ذلك يقعد إليه الجماعة، فيخبرهم من ذلك بما تعلّق قلوبهم، وكان يقعد إلى بقّال في القرية، وكان بالقرب من البقال نخل اشتراه قوم من التّجار، واتّخذوا حظيرة جمعوا فيها ما صرموا من حمل النّخل، وجاؤوا إلى البقّال، فسألوه أن يطلب لهم رجلا يحفظ عليهم ما صرموا من النّخل، فأومى لهم إلى هذا الرّجل، وقال:إن أجابكم إلى حفظ ثمرتكم، فإنّه بحيث تحبون، فناظروه على ذلك، فأجابهم إلى حفظه بدراهم معلومة، فكان يحفظ لهم، ويصلي أكثر نهاره، ويصوم، ويأخذ عند إفطاره من البقال رطل تمر، ويجمع نوى ذلك التمر، فلمّا حمل التّجار ما لهم من التّمر صاروا إلى البقّال، فحاسبوا أجيرهم على أجرته، فدفعوها إليه، فحاسب الأجير البقّال على ما أخذ منه من التّمر، وحطّ النّوى الذي كان دفعه إلى البقال، فسمع التّجار ما جرى بينه وبين البقال في حقّ النّوى، فوثبوا عليه، فضربوه...وبعد أن قصّ عليهم البقّال قصّته ندموا على ضربهم إيّاه، وسألوه أن يجعلهم في حلّ، ففعل، وازداد بذلك نبلا عند أهل القرية؛ لما وقفوا عليه من زهده[8] .

وفي سنة286هـ/899م ظهر بالبحرين "أبوسعيد القرمطي"، وقويت شوكته وهو "أبو طاهر، سليمان" الذي يأتي أنّه خلع الحجر الأسود، ووقع القتال بينه، وبين عسكر الخليفة المعتضد، وأغار على البصرة، ونواحيها، وهزم جيش الخليفة مراتا، وفي سنة289هـ/902م خرج "يحي بن زكرويه" القرمطي، فاستمرّ القتال بينه وبين عسكر الخليفة إلى أن قتل في290هـ/903م، فقام عوضه أخوه "الحسين"، وأظهر شامة في وجهه، وزعم أنّها آيته، وجاءه ابن عمّه "عيسى بن مهرويه"، وزعم أنّ لقبه "المدّثر"، وأنّه المعني في السورة، وتسمّى بأمير المؤمنين المهدي، ودُعي له على المنابر، ثمّ قتل الثّلاثة في291هـ/904م..، وفي سنة 316هـ/928م بنى القرمطي دارا سمّاها "دار الهجرة"، وكان في هذه السنين كثر فساده، وفي سنة 317هـ/929م سيّر الخليفة المقتدر رَكْب الحاج مع منصور الدّيلمي، فوصلوا مكة سالمين، فوافاهم يوم التروية عدو الله أبوطاهر القرمطي، فقتل الحجيج في المسجد الحرام، وطرح القتلى في بئر زمزم، وضرب الحجر الأسود بدبوس، فكسره، ثمّ اقتلعه، وأقام بها 11يوما، ثمّ رحلوا، وبقي الحجر الأسود عندهم أكثر من عشرين سنة، ودفع لهم فيه خمسين ألف دينار، فأبوا، حتّى أعيد في خلافة المطيع، وفي سنة319هـ/931م نزل القرمطي الكوفة، وخاف أهل بغداد من دخوله إليها، فاستغاثوا، ورفعوا أصواتهم والمصاحف، وسبّوا المقتدر، وفي سنة407هـ/1017م ملك القرامطة دمشق، ولم يحجّ أحد فيها، لا من الشام، ولا من مصر[9] .

يعدّ حمدان بن الأشعث، المعروف بقرمط، وهو من أهل الكوفة أحد دعاة القرامطة الأوائل، وقامت دعوته في أعقاب القضاء على حركة الزّنج، وسمّي أتباعه بالقرامطة، وهم من الأعراب الّذين يبحثون عن المال والغنائم والفلاحين والفقراء[10]، وهدأت الحركة فترة؛ بسبب الإختلاف بين قيادتها والقيادة الإسماعيليّة، وآلت قيادتها إلى زكرويه بن مهدويه الفارسي الأصل أحد تلاميذ حمدان الّذي نقل نشاطه إلى بلاد الشّام، وامتدّ إلى بادية السّماوة، وأخذ ابناه يحي الملّقب بصاحب النّاقة، وحسين الملّقب بذي الشّامة، أو صاحب الخال على التّوالي مهمّة نشرها، وتلقّب كلّ منهما بأمير المؤمنين، وهاجما المدن والقرى، ممّا أثار الذّعر في بلاد الشّام قبل أن تقضي عليهما الخلافة العباسيّة عليهما في 290هـ-291هـ/903م -904م، وقام زكرويه لينتقم لابنيه، لكنّه قتل في عام 294هـ/907م، وانتهى بمقتله أمر القرامطة في بلاد الشّام[11].

وفي البحرين تزّعم الحركة القرمطيّة أبو سعيد الحسن الجنّابي، وجنّابة من سواحل فارس، يدخل إليها في المراكب في خليج من البحر الفارسي، وبين المدينة والبحر ثلاثة أميال، وقبالتهما في وسط البحر جزيرة، نشأ بها أبو سعيد هذا، وكان دقّاقا، فنفي عن جنابة، فخرج إلى البحرين، فأقام بها تاجرا، وجعل يستميل العرب إلى دعوته، حتّى استجاب له أهل البحرين، وما والاها، وقوي أمره، فقتل من أهل القرى، وفعل ذلك بالقطيف، وأظهر أنّه لا يريد البصرة، وكان معه إبنه أبو طاهر، وقد بسط الجنّابي هيمنته على هجر، والإحساء والقطيف وسائر البحرين، وأنشا دولة مستقلّة عاصمتها "المؤمنيّة"، وقتل 301هـ/914م[12].

تسلّم إبنه أبو طاهر سليمان رئاسة الدّعوة، وتابع سياسة العنف بصورة خطيرة على قوافل الحجّاج، ومهاجمته مكّة 317هـ/ 929م، فنهب أموال الحجّاج، وقتلهم، وسفك دماءهم في المسجد الحرّام، واقتلع الحجر الأسود من الكعبة، واحتجزه في هجر إثنتان وعشرين سنة، وفي ذلك تحديا لمشاعر المسلمين، ما أثار استياء أهل السّنّة، وحلفاؤه من الإسماعيليّين، والعبيديّين، ولم يعترف القرامطة بالإسلام كدين رغم تظاهرهم بذلك، وأدخلوا عليه عقائد الحلول، والتّناسخ، وقدسية الأئمّة، وطلب طاهر من الخليفة التّنازل عن الأهواز، والبصرة؛ لكي يهيمن على تجارة الهند البحرية، وصناعة خوزستان، ولما توفيّ أبو طاهر 332هـ/944م فقدت الحركة تماسكها، وإن ظلّت بعد ذلك زمنا طويلا[13].

وعليه فإنّ حركتي الزّنج، والقرامطة هما أوجها لتّطور المعارضة العلويّة بشكل يؤكد إنحراف العقيدة الإسلاميّة عند العلويّين، واستمالة غيرهم للتّساند معهم بدعوى العدالة الاجتماعيّة.

---

(1) الزّنج، قبائل زنجية تقطن ساحل إفريقية الشّرقي، أطلقه المؤرخون على العبيد المنتفضين الّذين أثاروا الفزع في القسم الأدنى من أرض العراق من 225هـ/840م إلى270هـ/884م. أنظر، دائرة المعارف، مادة الزّنجي، م10، ص222 .

(2) السّيوطي: تاريخ الخلفاء، ص272 وما بعدها .

(3) إبراهيم أيوب: مرجع سابق، ص ص114 ،115.

(4) الطبري: تاريخ الطبري، ج5، ص2044 وما بعدها .

(5) نفسه .

(6) المذهب الإسماعيلي: الإسماعيلية الواقفة قالوا: إنّ الإمّام بعد جعفر إسماعيل نصّا عليه باتّفاق من أولاده، إلّا أنّهم اختلفوا في موته، في حال حياة أبيه، فمنهم من قال: لم يمت، إلاّ أنّه أظهر موته تقية من خلفاء بني العباس، وأنّه عقد محضرا، وأشهد عليه عامل المنصور بالمدينة، ومنهم من قال: موته صحيح، والنّص لا يرجع قهقري، والفائدة في النّص بقاء الإمامة في أولاد المنصوص عليه دون غيرهم، فالإمّام بعد إسماعيل :محمّد بن إسماعيل، وهؤلاء يقال لهم: المباركية، ثمّ منهم من وقف على محمّد بن إسماعيل، وقال برجعته بعد غيبته، ومنهم من ساق الإمامة في المستورين منهم، ثمّ في الظاهرين القائمين من بعدهم، وهم الباطنيّة، ووقف مذهب هذه الفرقة على إسماعيل بن جعفر، أو محمّد بن إسماعيل، والإسماعيليّة المشهورة في الفرق منهم هم، الباطنية التّعليميّة الذين لهم مقالة مفردة، أمّا الإثني عشرية: إنّ الذين قطعوا بموت موسى الكاظم بن جعفر الصادق، وسمُّوا: قطعية، ساقوا الإمامة بعده في أولاده، فقالوا: الإمّام بعد موسى الكاظم ولده، "علي الرّضا، ومشهده بطوس، ثمّ بعده "علي بن محمّد النّقي"، ومشهده ب"قمّ"، وبعده "الحسن العسكري الزّكي"، وبعده "القائم المنتظر" الذي هو ب"سُرّ من رآى"، وهو الثّاني عشر ، والمنازعات التي جرت بينهم وبين إخوتهم، وبين أعمامهم وجب ذكرها؛ لئلاّ يشذّ مذهب لم نذكره، ومقالة لم نوردها، فاعلم أنّ من الشيعة من قال بإمامة "أحمد بن موسى بن جعفر" دون أخيه علي الرّضا، ومن قال بعلي، شكّ أوّلا في محمّد بن علي؛ إذ مات أبوه وهو صغير، غير مستحقّ للإمامة، ولا علم عنده بمناهجها، وثبت قوم على إمامته، واختلفوا بعد موته أيضا، فقال قوم: بإمامة "موسى بن محمّد"، وقال قوم: بإمامة "جعفر بن علي"، وقال قوم بإمامة "محمّد بن علي"، وقال قوم بإمامة "الحسن بن علي" . أنظر، الشّهرستاني: الملّل والنّحل، ج1 ، ص85 وما بعدها .

(7) السّيوطي: تاريخ الخلفاء، ص274 .

(8) الطبري: تاريخ الطبري، ج6 ، ص 2144 .

(9) السّيوطي : تاريخ الخلفاء، ص277 وما بعدها .

(10)وقيل: قُرْمط، رجل من سواد الكوفة، كان يحمل غلاّت السّواد على أثوار له يسمّى" حمدان"، ويلّقب ب"قرمط"، ثمّ فشا أمر القرامطة، ومذهبهم، وكثروا بسواد الكوفة، ومن شرائعهم، أنّ الصوم يومان في السّنة هما: المهرجان، والنّوروز، وأنّ النّبيذ حرام، والخمر حلال، ولا غسل من جنابة، إلاّ الوضوء، كوضوء الصلاة وأنّ من حاربه وجب قتله، ومن لم يحاربه ممّن خالفه أُخذت منه الجزية، ولا يؤكل كلّ ذي ناب، ولا كلّ ذي مخلب، وكان مصير قرمط إلى سواد الكوفة قبل قتل صاحب الزّنج. أنظر، الطبري: تاريخ الطبري، ج6 ، ص2145 .

(11)الطبري: تاريخ الطبري، ج6 ، ص 2161 .

(12) نفسه .

(13) نفسه .

4 . التّطور الإجتماعي في الدّولة العباسيّة:

دراسة المجتمع العبّاسي تستوجب التّعرّف على تركيبته، من خلال النّسب والأديان، للوقوف على طبائعه وسلوكيّات أفراده، تبعا لأعرافهم و دياناتهم الّتي ظهرت في سلوكياتهم اليّوميّة، ثمّ التّوصّل إلى استنتاج، ما يُوَحّد هذه التّركيبة الاجتماعيّة، وينبّؤ بمواطن الالتقاء فيما بينها، قوليّا وفعليّا وكذا التّوصّل إلى تحديد قابليّة التّأثّرعند أفرادها، وأيّها يتأثّر فعلا بعادات الآخر، وأيّها يبقى بعيدا عن التّأثّر، رغم وجوده في محيط التّأثّر نفسه والمجتمع العبّاسي أنموذجا قائما، يمكن دراسته بِنيويّا، كانطلاقة حتميّة لتحديد طبقاته وفئاتها، من خلال مقاييس نظريّة وأخرى تطبيقيّة تظهر في سلوكيّات الأفراد، ليتمكّن الدّارس من التّعرّف على علاقاتها مع الحاكم وغيره فيما بينها وما جديدها؟.

أولا: بِنية المجتمع العبّاسي من خلال آثار "الجاحظ":

1- من حيث النّسب:

المجتمع العبّاسي[1] متكوّن بنيويّا من حيث النّسب من جهة ومن حيث الطّوائف من جهة أخرى، وهذا ما يبرّر ماقد يُظهر فيه من عادات وتقاليد، رغم وجود الدّين الإسلامي، ويمكن توضيح هذه البنية كالآتي:

أ-العـرب:

يميل الجاحظ في محتوى مؤلّفاته إلى ذكر خصال العرب، لا إلى إحصاء قبائلهم، إلاّ مايذكره على سبيل المثال للتّدليل على سلوك ما، لذلك أكثر الافتخار بالأمجاد العربيّة، كأنّه مفحم بالرّدّ على من أهانوهم بالتّقليل من شأنهم، معترفا بأنّهم من البدو، ذاكرا مواطنهم الأولى" كانوا سكان فياف وتربة وعراء "[2]، وهو ما انعكس على تأثير الظّروف المناخيّة على لون بشرتهم، فعبّر عن ذلك بقوله:" وهم يفخرون بسواد اللّون "[3] ويركّزعلى جودة الكرم وطلاقة اللّسان عندهم، خاصّة أثناء الضّيافة لبعضهم أو لغيرهم وهوما فتح باب الاتصال بفروع قبائلهم والوافدون إلى مواطنهم من غيرالعرب؛" ولأنّ العرب تجعل الحديث والبسط والتّأنيس والتّلقّي بالبِشْرمن حقوق القرى ومن تمام الإكرام به"[4]، ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط؛ بل تميّزوا بالظّرف، فكان ذلك مميّزا لهم دون غيرهم "ظرف الأعراب لا يقوم له شيئ "[5]، وكيف لا يكونوا كذلك وهم المشهورون بإتمام ضيافتهم، بما يتبعها من أصول متّبعة، تجسيدا لما قيل: " من تمام الضّيافة الطّلاقة عند أوّل وهلة، وإطالة الحديث عند المواكلة "[6].

ذهب الجاحظ بالقول إلى أنّ فضيلة الشّعرمركّزة على العرب دون غيرهم، ومن تكلّم بلسانهم " فضيلة الشّعر مقصورة على العرب، وعلى من تكلّم بلسان العرب "[7]، ممّا قد يفهم منه أنّه يمكن لغير العرب أن ينْظموا الشّعر، إذا ما أقبلوا على تعلّم اللّغة العربيّة وآدابها، لكن يبقى العرب أكثر تميّزا، لدرجة أنّه يصفهم بالملهمين "وكلّ شيئ للعرب؛ فإنّما هو بديهة وارتجال "[8]، ويغالي الجاحظ في ذكر خصال العرب والتّفاخر بهم بقوله: "ونحن أصحاب التّفاخر والتّنافر والتّنازع في الشّرف والتّحاكم إلى كلّ حكم متبّع وكاهن سجّاع، ولنا التّعاير بالمثالب والتّفاخر بالمناقب، ونحن أحفظ لأنسابنا وأرعى لحقوقنا، وتقييّدها أيضا بالمنثور والمرسل بعد الموزون المعدّل بلسان أمضى من السّنان، وأرهف من السّيف الحُسام، حتّى نُذَكرهم ما قد درس رسمه، وعفا أثره "[9].

يظهر من ماسبق ذكره، أنّه ردَّ فعل على كلّ طاعن لوجود الأصالة العربيّة، لدرجة أنّ البعض جعل منشأ الدّولة العبّاسيّة من جهود غير العرب، ليردّ عليه الجاحظ باستفهامات تعجّبيّة " وهل أكثر النّقباء إلاّ من صميم العرب ومن صليبة هذا النّسب...وبعد هذا الّذي باشر قتل مروان[10]...إلاّ عرب الدّعوة والصّميم من أهل الدّولة "[11]، ويذكر الجاحظ أنّ التّميّز العربي أيضا يشمل " العِمّة وأخذ المِخصرة من السّيما "[12]، ورغم ذلك يعترف الجاحظ بأنّهم " لم يكونوا تجّارا ولا صنّاعا ولا أطبّاء ولا حسّابًا ولا أصحاب فلاحة فيُكَوّنون مهنة ولا أصحاب زرع، لخوفهم من صغار الجزية، ولم يكونوا أهل جمعٍ وكسب ولا أصحاب احتكار، لما في أيديهم، وطلب ما عند غيرهم "[13].

وهناك تأكيدات بأنّ مهنة الطّبّ موجودة عند العرب قبل مجيئ الدّولة العبّاسيّة[14]؛ أي منذ صدر الإسلام، فقد قيل:أنّ العرب في صدر الإسلام، لم تُعن بشيئ من العلوم، إلاّ بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها، حاشا صناعة الطّبّ، فإنّها كانت موجودة عند أفراد منهم، غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة النّاس، فهذه حال العرب في الدّولة الأمويّة، فلمّا أدال الله تعالى للهاشميّة وصرف الملك إليهم، ثابت الهمم من غفلتها، وهبّت الفِطَن من منبتها، وكان أوّل من عُنِيّ منهم بالعلوم الخليفة أبو جعفر المنصور"[15]، ولا أدّل من شهادة غير العرب لهم بالفضل، فقد ذكر ابن المقفّع عندما سُئل عن أعقل الأمم:" إنّهم أعقل الأمم، لصحّة الفطرة واعتدال البيئة وصواب الفكر وذكاء الفهم "[16]، مُرَكّزا على قوّة التّحدّي العربي في الانتقال من البداوة إلى التّحضّر[17]، ورغم ذلك فقد أشار ابن خلدون إلى تصرّفات بعض القبائل العربيّة المنافية لكلّ مكارم العرب في غير موضع[18].

ب-**العجـم:**

يُعَرّف الجاحظ الأعجمي، بأنّه كلّ ذي صوت لا يفهم إرادته، إلاّ ما كان من جنسه والإنسان فصيح، وإن عبّرعن نفسه بالفارسيّة أو الهنديّة أو الروميّة، وإذا قالوا: العرب والعجم ولم يلفظوا بفصيح وأعجم[19]، فليس هذا المعنى يريدون، وإنّما يعنون أنّه لا يتكلّم بالعربيّة وأنّ العرب لا تفهم عنه[20]، والعجم فروع، حسب مناطق تمركزهم الأصليّة، يختلفون في ألوانهم وعاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم، لكنّهم قد يتّفقون في تخليد مآثرهم"، فقد كانت العجم تُقيّد مآثرها بالبنيان والمدن والحصون "[21]، ويعترف لهم ابن خلدون بالفضل " من الغريب الواقع أنّ حَمَلة العلم في الملّة الإسلاميّة أكثرهم من العجم، لا من العلوم الشّرعيّة ولا من العلوم العقليّة، إلاّ في القليل النّادر، وإن كان منهم العربيّ في نسبته، فهو عجميّ في لغته ومربّاه ومشيخته، مع العلم أنّ الملّة عربيّة وصاحب شريعتها عربيّ، والسّبب في ذلك أنّ الملّة في أوّلها، لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السّذاجة والبداوة "[22]، ومن أهمّ عناصرهم.

- **الفـرس:**

قيل : " أنّهم أعراب العجم[23]، وهم أهل سياسة وسلطان، وقد أنشأوا الدّول وساسوا النّاس ووضعوا الأحكام من قديم الزّمان، وضخّموا دولتهم حتّى حاربوا اليّونان والرّومان "[24]، وكلّ ذلك يؤكّد وجود تاريخ حافل لهم، كما يتميّزون عن غيرهم من الأمم " فهذه الفرس ورسائلها وخطبها وألفاظها ومعانيها "[25]، ويذهب الجاحظ إلى ذكر أهمّ تخصّصاتهم " قد علمنا، أنّ أخطب النّاس الفرس، وأخطب الفرس أهل فارس، وأعذبهم كلاما وأسهلهم مخرجا وأحسنهم دلاّ وأشدّهم فيه أهل مرو[26] وأفصحهم بالفارسيّة الدّربة "[27].

وجود اللّغة المميّزة لدى الفرس دليل كافي على أصالة شعبهم، وربّما كان هذا الّذي جعل لغتهم تستمرّ معروفة لدى بعض الأوساط والدّوائر العربيّة في البصرة، حتّى عهد الخليفة هارون الرّشيد[28]، وقد رصد لنا الجاحظ تأثّر بعض أهل المدينة بلغتهم، فظهرذلك في بعض ألفاظهم " ألا ترى أنّ أهل المدينة، لما نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدّهر، علقوا بألفاظ من ألفاظهم، ولذلك يسّمون البطّيخ الخِزَبْر...وكذلك أهل الكوفة[29]، فإنّهم يسمّون المِسْحَاة بَالٍ، وبال بالفارسيّة "[30]، ويردّ البعض هذا التّأثير الّذي أدّى إلى ظهور لهجات، إلى ما يوجد من طبقات النّاس وفئاتهم، من فروق في الثّقافة والتّربيّة ومناحي التّفكير وغيرها من عادات، وما تزاوله كلّ فئة من أعمال[31].

تحدُث الجاحظ عن هذه الألفاظ دليل على بقائها حتّى عصره، وتذهب بعض المراجع بالقول: أنّ أكثر التّأثير ظهر في كلمات المأكول والمشروب، وعدّها بحوالي مائة لفظة فارسيّة[32]، وحتّى لا يُفهم ما ذكره، أنّه تحيّز من الجاحظ للفرس ولغتهم وافتخارا بهم، ذكر" إلاّ أنّ كلّ كلام للفرس وكلّ معنى للعجم؛ فإنّما هو عن طول فكرة، واجتهاد رأيّ "[33]، وهو عكس ما يتميّز به العرب؛ بل ويجعل أحاديثهم مُهَوِّلة للعصبيّة، لما فيها من تَزَيُّد " إعلم أنّ هذه الأحاديث من أحاديث الفرس، وهم أصحاب نفخ وتزَيُّدْ، ولا سيّما في كلّ شيئ، ممّا في باب العصبيّة "[34]، ووجود الفرس في الدّولة الإسلاميّة، فيه من الخطر الكبير، الّذي يستوجب الحذر منهم؛ لأنّهم مثارا للفتن واللااستقرار، لما قد تُحدثه أحاديثهم من الفُرقة في الصفّ العربي الإسلامي ولا أدّل من شهادة ابن المقفّع، وهو أصل في

الفرس عريق في العجم [35]، لما سئل عن أعقل الأمم، فردّ عليه: بأنّهم أهل فارس، فقال: "كلاّ ليس ذلك عندها؛ بل لهم أبدان وثيقة وهم أصحاب بناء وهندسة، لايعرفون سواهما ولا يحسنون غيرها "[36].

يفخرالجاحظ بالعرب وتميّزهم عن الفرس، حتّى في لبس النّعال وألوانها " العرب تلهج بذكر النّعال، والفرس تلهج بذكر الخُفاف الحُمر والصُّفر"[37]، ممّا قد يُفهم منه بعض مواطن التّميّز في أصالة العرب عن الفرس، ويركّز الجاحظ على ذكر أهل خراسان وما نسبوه لأنفسهم، افتخارا من انتصارات كانت سببا في أفول دولة أمويّة، وتصَدُّر دولة عبّاسيّة مكانها " نحن النّقباء وأبناء النّقباء، ونحن النّجباء وأبناء النّجباء، ومنّا الدّعاة قبل أن تظهر نقابة أو تُعرف نجابة...بنا شفى الله الصّدور، وقتلنا العباد وأيّدنا العدوّ بكل واحد، ونحن أهل الدّولة وأصحاب هذه الدّعوة ومنبت هذه الشّجرة، ومن عندنا هبّت هذه الريح "[38]، ويظهر السّابق، أنّ العنصرالفارسي في خراسان يُهَمِّش الدّورالعربي في إسقاط الخلافة الأمويّة، وإنجاح الدّعوة الهاشميّة العبّاسيّة، تحديدا في خراسان، وفي هذا التّفاخر والادّعاء الخراساني خطورة كبيرة على العنصر العربي مستقبلا؛ لأنّ احتمال صراع بين العرب والفرس محتمل في أيّ وقت مناسب لإثارته لأيّ سبب كان.

بل وبلغ حدّ التّعالي بفرس خراسان تشبيه أنفسهم بالأوس والخزرج[39]، الّذين نصروا النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والدّعوة الإسلاميّة في أوّل عهدها " وأهل خراسان نصروا ورثته في آخر الزّمان، غذّانا بذلك آباؤنا وغذّونا به أبناءنا، وصار لنا نسبًا لا نعرف إلاّ به، ودينا لا نُوالي إلاّ عليه...نحن على وتيرة واحدة ومنهاج غير مشترك، نعرف بالسّعة وتدّيُن بالطّاعة، ونُقتل فيها ونموت عليها، سِمانَا موصوف ولباسنا معروف، ونحن أصحاب الرّايات السّود والرّوايات الصّحيحة والأحاديث المأثورة، والّذين يهدّمون مدن الجبابرة، وينزعون المُلْك من أيدي الظّلمة" [40]، والغريب أنّ وضع الأوس والخزرج في المدينة، كان غير وضع الفرس في دولتهم وخاصّة أهل خراسان في الدّولة الأمويّة، ثمّ إنّ هؤلاء لم يعاصروا الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، فكيف يَعُدّون ما ينسبون إليه من أحاديث دقّة في الصّحة، ممّا يجعلني أذهب إلى القول: أنّ المقارنة السّابقة غير جائزة أصلا، لا مكانيّا ولا زمانيّا ولا ظرفيّا، ثمّ إنّ في صيغة الخطاب نزعة انتقاميّة، لا تتّفق وروح الشّريعة الإسلاميّة الّتي تسعى لتحقيق العدل على الأرض.

– البَنَـويُون:

يشيرالجاحظ إلى فئة جديدة في المجتمع العبّاسي، نتجت عن تزاوج بين الخراسانيّين بغيرهم من خارج نسبهم، فظهر ما يسمّى بالبَنَويّين، الّذين زعم بعضهم أنّ أصلهم خراساني وأنّ نسب الأبناء نسب آبائهم، وهو مالم يقبله الجاحظ بقوله " وزعمتَ أيضا أنّ البَنَّويّ خراسانيّ وأنّ نسب الأبناء نسب آبائهم "[41]، كما شكّك في مفاخرة هذا الجيل النّاشئ بنسبه وبطولات آبائه، من حيث أوجدوا دولة عبّاسيّة، بدءا من دعوتها، "وذكرتَ أنّ البَنَوِيّ، قال:أنا أصلي خراسان، وهي مخرج الدّولة ومطلع الدّعوة، ومنها نجَم هذا القرن، وصبا هذا النّاب وتفجَّرَ هذا الينبوع واستفاض هذا البحر حتّى ضرب الحقّ بجَرَائِه، وطبّق الآفاق بضيائه، فأبرأ من السّقم القديم، وشفيّ من الدّاء العُضال، أعّف من العيْلة، وبصّر من العمى "[42].

ويبدو أنّ هذا الجيل الجديد، حداه التّمسك بعاصمة الدّولة العبّاسيّة بغداد، كإرث آبائه بدل خراسان، ليجعل حركيّة ونشاط العاصمة مرتبط بما يقدّمه هؤلاء البنويّون الّذين هم يستكملون أعمال آبائهم وانتصاراتهم في تثبيت دعائم الدّولة العبّاسيّة، وأسس تحضّرها " ولنا بغداد بأسرها تسكن ما سكنّا، وتتحرّك، ما تحرّكنا، والدّنيا كلّها معلّقة بها وصائرة إلى معناها، فإذا كان هذا أمرها وقدرها، فجميع الدّنيا تُبَعٌ لها "[43].

كما قد يلمح القارئ، أنّ تصريحهم هذا بقدرما فيه من إجلال لبغداد، فهو أيضا دليل على تحكّم البنويّين فيها نشاطا وسياسة، وهو ما سيكون له تأثير سلبي على التّركيبات البشريّة الأخرى للمجتمع العبّاسي عامّة وبغداد خاصّة، وعلى العرب تحديدا.

حاول البنويّون إذن رفع قدرهم فوق غيرهم، ممّا يجعل خطرهم فيما بعد يعْظُم للمطالبة بحكم بغداد ومنها الدّولة العبّاسيّة، ما قد يثير مشاكلا حقيقيّة بينهم وبين بني هاشم[44] عامّة وتحديدا أبناء بني العبّاس خاصّة، ولعلّ ذلك ما يتّضح من تصريحاتهم، تعبيرا عن رفعة قدرهم وعزّة أخلاقهم إلى حدّ أنّ تربيتهم كانت بين الخلفاء والوزراء " ونحن بعد تربية الخلفاء وجيران الوزراء، وُلِدْنا في أفنية ملوكنا،

ونحن أجنحة خلفائنا فأخذنا بآثارهم، واحتذينا على مُثُلهم "[45]، وربّما دلّ التّصريح السّابق على أنّ الخلفاء المقصودين هم فُرْسا، وليسوا عربا، وأنّ ثمّة جيلا من البنويّين في العهد العبّاسي يسعى لإعادة الملك للفرس من جديد عامّة، وبالتّحديد لذوي الأصل الخراساني، خاصّة وأنّ الجيش على رأسه الخراسانيّين "جند الخلافة على خمسة أقسام[46]؛ خراساني وتركي ومولى وعربيّ وبنويّ "[47]، وإن كانوا في نهاية التّرتيب، فآباؤهم الخراسانيّون سيساعدونهم حتما في تحقيق هدفهم المذكور سابقا.

- **المـوالي:**

المولى هو ابن العمّ، وحسب المبرّد، فإنّ قول الله تعالى "وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي "[48] يعني بني العمّ، ولا يكون الولاء إلاّ للمسلم، بينما النّصارى واليهود فيكونون من أهل الذّمّة[49] والموالي ثلاثة؛ مولى اليمين المحالف ومولى الدّار المجاور، ومولى النسب ابن العمّ والقرابة [50] فالولاء دينيّا مشروع لقول الرّسول صلّى الله عليه وسلّم:" الْوَلاَءُ لِمَنْ أَعْتَقَ "[51]، وعليه فإنّ هذه القرابة الّتي تجمع بين المولى ومولاه، جعلت البعض من الموالي يدّعي نسب مُوَليه، فقالوا:" فنحن معاشر الموالي بقديمنا في العجم، أشرف من العرب، وبالحديث الّذي صار لنا في العرب، أشرف من العجم، ولنا خصلتان وافرتان فينا جميعا، وصاحب الخصلتين أفضل من صاحب الخصلة، وقد جعل الله المولى بعد أن كان عجميّا عربيا بولائه، كما جعل حليف قريش من العرب قريشيّا بحلفه، وجعل إسماعيل بعد أن كان أعجميّا عربيا، لأنّ الأعجمي لا يصير عربيّا، كما أنّ العربي لا يصير أعجميّا، فإنّما علمنا أنّ إسماعيل صيّره الله عربيّا، بعد أن كان أعجميّا "[52].

فالموالي نظرا لما يجمعهم من خصال بين دهاء العجم وخصال العرب، قد تعالوا فوق أشراف العرب أنفسهم، ممّا يجعل خطرهم نافذا فيما بعد، وربّما ذلك ما جعلهم يطمعون في التّرفّع، حتى أصبحت الخؤولة والعمومة مثارنقاش في المجتمع العبّاسي، وإن ثبت عن الرّسول صلّى الله عليه وسلّم قوله " الْوَلاَءُ لُحْمَة "[53]، فهناك من أكّد أنّ " الْوَلاَءُ لُحْمَة كَلُحْمَةِ النَسَبِ " قد أخرج المولى بالحُرمة إلى النّسب حُكمًا، كما أنّ الأب أخرجه بالنّطفة إلى الوجود حسًّا "[54]،وأشار الجاحظ في غير موضع إلى تفاخر هذه الشّريحة من المجتمع العبّاسي وتعاليها بنسبها، مشيرا إلى حقيقة وضع نسبهم، فحسب رأيه أنّهم مجرد عبيد، أُعتقوا ونالوا الرّضى من مُعتقهم، واعتبر ذلك مجلبة للفساد والشرّ" وليس أدْعى إلى الفساد، ولا أجْلب للشرّ من المفاخرة وليس على ظهرها، إلاّ فخور،إلاّ قليل، وأي شيئ أغْيظ من أن يكون عبدك، يزعم أنّه أشرف منك وهو مقرّ بأنّه صار شريفا بعتقك إيّاه "[55]، وكيف لا تكون لهم المفاخرة، وقد ذُكر" أنّ إبراهيم السّندي مولى أمير المؤمنين وكان عالما بالدّولة، شديد الحبّ لأبناء الدّعوة، وكان يحوط مواليه ويحفظ أيامهم ويدعو النّاس إلى طاعتهم ويدرس مناقبهم "[56].

والظّاهر أنّ الموالي وصل بهم الحدّ إلى إدّعاء أنّهم أبناء مواليهم، فأشاعوا أنّ الرّجل من أبيه والمولى من فضل طينة المعتق[57]، وهو ماشكّك فيه المبرّد، وإن فُهم من المقولة خُلق المعتق في المعتَق، فإنّ المولى لن يكون أبدا بصفة الابن، فأصله دائما عبدا[58]، ثمّ تحرّر وهو مادفع أحد النّسّاك إلى ذكرهم في دعائه: " اللهم اغفر للعرب خاصّة وللموالي عامّة، فأمّا العجم فهم عبيدك والأمر إليك "[59]، وإن دلّ السّابق على التّمييز عند النّسّاك بين العرب والموالي من جهة لتحريم بُنوّتهم الّتي ادّعوها لأنفسهم، لكنّ ذلك لا ينفي أبدا سبقهم في رفع راية الدّين من جهة أخرى أو تنكرا لجهودهم في قيام الدّولة العبّاسيّة، وتجلّى ذلك في سعيهم الحثيث للرّفع من أقدار مُوَليهم " لنا النّصيحة الخالصّة والمحبّة الرّاسخة، ونحن موضع الثّقة عند الشّدّة، وعلّل المولى من تحت موجبة لمحبّة المولى من فوق، لأنّ شرف مولاه راجع إليه وكرمه زائد في كرمه وخموله مُسقط لقدره، وبودّه أنّ خصال الكرام كلّها اجتمعت فيه؛ لأنّه كلّما كان مولاه أكبر وأشرف وأظهر، كان هو بها أشرف "[60].

وطبيعي أن تظهر مشكلة النّسب والشّرف في المجتمع العربي الإسلامي، خاصّة وأنّ الخليفة المأمون كان يقول: "الشّرف نسب، فشريف العرب أوْلى بشريف العجم من وضيع العجم بشريفهم، وشريف العجم أولى بشريف العرب من وضيع العرب بشريفهم "[61]، ولعلّ ذاك ما دفع الموالي لإيجاد طبقة لأنفسهم، تميّزهم عن غيرهم بصبرهم " والصّبر ضروب، فأكرمها كلّها الصّبر على إفشاء السّر،

وللمولى في هذه المكرمة، ما ليس لأحد "[62]، ويبدو أنّ تلك المكرمة كانت واضحة في العهد العبّاسي، لدرجة أنّ بعض المؤرّخين علّق عليها، كابن الطّقطقي "وما اعتنت دولة بتحصين الأسرار والمبالغة في حفظها، كالدّولة العبّاسيّة "[63]، خاصّة وأنّ خدمة الموالى لمواليهم لم تكن جبرا[64]؛ وإنّما بخالص الودِّ "ونحن أخصّ مدخلا، وألطف في الخدمة مسلكا، ولنا مع الطّاعة والخدمة والإخلاص وحسن النّيّة وخدمة الأبناء للآباء والآباء للأجداد، وهم بمواليهم آنَس، وبنا حبُّهم أوثق، وبكفايتهم أسّر"[65].

ثمّ إنّ المعاملة الحسنة الّتي لقيّها الموالي من الخليفة أبي جعفر المنصور، والقائم بالدّعوة العبّاسيّة مثلا، حفّزتهم أكثر على الخدمة والطّاعة " وقد كان المنصور ومحمّد بن علي بن عبد الله[66]، يخصُّون مواليهم بالمواكلة والبسط والإيناس، لا يُبَهرجون الأسوَد لسواده ولا الدّميم لدمامته...ويُوصون بحفظهم أكابرأولادهم، ويجعلون لكثير من موتاهم الصّلاة على جنائزهم وذلك بحضرة من العمومة وبني الأعمام والأخوة، ويتذاكروا إكرام رسول الله لزيد بن حارثة[67] مولاه، حين عقد له يوم مؤتة[68]على حلّة بني هاشم، وجعله أمير كل بلدة يطؤها "[69]، ولكنّ هذه المعاملة الطّيّبة والمساواة الواضحة على ما يبدو، لم يرض بها بعض العرب ربّما لما رأوه من سعي الموالي للامتزاج الدّموي بالعرب؛ عن طريق النّسب بالزّواج من العرب وقد أكّد هذا الأصمعي فيما نقله عن أعرابي قال: " سمعت أعرابيّا، يقول لآخر: "أترى هذه العجم، تنكح نساءنا في الجنّة؟ "، قال: " أرى ذلك، والله بالأعمال الصّالحة، قال: " تُوطأ والله رقابُنا قبل ذلك "[70].

ذهب الموالي إلى تدعيم طبقتهم ونفوذهم أكثر، بذكر اتفاقهم مع غيرهم، ممّن يسكن في أقطار الدّولة العبّاسيّة في ميزات، لكنّهم انفردوا ببعض عن غيرهم " فقد شاركنا العربيّ في فخره والخراسانيّ في مجده والبنويّ في فضله، ثمّ تفرّدنا بما لم يشاركونا فيه ويسبقونا إليه ونحن أشْكَل بالرّعيّة، وأقرب إلى طباع الدّهماء، وهم بنا آنس وإلينا أسكن وإلى لقائنا أحّن ونحن بهم أرحم وعليهم أعطف وبهم أشبه، فمن أحّق بالأثَرَة وأولى بحُسن المنزلة، ممّن هذه الخصال له وهذه الخلال فيه؟ "[71]، وكما قد يفهم ممّا سبق، أنّ فئة الموالي هذه كانت لها سياستها في استقطاب النّاس إليها خاصّة الّذين هم خارج القصر، وهو ما يجعل خطر الموالي على السّلطة العبّاسيّة يتعاظم مستقبلا، باعتبار فئة الموالي ستكون أقرب إلى الرّعيّة من الخلفاء والقصر، وهو ما يستوجب على الخلفاء ضرورة الاستعانة بالموالي في حكم الدّولة العبّاسيّة، باعتبارهم حلقة وصل بينهم وبين الرّعيّة.

2- أخلاط من العجم:

لم تقتصر التّركيبة البشريّة للمجتمع العبّاسي على الفرس والموالي والبنويّين؛ بل يوجد مزيج آخر من الهنود والزّنوج والأتراك وغيرهم، ولكلّ مميزاته الّتي قد تلتقي مع غيره، وهناك ما لا تتّفق ويمكن أن نوجز ذكرهم في الآتي:

أ- الهنـود والصّقالبة:

أشارالجاحظ إلى هذه الشّريحة من المجتمع في أكثرمن موضع، بأنّهم أهل حضارة " وأمّا الهند، فوجدناهم يُقَدَّمون في النّجوم والحساب، ولهم الخطّ الهندي خاصّة، ويُقَدّمون في الطّبّ ولهم أسرار الطّبّ، وعلاج فاحش الأدواء خاصّة "[72]، كما يعترف لهم بفضيلة الصّبر، ليس تفاخرا كالبنويّين؛ بل عن تجربة " ولهم رأي ونجدة، وليس لأحد من أهل الصّبر مالهم " [73]، ويقدم الجاحظ كتبهم كدليل على عراقتهم " وهذه كتب الهند في حِكَمها وأسرارها، وسِيَرها وعللها، فمن قرأ هذه الكتب وعرف غَوْر تلك العقول وغرائب تلك الحكم، عرف أين يوضع البيان والبلاغة وأين تكاملت تلك الصّناعة "[74]، مؤكّدا أنّ خطوطهم ضروريّة لحفظ أكثريّة العلم خاصّة علم الحساب " ولولا خطوط الهند، لضاع من الحساب الكثير البسيط، ولبَطُلت معرفة التّضاعيف، ولولا الكتب المدوّنة والأخبار المخلدّة، والحِكم المخطوطة الّتي تُحصّن الحساب وغير الحساب، لبطُل أكثر العلم ولغَلَبَ سلطان النّسيان سلطان الذّكر"[75]، اختلفوا عن المسلمين في كون الزّنا مباح عندهم[76]، وهو ما يخلق مشاكلا في المجتمع العبّاسي المسلم في إشاعة هذه الفاحشة.

وهناك عناصرالصّقالبة[77] وهم عدّة أمّم[78]، يصفهم الجاحظ بالبلاهة والغباء وسوء فهم العجميّة، وأنّ نساءهم وصبيانهم فليس إلى تحويل طبائعهم ونقْل خُلقهم إلى الفطنة الثّاقبة وإلى الحركة الموزونة وإلى الخدمة الثّابتة الواقعة بالموافقة سبيل "[79]، وربّما كانت

صفاتهم هذه سببا في عدم فاعليتهم في المجتمع العبّاسي، عكس الحيّز الّذي شغله العرب والفرس والبنويون والهنود وغيرهم، لذلك لم يكتب عنهم الجاحظ الكثير.

ب- **التّـرك:**

لم يسرف الجاحظ في التّحدّث عن عنصر التّرك[80]، مقارنة بما أفرده للبنويّين والفرس مثلا، فذكرأنّهم من عناصر جند الخلافة، وأنّهم كانوا يلْقون قبولا عند العرب مقارنة مع الخوارج[81]، إذ سُئِل قوم عن لقاء مائة تركيّ أو مائة خارجيّ؟، فقال القوم جميعا: " لَأَنْ نلقى مائة تركيّ، أحبّ إلينا من أن نلقى مائة خارجي "[82]، وربّما كان هذا القبول بهم، نظرا لكونهم لا ينوون البقاء، بل يفكّرون في أوطانهم، ومنه فهم لا يسعوْن إلى إقتسام الملك مع العبّاسيّين"وإنّما حُصّوا بالحنين من بين جميع العجم، لأنّ في تركيبهم وأخلاط طبائعهم من تركيب بلدهم وتربيتهم ومُشاكلة مياههم ومناسبة إخوانهم، ما ليس لأحد سواهم "[83].

إنّ تركيز الجاحظ على ما سبق من وصف الأتراك، يجعل العرب تفكّر جديّا في الذوْد عن أوطانها، خاصّة وأنّ مَواطن تلاقيهم صفاتيّا مع العرب موجودة تحديدا في سكنى الفياف"وكذلك التّرك أصحاب عمدٍ وسكان فياف وأربابَ مواش وهم أعراب العجم، لم تشغلهم الصّناعات والتّجارات والطّبّ والفلاحة والهندسة ولا غرس ولا بنيان ولا شقّ أنهار ولا جباية غلاّت، ولم يكن همّهم غير العدْو والغارة والصّيد وركوب الخيل، صارذلك صناعتهم وتجارتهم وفخرهم "[84]، ولا أدّلّ من شجاعتهم اعتراف الخليفة المعتصم بدورهم في جيشه[85]، وماذكره الجاحظ من ميزات، لا يجعلهم مؤهّلين لحياة الاستقرار، وبناء مجتمعات متحضّرة " ولو حصّلْتَ عُمْر التّركيّ وحَسِبْت أيامه، لَوَجَدْت جلوسه على ظهردابته أكثر من جلوسه على ظهرالأرض "[86]، ثمّ إنّ اقتصارهم على الجنديّة، والاستعداد الدائم للحرب، يُقَوّي عندهم العنف، ممّا يبعدهم أكثرعن التّحضّر، حتّى انعكس سلبا على وضعهم في حروبهم"وليس في الأرض قوم، إلاّ والتّساند في الحروب والاشتراك في الرّياسة صارلهم، إلاّ الأتراك لا يتساندون ولا يتشاركون "[87].

وعلى ذلك فإنّ الرّعيّة تكون مهدّدة من آثار حروبهم، لا قصر الخلافة وشؤون الحكم فقط "فكانت التّرك تُؤذي العوّام بمدينة السّلام، بجرْيها الخيول في الأسواق وما ينال الضّعفاء والصّبيان من ذلك "[88]، فالتّركيّ في بلاد الإسلام، إن لم يجد حروبا يشارك فيها، فإنّه حتما سيختلقها لإبراز قدراته القتّاليّة، ولو على حساب الرّعيّة في الطرقات؛ لأنّ سلوكه وخُلُقه ليس فيه دفاع عن عقيدة أو عصبيّة اجتماعية "ورأينا أنّ التّركيّ في بلاده، ليس يقاتل على دين ولا على تأويل ولا على مُلك ولا على خراج ولا على عصبيّة ولا على غيره، دون الحُرمة المحرّم ولا على عداوة ولا على وطن، ومنْع عار ولا مال، وإنّما يقاتل على السّلب والنّهب والخيار في يده "[89]، لذلك فخطرالأتراك سيكون متعاظما خاصّة على الرّعيّة في المجتمع.

ت - **الزنـوج:**

ذكرالجاحظ بعض الإشارات لبعض مميّزات الزّنوج[90] الخَلقيّة والخُلقية والحِرفيّة في محتوى رسالة فخر السّودان على البيضان وكذا متفرّقات في كتاب البيان والتّبيّين، من أنّهم أهل أنفة وبسالة، وأنّ أبناءهم مثل آبائهم " ثمّ ذكر أبناء الزّنجيّات حين نزعوا إلى الزّنج في البسالة والأنفة "[91]، فيه من الإشارة إلى تحبيب الزّواج منهم قصد النّسل المتميّز بهذه الصّفة ودليل ذلك أنّهم كانوا يشكّلون أكثر جيش الدّعوة العبّاسيّة[92].

كما أنّهم يلتقون مع العرب في صفة السّخاء " والنّاس مجمعون على أنّه ليس في الأرض أمّة السّخاء فيها أعمّ، وعليها أغلب من الزّنج، وهاتان الخلّتان لم توجدا قطّ إلاّ في كريم "[93] وذكر محاسنهم " وليس في الأرض أمّة في شدّة الأبدان وقوة الأسر، أعمّ منهم "[94]، ولعلّ ذاك ما حفّزهم في زراعة الأرض[95].

ويضيف الجاحظ، بأنّهم نتيجة قوّة أبدانهم مؤهلين للأعمال الشّاقة "حتّى أنّ الرّجل ليرفع الحجر الثّقيل الّذي تعجز عنه الجماعة من الأعراب وغيرهم، وهم شجعان أشدّاء الأبدان أسخياء، وهذه هي خصال الشّرف "[96]، وهو ما يجعل الاستغناء عنهم غير ممكن في المجتمع العبّاسي، الّذي يحتاج إلى بناء المدن والاهتمام بالفلاحة.

ثمّ إنّ حُسن خلق الزّنوج، ونزوعهم إلى السّخاء أمر يجعل اختلاطهم بالسّكان المسلمين خاصّة العرب سهل، عكس ما ميّز الأتراك، فالزّنجيّ حسب الجاحظ " مع حُسن الخُلق، وقلّة الأذى، لا تراه إلاّ طيّب النّفس، ضحوك السّنّ، حسن الظّنّ، وهذا هو الشّرف "[97].

يركّز الجاحظ على ما يقربهم للّسان العرب، خاصّة تميّزهم بالخطابة " والرّجل منهم يخطب عند الملك بالزّنج، من لدُن طلوع الشّمس إلى غروبها، فلا يستعين بالتفاتة ولا بسكتة حتّى يفرغ من كلامه "[98]، ولماذا لا يسمعه الآخرون ورائحة أفواه الزّنوج طيّبة، ما أشارإليه الجاحظ " إنّ أطيب النّاس أفواها الزّنج، وإن كانت لا تعرف سواكا ولا سنونا "[99].

ونظرا لتلك الصّفات، فقد قدّرهم العرب، وقابلهم الزّنج بالمثل " وللعرب في قلوب الزّنج هيبة عظيمة، فإذا عاينوا رجلا منهم سجدوا له، وقالوا:" هذا بن مملكة، تنبت في بلادهم شجر التّمر، لجلالة التّمر في صدورهم؛ ولأنّ العرب إنّما يصرفون صبيانهم بالتّمر "[100].

وربّما نتيجة لطبيعة المهن الّتي يمارسها الزّنج في الدّولة الإسلاميّة، استنتج الجاحظ أنّ أغلبهم من الطّبقة الدّنيا، وأنّهم من السبيّ أصلا، انتقلوا إلى الدّولة الإسلاميّة " وأنتم لم تروا الزّنج الّذين هم الزنج قطّ؛ وإنّما رأيتم السّبي، يجيئ من سواحل قنبلة[101] وفيافها وأوديتها ومن مهنتنا وسفلتنا وعبيدنا، وليس لأهل قنبلة جمال ولا عقول "[102]، ممّا يؤكّد أنّ الزّنج في الدّولة العبّاسيّة لا نفوذ لهم داخل القصور.

ومع دناءة أوضاعهم، فقد نسب البعض سخاءهم لضعف عقولهم[103]، وهو ما دفع الجاحظ إلى الدّفاع عنهم؛ بل وينفي أن يكون السخاء وهو خصلة عربيّة، ناتج عن ضعف العقول "فكيف صارت قلّة العقل هي سبب سخاء الزّنج؟ "[104]، سيّما وأنّ أحد الشّعراء[105]، يتغنّى بهذه الخصلة فيهم، حتّى أنّهم فاقوا بعض قبائل العرب فيها، كما أنّ ميزة ذوي ضعف العقل، تمثّلت في تمسّكهم بآرائهم، فمن الصّعب إقناعهم فيما بعد، وهو ما قد يكون سببا في مشاكل سلبيّة على الدّولة العبّاسيّة، ويلاحظ تركيز الجاحظ على الجانب العقلي، ربّما للوقوف على مدى تهيئ التركيبة الاجتماعيّة نسبيّا، لتقبّل مبادئ الاعتزال والجاحظيّة الّتي هو أحد المقرّرين لها.

3- من حيث الأديـان:

كانت الدّولة العبّاسيّة من وجهة دينيّة خلافة إسلاميّة على رأسها خليفة مسلم، انقسم مجتمعها من حيث الأديان إلى مسلمين وأهل ذّمّة وغيرهم، ممّن لا كتاب لهم.

- **المسلمـون:**

المسلمون فروع، منهم أهل السّنّة ومنهم الشّيعة[106] بأقسامها، لكنّ الملاحظ أنّ الجاحظ يركّز في كتبه خاصّة على أهل السّنّة، يلقبهم بالنّابتة[107]، مركّزا على أهمّ ما يختلفون فيه عن المعتزلة؛ مسألتا الجبروالتّشبيه، فالمعتزلة تنفي التّشبيه، وتطالب بحريّة الإرادة في الأفعال نفيّا منها للجبر، وإن كان أهل السّنّة يرتبطون لتأكيد رأيهم بالنّصوص القرآنيّة، فإنّ أهل الاعتزال يتمسّكون بالعقل لتبرير وتأكيد دعاويهم، بل ويشابه ادّعاءاتهم بما تقوله الرّافضة[108] " النّابتة تقول بالجبر والتّشبيه، حتّى نبتت هذه النّابتة وتكلّمت هذه الرّافضة، فقالت:" جسمًا، وجعلت له صورة وحدًّا، وأكفرت من قال بالرّؤيّة على غير التّجسيم والتّصوير "[109].

وربّما في هذا إشارة إلى أنّ أهل السّنّة وتمسّكهم بمبادئهم، هو الّذي سمح لغيرهم التّفصيل أكثر في التّشبيه، ما قد يدخل في باب الكفرعند المعتزلة، ممّا يؤكّد أنّ المشكلة هي غياب التّوحيد عند أهل النّابتة، الّذي على ما يبدو أنّهم من الشّيعة الرّافضيّة، ادّعوا أنّهم فرع من أهل السّنّة والجماعة لتشويه سمعة هذه الفرقة عند المسلمين وغيرالمسلمين، ومنه الحطّ من مكانة الأسرة الهاشميّة الحاكمة، فالجاحظ على مايبدو، لا يؤمن بكلّ دعاوي الفرق الشّيعيّة "إعلم رحمنا الله تعالى وإيّاك، أن الشّيعة رجلان، زيدي ورافضي، وبقيتهم بدد لا نظام لهم "[110].

إنّ مقارنة بسيطة بين مبادئ الرّافضة وأهل السّنّة، تؤكّد تباعد الطّرفين، بل هما متعاكسين تماما، فالأولى تعبير عن فرقة إسلاميّة هي الشّيعة، رفضت رأي زيد بن عليّ[111] في خلافة أبي بكر وعمر بن الخطّاب رضي الله عنهما، فعلى رأيّهم، لا تصلح الإمامة إلاّ في ولد عليّ بن أبي طالب والصّلاة المفروضة في كلّ يوم وليلة خمسون ركعة، أخطأ جبريل بالوحي، استحلال أموال اليتامى والمتعة واتّخاذ الأئمة أربابا[112].

أمّا مبادئ السّنّة، فهي مأخوذة من سنّة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، أي طريقته ومنهجه واتّخذت الكلمة مدلولا اصطلاحيّ يدلّ على جمهرة المسلمين، الّذين اتّخذوا القرآن والحديث النّبوي الشّريف منهاجا لهم ودستورا في حياتهم الدّنيا، فالمسلم السّنّي مطالب بالإيمان بالله والملائكة والكتب والرّسل، وممّا رواه الثّقاة عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، كما أنّ الله واحد فرد صمد، وأنّ محمّدا عبده ورسوله، وأنّ الله يبعث من في القبور، وعند السّنّة تقوم أربعة مذاهب، تمثّل الفقه الإسلامي والعقيدة الواحدة، وإن اختلفت في الفروع فهي تتّفق في الأصول، ويعدّ مذهب أهل الحديث والظّاهريّة كلّهم ضمن الاتجاه السّنّي[113] .

ويبدو أنّ ثمّة صراعا فكريّا عقديّا، قام بين أهل المذاهب، لتشكيك أهل السّنّة في دعاويهم فالمشّبّهة تحيّروا في تقرير مذهب أهل السّنّة والجماعة في متشابّهات آيات الكتاب الحكيم[114] وصرّح جماعة أصحاب الحديث الحَشَويّة[115] وجماعة من الشّيعة بالتّشبيه، لدرجة أنّهم قالوا:"أنّ معبودهم على صورة ذات أعضاء، إمّا روحانية أو جسمانية، ويجوز عليه الانتقال والنّزول والصّعود والاستقرار"[116].

ذكرالجاحظ أهم مبادي النّابتة " النابتة تقول بالجبر والتّشبيه [117]، مشيرا إلى غياب التّوحيد عندهم والمغالاة في تصويرالله " حتّى نبتت هذه النّابتة، وتكلّمت هذه الرّافضة، فقالت: "جسما وروحا، وجعلت له صورة وحدّا، وأكفرت من قال بالرّؤية على غير التّجسيم والتّصوير " [118].

ويظهر أنّ مشبهة الحشويّة، قد أجازوا على ربّهم الملامسة والمصافحة، وأنّ المسلمين المخلصين يعانقونه في الدّنيا والآخرة، إذا بلغوا في الرّياضة والاجتهاد حدّ الإخلاص والاتّحاد المحض "[119]، وربّما تأكيد الجاحظ على ذكر هذه الفئة لإبراز خطرها على تغييب التّوحيد عند المسلمين، ونظرا لأنّ الأغلبيّة من أهل السّنّة والجماعة على مذهب الإمام أحمد بن حنبل[120] وهو من أصحاب الحديث، فقد زاد مشبّهة الحشويّة في الأخبار أكاذيبا، وضعوها، ونسبوها إلى النّبي صلّى الله عليه وسلّم، وأكثرها مقتبسة من اليهود، حتّى قالوا:" اشتكت عيناه، فعادته الملائكة وبكى على طوفان نوح، حتّى رمدت عيناه "[121] .

تعدّ مسألة خلق القرآن أهمّ مادعت إليه المعتزلة، ووقف ضدّها أهل السّنّة والجماعة حتّى استغرب الجاحظ في كون لغة العرب تساوي بين التّقدير والخلق، والنّابتة ترفض أن تساوي بينهما، ممّا يؤكّد أنّ النّابتة أعلنت صراحة أنّها تتّبع أهل السّنّة في رفضها لفكرة خلق القرآن حتى تكسب لها ودّ أهل السّنّة والنّاس، فظهرت كناطق رسمي على لسانهم.

كان الجاحظ يستعمل لفظ النّابتة كمرادف لأهل السّنّة والجماعة، رغم ما بيّنت من وجه الاختلاف بينها " النّابتة تقول القرآن غير مخلوق، والعجب أنّ الخلْق عند العرب، إنّما هو التّقدير نفسه، فلذا قالوا: خلق كذا وكذا، ولذلك قال:" أَحْسَنِ الخَالِقِينَ "[122] وقال:" وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِينِ كَهَيْئَةِ الطَيْرِ "[123] قال: " صنعه وقدّره وأنزله وفصّله وأحدثه ومنعوا خلقه، وليس تأويل خلقه أكثر من قدّره، ولو قالوا: بدل قولهم، قدّره ولم يخلقه، ما كانت المسألة عليهم من وجه واحد "[124].

لم تكتف المشبّهة بإعطاء الصّفات الجسمانيّة لله؛ بل روت أنّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم قال:"لقيني ربّي، فصافحني وصافحني، ووضع يده بين كتفي، حتى وجدْتُ برْد أنامله "[125] وزادوا على التّشبيه، قولهم في القرآن عن الحروف والأصوات والرّقوم المكتوبة، قديمة، أزليّة وقالوا: لا يُعقل كلام، ليس بحروف ولا كلم، ورووا أنّ موسى عليه السّلام، كان يسمع كلام الله كجرّالسّلاسل، قالوا: " أجمعت السّلف على أنّ القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال: هو مخلوق، فهو كافر، ولا تعرف من القرآن إلاّ ماهو بين أظهرنا، فنبصره ونسمعه ونقرؤه ونكتبه "[126].

يرى الجاحظ في رفض فكرة خلْق القرآن كفرا فما بعده كفر، ومنه فهو وإن تفطّن لخطر النّابتة على أهل السّنّة، فهو يشيرإلى توريط هذه الفئة الضّالة المعروفة بالنّابتة في كسب المعتزلة كعدوّ لها، وربّما ذاك ما جعله يكشف خباياها، من أنّها مرض ينخر في جسد فرقة أهل السّنّة والجماعة، لإحداث حرب بينها وبينهم، ويخلو المجال للمعتزلة للدّعوة للاعتزال ومبادئه والأكثرأنّه يرى أنّهم أشدّ خطرا من أهل المنزلة بين المنزلتين، الّذين وصفهم المعتزلة بالفسّاق "وقد كانت هذه الأمّة لا تجاوز معاصيها الإثم والضّلال، إلاّ بإكفارهم، إلاّ ما حكيت لك عن بني أميّة وبني مروان وعمّالهم، ومن لم يدنِ بإكفارهم، حتى نجمت هذه النّوابت، وتابعتها هذه العوام، فصار الغالب على هذا القرن الكفر، وهو التّشبيه، فصاركفرهم أعظم من كفر من مضى في الأعمال، الّتي هي الفسق "[127].

إنّ وصفا كالّذي سبق لتردّي الحالة الإيمانية للمجتمع العبّاسي، يفرض ضرورة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وهو ما يفهم منه أنّ الجاحظ يُعظّم الدورالإيجابي للمعتزلة ورجالها في كشف حقيقة المشبّهة وعلى رأسهم النّابتة، فتكسب المعتزلة شعبيّة، ويرى أنّ المعرقل لوصول الفكر الاعتزالي إلى النّاس، هو وجود شخص الإمام أحمد بن حنبل، الّذي كان مذهبه يلقى قبول الأغلبيّة، فوجوده بين أظهر تابعيه، يقوّي صفّهم، ويرسّخ مبادئه أكثر.

فالمعتزلة عليها الإهتمام بإقصاء هذا الزعيم من السّاحة الإيمانيّة، حتّى تجد فكرة خلق القرآن مكانا لها وسط الرّعيّة، ويسخر الجاحظ من أحمد بن حنبل ويصفه بالمقلّد، كون رفضه لفكرة خلق القرآن، سببها أنّه لم يقل بها سلفه " النّابتة يتابعون الإمام أحمد بن حنبل في مسألة خلق القرآن، والعجب أنّ الّذي منعه بزعمه أنّه يزعم أنّه مخلوق، أنّه لم يسمع ذلك من سلفه " [128] وكان الجاحظ يريد التأكّيد، أنّ أهل السّنّة والجماعة، كالعوام، مقلّدون لا عقليّين.

يرى الجاحظ أنّ السّاحة الدّينيّة العبّاسيّة فيها تحالفا بين أهل السّنّة والرّافضة ضدّ المعتزلة " والنّابتة اليوم في تألّم من المعتزلة، عددهم كثير ونصبهم شديد والعوام معهم والحشو يطبعهم الآن معك أمران؛ السّلطان وميلهم إليه وخوفهم منه "[129]، إذن هناك إشارات من الجاحظ إلى اتّساع دائرة النّابتة، الّتي تدّعي أنّها من أهل السّنّة والجماعة، وتحاول الرّافضة أن تجد لها شعبيّة، استنادا الى التّشابه القائم مع بعض مبادئ النّابتة، فتسايرها في أفكارها، وهو ما يهدّد المعتزلة، ويحول دون انتشار مبادئهم في الوسط العبّاسي تحديدا خاصّة وأنّ الخليفة العبّاسي سنّي، هاشمي، وهو ما استدعي حسبما فهمت ضرورة استمالة المعتزلة للخلفاء للاعتزال وعلى رأسه فكرة خلق القرآن.

ويظهرأنّ المعتزلة وعلى رأسها الجاحظ، تهتمّ بالمجتمع العبّاسي قاعدة وحكما، وربّما كان في إشارته إلى تحديد مفهوم المتكلّم، دعوة غير صريحة إلى تحالف من تعنيهم تسمية متكلّم مع المعتزلة، للوقوف ضدّ أهل السّنّة والجماعة، وإنقاص شعبيتهم " المتكلّم اسم يشتمل على ما بين الأزرقي[130] والغالي[131]، وعلى ما دونهما من الخارجي والرّافضي، بل على جميع الشّيعة وأصناف المعتزلة؛ بل على جميع المرجئة[132]، وأهل المذاهب الشّاذّة[133]، والملاحظ أنّه لم يشر إلى تعميم مصطلح المتكلّم على أهل السّنّة والجماعة، كما قد يضّم أيضا النّابتة على أساس أنّ الفرع الّذي كشفه لنا الجاحظ منهم هو من الرّافضة.

- أهـل الذّمّة:

ضمّ المجتمع العبّاسي الإسلامي عناصرا غير مسلمة، بعضها له كتاب كالنّصارى واليهود والبعض الآخر ليس له كتاب، مثل؛ المجوس والهنود والصّابئة وغيرهم.

1- النّصارى:

يشير الجاحظ في مؤلّفاته إلى أنّ النّصرانيّة دين، أكثرها في بلاد العرب "وغلبت النّصرانيّة على ملوك العرب وقبائلها "[134]، أيّ وجود النّصارى في المجتمع الإسلامي ليس جديدا في المجتمع العبّاسي؛ بل قديم كما يخصص الجاحظ القبائل الّتي تدين بها "وأمّا أديان العرب، فإنّ النّصرانية كانت في ربيعة[135] وغسّان[136] وغيرهما[137]، بل الأكثر أنّ التّقبّل السّكاني لها كان كبيرا " أنّ العرب[138]

كانت النّصرانيّة فيها فاشية وعليها غالبة، إلاّ مضرّ، لا تقبل يهوديّة[139]، ولا مجوسيّة "[140]، وفي ذلك تمجيدا منه لتميّز قبيلة مضرّعن غيرها، بعدم تقبّلها لأيّ من هذه الأديان قبل الإسلام؛ ولا غريب في ذلك منه، لأنّه من كنانة وكنانة من مضرّ.

يصف سوء نوايا النّصارى في بلاد الإسلام، بتدخلّهم في حريّة العقيدة الإسلاميّة، للتّبشير بدينهم " على أنّ هذه الأمّة، لم تبتل باليهود ولا المجوس ولا الصّابئين، كما ابتليت بالنّصارى وذلك أنّهم يتّبعون المتناقض من أحاديثنا، والضعيف من الإسناد من روايتنا، والمتشابه من آي كتابنا [141]، ثمّ يخلَوْن بضعفائنا، ويسألون عنّا وعوامنا، مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزّنادقة والملاعين، وحتّى مع ذلك ربّما تبرأوا إلى علمائنا وأهل الأقدار منّا "[142] .

ويبدو أنّ الجاحظ يُعظم دور المعتزلة كبيرا في الدّفاع عن العقيدة الإسلاميّة، باستعماله نون الجماعة في كلامه، وربّما فيه من الإشارة إلى ضرورة اتّحاد الفرق الدّينيّة للدّفاع عن العقيدة، كما قد يكون في ذلك إشارة منه إلى الاحتياط من الصّديق العدوّ، الممثّل في النّصارى والمتسامح معه من كلّ الفرق الدّينيّة في الدّولة العبّاسيّة.

ولعلّ ما يؤكّد ما ذهبت إليه من استنتاج إشارته إلى اختلاف الصّفّ المسيحي بين طوائف المسيحيّة، خاصّة بين الملكانيّة[143] والنّسطوريّة[144] واليّعقوبيّة[145] وغيرها، واتّفاقهم على ضرب الدّين الإسلامي، بتشتيت شمل المسلمين " ولو جهدت بكلّ جهدك، وجمعت كلّ عقلك، أن تفهم قولهم في المسيح، لما قدرت عليه، حتى تعرف به حدّ النّصرانيّة، وخاصّة قولهم في الإلهيّة "[146].

يؤكّد سوء فهم النّصارى لدينهم؛ بل استحالة إيجاد أحد منهم متديّن بحقيقة النّصرانيّة، وهو ما جعل الجاحظ يستفهم مستعجبا أمرهم " وكيف يقدر على ذلك، وأنت لو خلوت ونصرانيّ نسطوريّ، فسألته عن قولهم في المسيح، لأتاك بخلاف أخيه "[147]، وكأنّه يدعو إلى عدم أخذ المسلمين وخاصّة المعتزلة من النّصارى مثلا تبعا لأقوالهم فقط، خاصّة وأنّ من النّساطرة من ينفي التّشبيه، ويثبت القول بالقدر خيره وشرّه من العبد، كما قالت القدريّة "[148] ، كما يركّز على خطر غيرعم من الملكانيّة واليعقوبيّة " وكذلك جميع الملكانيّة واليعقوبيّة، ولذلك صرنا، لا نعقل حقيقة النّصرانيّة، كما نعرف جميع الأديان "[149].

2- **المجـوس:**

يذكرهم الجاحظ في كتبه أحيانا بالمجوس وأحيانا أخرى بالزّرادشتيّة[150]، الّتي ذهب البعض إلى تحديد مكان تواجدها في تميم[151] من بلاد العرب [152]، وقيل: " أنّ بعض مقابر الخيزران"كان مقابر المجوس قبل بناء بغداد "[153]، كما يصفهم ابن قيّم الجوزيّة بأسوإ الصفات على الإطلاق " فإنّ المجوس من أخبث الأمم دينا ومذهبا، ولا يتمّسكون بكتاب ولا ينتمون إلى ملّة ولا يثبت لهم كتاب ولا شبهة كتاب أصلا "[154]، ويفصّل الجاحظ عبادتهم ومعالمها دليلا على درايته بها " المجوس تقدّم النّار في التّعظيم على الماء، وتقدّم الماء في التّعظيم على الأرض، ولا تكاد تذكر الهواء "[155].

وبلغ ارتباط ديانتهم بالطّبيعة لحدّ أنّ زرادشت قرَن عقاب مذنبيهم ببعض الظواهر الطّبيعية " وزرادشت هو الّذي عظّم النّار، وأمر بإحيائها ونهى عن إطفائها ونهى الحيض عن مسّها والدّنوّ منها، وزعم أنّ العقاب في الآخرة، إنّما هو بالبرد والزّمهرير"[156]، فهناك اعتقاد لدى هذه الطائفة، في أنّ أهل المعاصي يلقوْن عقابا، ما يدّل على وجود نواهي وأوامر عندهم.

وربّما ذاك ما دفع البعض لاعتبار زرادشت نبيّا، نزل عليه الوحي " وزعم أصحاب الكلام أنّ زرادشت،صاحب المجوس، جاء من بلخ[157]، ادّعى الوحي نزول عليه، وأنّه حين عاد لسكّان تلك النّاحيّة الباردة، الّذين لا يعرفون إلاّ الأذى بالبرد، ولا يضربون المثل إلاّ به، حين يقول الرجل لعبده:لئن عدْت إلى هذا، لأنزعنّ ثيابك ولأقيمنّك في الريح، ولأوقعنّك في الثلج "[158].

إذن هناك حدود قائمة لأشكال المعاصي عندهم، وليس هناك تصرّفات فردية مطلقة فمعاصيهم على ما يبدو تختلف عن تلك الموجودة عند غيرهم، خاصة المسلمين، سيّما إذا علمنا أنّ ماهو محرّم عند المسلمين، مباح عند هذه الطائفة " زرادشت بهذا الفعل دعا النّاس إلى نكاح الأمّهات، والتوضإ بالأبوال "[159].

ويبرز الجاحظ تخلّف معتنقيه وعدم نظافتهم، متقزّزا منهم بقوله:" ولولا أنّه صادف دهرا في غاية الفساد، وأمّة في غاية البُعد من الحريّة، ومن الغيرة والأنفة ومن التّقزّز والتّنظّف، لما تمّ له هذا الأمر"[160]، وقد يفهم من رأيه هذا، أهميّة إصلاح المجتمع وتربيّته على الفضيلة بإبعاده عن المعاصي، بتربية كلّ فرد لنفسه، فلو كان مجتمع زرادشت بهذه الصفات الأخلاقية والثّبات على الحقّ والطّهارة، لما تقبَّلَ الزّرادشتيّة دينا أصلا، فغياب الفضيلة من هذا المجتمع، ولّد عنده قابلية تقبّل هذا الدّين، فالإنسان المتين الأخلاق، هو الّذي يستطيع أن يناقش المسائل الأخلاقيّة لذلك فغيابها عند أفراد هذا المجتمع، أعاق ظهور قواعد تُحكم بها الرّعيّة.

فالأخلاق حسب الجاحظ ضروريّة لدعم أي دين، ولعلّ في ذلك إشارة إلى ضرورة تكوين جيل مسلم متحلٍّ بالأخلاق، الّتي تقرّها المعتزلة، حتّى تلقى مكانا لها عند كلّ الأفراد وينبّه الجاحظ إلى خطورة أهل المجوس من تكرار ما فعل زرادشت على بلاد الإسلام، وخاصّة الدّولة العبّاسيّة " وقد زعم أناس أنّ ذلك إنّما تمّ؛ لأنّه بدأ بالملك، فدعاه على قدر ما عرف من طباعه وشهوته وخلقه، فكان الملك هو الّذي حمل على ذلك رعيّته "[161]، وهذا يشبه تماما ما سيحدث من سلب لحريّة الإرادة في حقّ الخليفة المأمون، ودعوته لفكرة خلق القرآن قصرا.

كما يظهرتفطّن الجاحظ قبليّا لمكائد المجوس، بالدّعوة غير الصّريحة إلى ضرورة إبعادهم من الوصول إلى قصر الخلفاء[162]، مخافة تكرار انتشاردعوة المجوس، كما نستشفّ منه أيضا سوء تردّي أخلاق الرّعيّة في العهد العبّاسي لدرجة تشبه مجتمع زرادشت، خاصّة وأنّ في تاريخ انتشار دينهم، أنّ صاحب المجوس بدأ نشر دعوته بالملك قائلا له: " إنّي رسول الله إليك وآتاه بالكتاب الّذي في أيدي المجوس، فآمن ودان بالمجوسيّة، وحمل عليه أهل مملكته فأجابوه طوعا وكرها "[163] .

ويرى الجاحظ أنّ تقبّل الرّعيّة لأيّ دين، لا يمكن أن يكون كرها؛ " لأنّه لا يجوز، أن يكون الملك حمل العامّة على ذلك "[164]، وعليه ففي كلّ ما سبق إشارات من الجاحظ، التّنبيه لهذه الطّائفة، الّتي يمكن أن تبشّر بالمجوسيّة في المجتمع الإسلامي العبّاسي، الّذي تردّت حالته الأخلاقية، وكيف لا يحاول المجوسيون ذلك؟ خاصّة وأنّ جزءا من أرضهم صارت في بلاد الإسلام " بلخ"، وكان بها بيت النّار، الّتي كانت تعبدها المجوس "[165]، ويقدّم الجاحظ قبيلة مضرّ كرمز لرفض هذا الدّين " إلاّ مضرّ، فلم تغلب عليها مجوسيّة، ولا يهوديّة "[166].

يعتبر الهنود من المجوس، بحكم ديانتهم، ومنه فتواجدهم في الدّولة الإسلاميّة هو استمرار لتطبيق تعاليم المجوسيّة للّذين يؤمنون بها، حتّى أنّ عبادة النّيران كانت قد بقيت في أراضيهم "ثمّ انقطعت عبادة النّيران من أكثر هذه الأماكن، إلاّالهند، فإنّهم يعبدونها إلى يومنا هذا "[167]وهذا يؤكِد وجود المدافعين عنها لبقائها، وذاك ما دفع بعض المؤرّخين لذكرسبب بقائها الممثل في عدم اقتصار تطبيقها على الرّعيّة فقط، بل تمسّك ملوك الهند بها " وعلى هذا المذهب أكثر ملوك الهند وعظّمائها، يعظّمون النّارلجوهرها تعظيما بالغا، ويقدّمونها على الموجودات كلِّها "[168].

ومن أهل الهند من وصل لدرجة الزّهد، داعيّا إلى الأخلاق، وهو ما قد يُظهر للمسلم في المجتمع العبّاسي تشابها بين تعاليمهم الأخلاقيّة وتعاليم الدّين الإسلامي، لكنّ مشكلة الأخلاق عندهم مرتبطة بالنّار، والأخلاق عند المسلم مرتبطة بالله والقرآن والسنّة " منهم زهّاد وعُبّاد يجلسون حول النّار صاغين، يسدّون منافسهم، حتّى لا يصل إليها من أنفاسهم نفَس، صدَرَ عن صدر مجرم، وسُنّتهم الحثّ على الأخلاق الحسنة والمنع من أضدادها، وهي الكذب والحسد والحقد والحِرص والبغيّ والبصر، فإذا تجرّد الإنسان منها، تقرّب من النّار "[169].

وعلى هذا، فإنّ المسلم حديث العهد بالإسلام ستختلط عليه الأمور، فالدّيانات قد تتشابه في بعض التّعاليم، لكن تختلف في كيفيّة تطبيقها، كما تختلف في حقيقة المعبود ذاته ووصفه وهو ما قد يؤثر حتما على التّوحيد في المجتمع الإسلامي العبّاسي وقتها، وهو ما يجعل دوررجال

المعتزلة عظيما، ومهمّا لتبيان حقيقة العقيدة الإسلاميّة، والدّفاع عنها، خاصة وأنّ ما وصل الهند من تعاليم إسلاميّة، يُحتمل أنّه مسّه التشويه، كون الإسلام دخلها من جهة خراسان وما وراء النّهر[170].

ويبدو في ذكر الجاحظ لعلوم أهل الهند،، من حكمة وفنون مقتبسة من غيرهم من غير المسلمين، أكبرمساعد على تشويه حقيقة الدّين الإسلامي " كانت صناعة أهلها من قدم الزّمان فنون الفلسفة وحكمة اليونان، وكان قصارى نظرهم في علم النحو والفقه والأصول والكلام على طريق التّقليد "[171]، ولم تقتصر المجوسيّة على الهنود وحدهم؛ بل شملت أيضا الصّقالبة، فمنهم النّصارى ومن يقولون بالمجوسيّة، ويعبدون الشّمس"[172]، وهذا ما يظهر، أنّ الوافدين إلى المجتمع الإسلامي، وإن دخلوا الإسلام، فإنّ عاداتهم وتقاليدهم، تتطّلب جهودا من أهل الإسلام لتغيير ما عندهم.

ولعلّ ذاك ما هو منوط بالدّرجة الأولى بالمعتزلة ورجالها، كما أنّه من الضّرورى معاملة المجوس، وإن لم يسلموا بالحسنى، فقد وُجد في الأثر، أنّ مجوسيّا حضر عند الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، فجعل تحته وسادة حشوُها قزّ، وأكرمه، ولما نهض قال عمر ﷺ:هذا مجوسي، فقال الرّسول صلّى الله عليه وسلّم: قد علمتُ، ولكن أمرني جبريل عليه السّلام، أن أُكرم كريم كلّ قوم "[173].

3- اليهـود:

اليهود أمّة موسى عليه السّلام وكتابهم التّوراة، تدّعي أنّ الشّريعة، لا تكون إلاّ واحدة ابتدأت بموسى، وتمّت به، ولم يجيزوا النّسخ، ومسائلهم تدورعلى جواز الشّح ومنعه وعلى التّشبيه ونفيّه والقول بالقدر والجبر، وتجويز الرّجعة، واستحالتها "[174]، لم يكثر الجاحظ من ذكر اليهود في مؤلّفاته، ربّما لأنّه رآى في غيرهم خطرا على الإسلام وقتها، أكثرمنهم "على أنّ هذه الأمّة، لم تبتل باليهود ولا المجوس "[175]، وحددّ بعض المؤرّخين بعض مواطن تركز اليهوديّة في بلاد الإسلام[176].

يشير الجاحظ إلى تعالي اليهود بدينهم وتميزهم وموقفهم من العقل ومنه الفلسفة " اليهود ترى في الفلسفة كفر، والكلام في الدّين بدعة، وأنّه مجلبة لكل شبهة، وأنّه لاعلم إلاّ ما كان في التّوراة وكتب الأنبياء، وأنّ الإيمان بالطّبّ وتصديق المنجّمين من أسباب الزّندقة والخروج إلى الدّهريّة[177]، والخلاف على الأسلاف وأهل القدوة "[178]، وعليه فهذا يعيق إختلاطهم بالمسلمين وغيرهم، ثمّ إنّ باب التّقليد عندهم غير مفتوح، لارتباطهم بما في دينهم، وما دامت التّوراة فيها كل ما يريدون " ونسك اليهودي إقامة السّبت "[179].

4- الصّابئة:

هم قوم لا نصارى ولا يهود ولا دين لهم، وقيل:" الصّابئة[180] بين المجوس واليهود"[181] ويفضلهم ابن قيّم الجوزية عن اليهود " الصّابئة أحسن حالا من المجوس، فأخذ الجزية من المجوس تنبيه على أخذها من الصّابئة "[182]، ومن العرب من كان يميل إلى الصّابئة، ويعتقد في الأنواء اعتقاد المنجّمين في السّيارات؛ حتّى لا تتحرّك ولا يسكن ولا يسافر ولا يقيم، إلاّ بنوع من الأنواء "[183]، ولم يقتصر الاعتقاد بها على العرب وحدهم؛ بل شمل أيضا الهنود " وأكثرهم من الصّابئة "[184].

يذكرهم الجاحظ في بعض عاداتهم الغريبة عن أخلاق المسلمين " فأمّا الصّابؤون، فإنّ العابد منهم ربّما خصيّ نفسه، فهو في هذا الموضع قد تقدّم الرّومي، فيما أظهر من حسن النّيّة وانتحل من الدّيانة والعبادة بخصاء الولد التّام، وبإدخاله النّقص على النّسل "[185]، والغريب أنّ الخلفاء العبّاسيّين كانوا يقرّبون الرّعيّة على أساس صفة الإنسان ، لا الدّين ولا العادات، فذكر الجاحظ لنا مثالا " كما فعل ذلك أبو مبارك الصّابىء، ومازال خلفاؤنا، وملوكنا يبعثون إليه ويسمعون منه، ويسمر عندهم للّذي يجدونه عنده من الفهم والإفهام وطُرف الأخبار ونوادر الكتب، ولم أسمع قطّ بأغزل منه وإن كان يصدق عن نفسه، فما في الأرض أزنى منه "[186].

4- طبقات المجتمع العبّاسي:

كرّر الجاحظ ذكر الطبقات بالنّسبة للسّكان وكذا بالنسبة للكلام " وكلام النّاس في طبقات كما أنّ النّاس[187] أنفسهم في طبقات "[188] ، وذكر هذا بعض المؤرّخين في مواضع مختلفة " وحين جلس المهدي للعزاء ثلاثة أيّام على العادة، جلس بعد ذلك جلوسا عامّا للهناءة، ودخل النّاس على طبقاتهم "[189] لما له من علاقة بينهما في دراسة مظاهر الحياة الاجتماعيّة للمجتمع العبّاسي

لذا وجب معرفة طبقاته وعلاقاتها ببعضها وبالقصر العبّاسي، لأنّ كلّ ذلك سينعكس حتما على جديد المجتمع ومعاشه اليومي، وكذا علاقاته ببعضه وبالوافد عليه، لذا رأيت ضرورة دراسته في طبقتين هما العامّة والخاصّة.

أ- طبقة العامّة:

- تعريـف العامّـة:

للعامّة تعاريف متعدّدة، فصاحب لسان العرب نقلا عمّا سمع من غيره أنّها " خلاف الخاصّة، وسميت بذلك لأنّها تعمُّ بالشّرّ"[190]، وفي موضع آخر عرّفها بأنّها " الرّعيّة، أي كلّ من شمله حفظ الرّاعي ونظره "[191]، كما ذهب البعض إلى أنّ تسمية العامّة، نسبة إلى كثرة أفرادها[192]، وعدم إحاطة البصر بهم، وسمّوهم السّوقة "[193] .

وربّما عُرفت العامّة من لغة التّعامل معها " وكما لا ينبغي أن يكون اللّفظ عاميّا وساقطا فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيّا، إلاّ أن يكون المتكلّم بدويّا أعرابيّا، فإنّ الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من النّاس، كما يفهم السوقي رطانة السّوقي "[194]؛ بل أنّ العامّة تُوَلّد الكلام حتّى تميّزت بما تقول[195].

كما يفهم من قول الجاحظ أنّ العوام، هم أهل السّنّة والجماعة[196]، على اعتبارأنّ أكبر شعبيّة كانت لهم، كون الدّولة العبّاسيّة سنّيّة، ويرى ضرورة تفريقهم حتّى لا يجتمعوا على كلمة"إذا كان مع التّلاقي، يشتدّ التّصنّع، ويكثر التّظالم وتفرط العصبيّة وتقوى الحميّة، وعند المواجهة والمقابلة يشتدّ حبّ الغلبة وشهوة المباهاة"[197]، مشيرا إلى وجود منظّمين وقادة لهذه الفئة استطاع المعتزلة تحويلهم إليهم وهو ما زاد في تأثّر المجتمع بهم، واصفا ذاك بالمحنة "وحتّى تحوّل إلينا من قادتهم ومن أعلامهم والمطاعين فيهم...ويزعمون أنّ لكلّ زمان تدبيرا ومصلحة "[198].

وأعتقد أنّ مفهوم العامّة عند الجاحظ، شمل كلّ من لم يكن معتزليّا مسلما كان أو ذميّا عربيّا أو غير ذلك من البنية الاجتماعيّة الّتي ذكرناها، ودليل ذلك رصْد الجاحظ لألفاظ من كلامها " والعامّة ربّما استخفّت أقّل اللّغتين وأضعفهما، وتستعمل ما هو أقلّه في أصل اللّغة استعمالا، وتدع ما هو أظهر وأكثر"[199]، وظهر ذلك في لكنتهم " فأمّا لكنة العامّة، ومن لم يكن له حظّ في المنطق، فمثل، قيل: مولى زياد، قال مرّة لزياد: " أهدوا لنا همارا وهش"[200].

العامّة بالنسبة له كما ذكرت بعض المراجع ليست الأمم الأخرى، ولا الفرق المادّي بين الأفراد، ولكنّه من خلال ما سبق ينبّه إلى الفرق ما بين المثقّفين وعامّة الأجناس، ويجعلنا أمام فئات تمتاز بثقافتها المتوسّطة، وتسمو في مرتبتها الاجتماعية على فئات أخرى، فذكرصراحة "وإذا سمعتموني أذكر العوّام، فإنّي لست أعني الفلاّحين والحشوة والصّنّاع والباعة، ولست أعني أيضا الأكراد في الجبال، وسكان الجزائر في البحار، ولست أعني من الأمم مثل البربر والطّيلسان وجيلان ومثل؛ الزّنج وأشباه الزّنج، وإنّما الأمم المذكورون من جميع النّاس أربع: العرب وفارس والهند والرّوم والباقون همج وأشباه الهمج، وأمّا العوام من ملّتنا ودعوتنا ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا، فالطبقة الّتي عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم، ولم يبلغوا منزلة الخاصّة منّا "[201].

- صفات العامّة وعناصرها:

ذكر الجاحظ صفات هذه الطّبقة " العامّة أسرع إلى التّصديق"[202]، ومنه فهي تتقبّل كلّ ما ترى وتسمع، دون إمعان للعقل، وربّما مبالغة من الجاحظ، تتشابه في شهوتها للأطعمة " وهذه العوام في شهوات الأطعمة، إنّما تذهب مع التّقليد أو مع العادة، قدْرَما يُعَظم عندها من شأن الطّعام "[203]، حتّى استعملها الغيرلأغراضهم كبعض المفسّرين منبّها إلى خطرهم " لا تسترسلوا إلى كثير من المفسّرين، وإن نصّبوا أنفسهم للعامّة وأجادوا في كلّ مسألة، فإنّ كثيرا منهم يقول بغير رواية على غير أساس، وكلّما كان المفسّر أغرب عندهم كان أحبّ إليهم[204] " وربّما كانوا الأكثر تقبّلا لدعاوي النّابتة، لذلك حذّر الجاحظ من معاملاتها " وليس في الأرض عمل أكّد لأهله من سياسة العوام "[205].

تتّفق تركيبتها في صفة التّكبّر" والكِبر من أسباب الغَشْوة...ولكنّا نجده في السّفلة مثلما نجده في العليّة "[206]، ويبدو أنّ الجاحظ، كونه من العامّة أصلا[207] قد عاشر هذه الطّبقة في ظرفها الّذي يستطرف به غيرها، ممّا يضفي على المجتمع طابع الطّرافة، ويبعد الهموم عند الأكثريّة "وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ومُلْحة من مُلَح الحشوة والطُّغّام "[208] .

مقدّما بعضا من أمثلتهم " أحمق من معلّم كُتّاب "[209] من جهة، ومن جهة أخرى يشير الجاحظ إلى اهتمام بعض من العامّة بالتعلّيم، ولهم معلّمون لأبنائهم، وأنّ بعضا من المعلّمين يرتقي لتدريس أبناء الطّبقة الخاصّة وأولاد الملوك، ممّا يؤكّد أنّ الارتقاء[210] من طبقة الخاصّة إلى أعلى ممكن[211]، ربّما لأنّ الجاحظ كان من العامّة " والمعلّمون عندي على ضربين؛ منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامّة إلى تعليم أولاد الخاصّة، ومنهم رجال ارتفعوا عن تعلّيم أولاد الخاصّة إلى تعلّيم أولاد الملوك أنفسهم المرشّحين للخلافة "[212].

ويطنب الجاحظ في ذكر صفات العامّة وأثرهم على الواقع الاجتماعي " والعوام هم الّذين يقلّدون ولا يَحصّلون ولا يتخيّرون، والتّقلّيد مرغوب عنه في حجّة العقل، منهيّ عنه في القرآن قد عكسوا الأمور، كما ترى ونقضوا العادات "[213]، ولعّل أكثر سلبياتهم، أنّ عناصرها يجتمعون للشرّ[214] أكثر منه الخير.

وقد رصد لنا أقوال سابقيه من المعتزلة، فيما نبّهوا إليه، فقال واصل بن عطاء[215]:" ما اجتمعوا إلاّ ضرّوا، ولا تفرّقوا إلاّ نفعوا "[216]، قيل له: قد عرفنا مضرّة الاجتماع، فما منفعة الافتراق؟ قال: يرجع الطّيّان إلى طينه والحائك إلى حياكته، والملاّح إلى ملاحته والصّائغ إلى صياغته، وكلّ إنسان على صناعته، وكلّ ذلك مِرفق للمسلمين، ومعونة للمحتاجين "[217]، وفي ذلك يتجلّى أنّها طبقة لا استغناء عنها، تجمع بين القمّة والقاعدة في المجتمع.

ويظهراهتمامه بهذه الطّبقة، ومدى استمالة باقي الطّوائف الدّينيّة لها، خاصّة أهل التّشبيه الّذين هم من الشّيعة أو النّابتة " أهل التّشبيه يلجأون إلى الجدل عندما يئسوا من القهر بالعوام والولاّة "[218]؛ إذ تجلّي ذاك في غياب إمعان العقل، الّذي انعكس على التّمسّك بالرّأي عندها، ما جعل أهل التّشبيه يلجأون إلى تغيير أسلوب التّعامل معهم، قصد كسبهم إلى طائفة التّشبيه خاصّة، وأنّهم فشلوا في استمالة القمّة إليهم، كونها من أهل السّنّة والجماعة "فقد صاروا يتكلّمون على السّلطان والقدرة وعلى العدد والثّروة وعلى طاعة الرّعاع والسّفلة، فقد صاروا اليوم على المنازعة أميل، وبها أكلف؛ لأنّهم حينما يئسوا من القهر بالحشوة والسّفلة وبالباعة وبالولاّة الفسقة وقلوبهم ممتلئة، ونفوسهم هائجة، كان لا بدّ لمن كانت هذه صفته وهذا نعته، من أن يستعمل الحيلة والحجّة "[219].

وعليه فهناك تخطيطا من أهل التّشبيه، وربّما كان جلّهم من الشّيعة في كسب شعبيّة العامّة ضدّ أهل السّنّة، لاسقاط شعبيّتهم في السّاحة العبّاسيّة، وأنّ خير أسلوب هو التّفاهم معهم عن طريق قادتهم، ما فيه من المحاولات لإبعاد القاعدة عن القمّة العبّاسيّة، وبما أنّ المعتزلة تترصّد الفرصة لنشر أفكارها وسط هذه الفئة، فإنّها أيضا أوجدت مكانا لها وسطها " وقد أطمعني فيهم مناظراتهم لنا، ومقايستهم لأصحابنا، وقد صاروا بعد السّبّ، يُحفوْن وبعد تحريم الكلام يُجالسون، وبعد التّصادم يستمعون "[220].

وهو ما قد يفهم منه أنّ هذه الطّبقة كانت ضرورية لتحويل أيّ فكر في المجتمع العبّاسي ونشره، والمشكلة أنّها سريعة التّصديق، فإنّ ثباتها مع اتجاه محدّد صعب، لذلك فإنّ قابليتها لن تكون لفكرأهل التّشبيه أو النّابتة أو المعتزلة قليلة جدّا، لدرجة الندرة، فهي على ماذكر الجاحظ "بل هي مع كلّ ريح تهبّ وناشئة تنجم، ولعلّها بالمبطلين أقرّعينا منها بالمحقّين" [221] وكيف لاتكون كذلك وفيها السّفلة والرّعاع؟ الّذين استطاع النّصارى استمالتهم وأصبحوا عونا لهم"تأويل آية غلطت فيها العامّة، حتّى نازعت الخاصّة وحفظتها النّصارى واستمالت قلوب الرّعاع والسّفلة "[222].

ونظرا للاختلافات الماديّة فيما بينها، أشار الجاحظ إلى تحديد ظاهرها وباطنها "والعامّة والباعة والأغنياء والسّفلة، كأنّهم أعذارعام واحد، وهم في باطنهم أشدّ تشابها من التّوأمين في ظاهرهما، وكذلك في مقاديرالعقول وفي الاعتراض والشّرع "[223]، وعلى ذلك؛ فإنّ الفئات النّشيطة من المجتمع قد احتوتها هذه الطّبقة من حرفيّين وتُجّاروغيرهم، وكذا المعدومين والمساكين والعبيد[224] وغيرهم، وتظهر

بعض عناصرها، فيما روي عن علاقتها مع طبقة الخاصّة "وإنّما العامّة أداة للخاصّة[225]، تبتذلها للمهن[226]، وتُزجي بها الأمور، وتطول بها على العدو، وتسدّ بها الثّغور، ومقام العامّة من الخاصّة مقام جوارح الإنسان من الإنسان "[227].

هذه الطّبقة تحوي الجنود والقوّاد والحرفيّين والصُّنّاع[228]، ومنه فجزء من الثّروة والمال عند البعض من هذه الطّبقة، حتّى أنّ بعض الحكماء نبّه ابنه "عليك بطلب العلم، وجمع المال فإنّ النّاس طائفتان، خاصّة وعامّة، فالخاصّة تُكَرّمك للعلم، والعامّة تُكَرّمك للمال "[229]، وفي ذلك إيحاء أنّ طبقة العامّة سعى أكثريتها إلى التّعلّم، وهو ما قد يدخل في باب التّقليد، حتّى الإرتقاء بل وينفي الجاحظ الحمق عند معلّميها " يقال:لهم حمقى، ولا يجوز هذا القول على هؤلاء، ولا على الطّبقة الّتي دونهم، فإن ذهبوا إلى معلّمي كتاتيب القرى؛ فإنّ لكلّ قوم حاشية وسفلة، فما هو في ذلك إلاّكغيرهم، وكيف تقول مثل ذلك في هؤلاء، وفيهم الفقهاء والشّعراء والخطباء؟"[230].

وعلّق الحافظ البغدادي عن هذا بقوله:" لم يكن لبغداد في الدّنيا نظير في جلالة قدرها وفخامة أمرها وكثرة علمائها وأعلامها، وتميّز خواصها وعوامها "[231]، لذلك دعى البعض إلى اعتبار" العامّة من الأمّة، فوجب أن يعتبروا إجماعهم من أهل العلم "[232].

ب- **طبقة الخاصّة:**

- صفات الخاصّة وعناصرها:

تتشابه الخاصّة مع العامّة في صفة الكِبر"ولكنّا نجده في السّفلة، كما نجده في العليّة، ولو كان الكبر فضيلة، وفي التّيه مروءة، لما رغب عنه بنو هاشم "[233]، وهو ما جعلها غير محبوبة عند الأغلبية " والإفراط في التّواضع، يوجب المذلّة والإفراط في الكبر يدعو إلى مقت الخاصّة "[234]، وهي أيضا طبقات كالعامّة تماما " على أنّ الخاصّة تتفاضل في طبقات أيضا "[235].

لكنّ الملاحظ أنّ أكثر عناصرها من طبقة العامّة خاصّة[236]، أولئك المقرّبون من خدم وخصيان وجواري وشعراء وغيرهم، ممّن تعلّم من طبقة الخاصّة، ممّا يجعلنا نعتقد أنّ الخاصّة في المجتمع العبّاسي ماهي إلاّ عامّة في الأصل في أغلبها، فليس كلّ من دخل القصر خاصّ وقد نلمح تميّزا في قول الخليفة الهادي لأمّه بين الخاصّة والخدم: " لئن بلغني أنّه وقف ببابك أحد من قوّادي أو من خاصّتي أو من خدمي، لأضربنّ عنقه ولأقبضنّ ماله "[237].

ويرتّبهم الجاحظ بالنسبة لعلاقتهم بعلم الكلام، كما فعل بالعامّة " فما ظنّك بمن كان عقله ضعيفا ونظره؟ فهذا سبيل العوام فيه، وجهل عوام الخواص به "[238]، أمّا البطانة فهم أهله من بني هاشم عامّة، وبعض الأعاجم خؤولة، خاصّة الفرس والتّرك، وهم ربّما كانوا في درجة أخصّ الخاصّة على ما يبدو إذا أخذنا بعين الاعتبار، ما أشار إليه الجاحظ " ومن حقّ الملك تعهّد بطانته وخاصّته بجوائزهم وصلاتهم "[239].

يتبيّن أنّ المجتمع العبّاسي ذو تركيبة موروثة من أزمان سابقيه الّذين توطّنوا بلاد العرب نسبا، أمّا دينيّا فلهذه التّركيبة تطبيقات لأديان سبقت الإسلام، ولم تندثر كاليهوديّة أو النّصرانيّة وأخرى لم تندثر، رغم أنّها من بني البشر، ومنه فالتّركيبة مثلما شملت التّنوّع في لون البشرة فإنّها شملت أيضا التّنوّع في التّعاليم الدّينيّة الّتي أغلبها عكس التّزييف للعقائد السّماويّة، وبمّا أنّ المجتمع العبّاسي توَسّع في أراضي كانت لغيره وشملها هو باسم الإسلام؛ فإنّه كان من الإلزام عليه أن يتأثّر ولو نسبيّا، ليعرف المسلمون مدى جديّة إيمانهم أمام الوافد عليهم، من معتنق للإسلام وآخرمتمسّك بدينه له عادات خاصّة، ربّما يؤثر بها ويتأثّر بغيرها.

كان الجاحظ مهتمّا بالتّطوّرالحاصل في درجات تأثر طبقة العامّة ومدى سعيّها في الاستفادة من الجديد في مجالات مختلفة، بدءا من لغة التّخاطب ، دون التّخلّي عن العروبة وعادات قبيلة كنانة، الّتي ينسب نفسه إليها والإسلام، وربّما كان هو دليلا على تفوّق أحد أبناء العامّة وارتقائه من العامّة إلى طبقة الخاصّة، دون أن ينسى أصله ولغته العربيّة، رغم دراساته لآثار الأمم الأخرى، وكأنّه بذلك يتشبّه في دراسته للارتقاء من العامّة إلى الخاصّة بدراسة بعض الفلاسفة في أنّ التّعليم وحده الكفيل بذلك لا المال، وكيف لا والجاحظ ينتقل من مسكين لا يملك قوت يومه إلى مالك ضِياع وله خدم وجواري.

يشير الجاحظ إلى كثرة تعداد أفراد طبقة العامّة ونشاطها الحثيث، الّذي يجعل الاستعانة بها حتميا لإبقاء المجتمع العبّاسي؛ بل أنّ القصر العبّاسي جلّه منها، من خدم وجواري وخصيان وغيرهم؛ بل أنّ أصحاب المال أغلبهم من هذه الطّبقة، وهو ما يشير إلى ضرورة إشراكها في التّخطيط لبناء الدّولة والحفاظ على الثروة في الدّولة العبّاسيّة، لذا بدا لي الجاحظ، كأنّه بما استنتجت في تحديده للتركيبة المجتمعيّة، أنّه كان متتبّعا لأفراد طبقة العامّة، ومترصّدا للتّطوّر الحاصل فيها، ربّما كان ذلك ترصّدا منه لتطوير المجتمع من خلال الاهتمام بارتقاء هذه الطّبقة عن طريق التّعليم.

أمّا ذكره لطبقة الخاصّة، فيكاد يندر في كلّ كتاباته؛ لأنّ جلّ من في القصر هم من العامّة ثمّ إنّ الخاصّة الهاشميّة بتواضعها تبقى على اتفاق مع العامّة، في حين نتوقّع أنّ الاستهانة بهذه الطّبقة قد يأتي من الخاصّة الّتي أصلها أعجمي، وهم الّذين للأسف أصبح بعضهم يتساوى في منزلته مع الهاشميّين، على اعتبار أنّ بعضا من العجم كانوا أخوالا للخلفاء، كما تفطّن الجاحظ من طبائع وسلوكات أهل الذّمّة تهديدا لعقيدة المسلم وخاصّة ذاك المقلّد، وهو ما فيه من التّنبيه إلى ضرورة مراقبة سلوكيّات هذه الشّريحة في المجتمع الإسلامي.

---

(1) ورثت الدّولة العبّاسية نفس القبائل العربيّة، الّتي كانت زمن الدّولة الأمويّة من عدنانيّة، وقحطانيّة، وفروعهما.

(2) الجاحظ:الرّسائل السّياسيّة، قدّم لها وبوّبها الدّكتور، عليّ بوملحم، دار ومكتبة الهلال للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، الطّبعة الأخيرة2004م، ص509 .

(3) الجاحظ:نفس المصدر، ص 546.

(4) الجاحظ: :البيان والتّبيّين، دار: إحياء التّراث العربي للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى،1430هـ/2009م، ج1، ص6 .

(5) الجاحظ:نفس المصدر، ج3، ص 20 .

(6) الجاحظ:نفس المصدر، ج1، ص6 .

(7) الجاحظ: :الحيوان، تحقيق وشرح: عبد السّلام هارون، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، لبنان، 1949م، ج5، ص 52 .

(8) الجاحظ:البيان والتّبيّين، ج3، ص 11 .

(9) الجاحظ:الرّسائل السّياسيّة، ص482. وربّما كان يقصد الإشادة بمضر وكنانة، على اعتبار أنّ أصله متجذّر فيهما.

(10) مروان، مروان بن محمّد، أو مروان الحمار، آخر خلفاء بني أميّة، وهو أبو عبد الملك بن محمّد بن مروان بن الحكم، ويلقّب بالجعدي، نسبة إلى مؤدّبه الجعد بن درهم، وبالحمار، لأنّه كان يصل السّير بالسّير، ويصبر على مكاره الحرب ولد بالجزيرة سنة72هـ/691م، وأمّه أمّ ولد، كان مشهورا بالفروسيّة، بويع في النّصف الثّاني من صفر سنة127هـ/745م، خرج عليه بنو العبّاس في سنة132هـ/750م، وقتل على يد عبد الله بن علي العبّاسي. أنظر، السّيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ص202 ، 203 .

(11) الجاحظ:الرّسائل السّياسيّة، ص483 .

(12) الجاحظ:البيان والتّبيّين، ج3، ص37 .

(13) الجاحظ:مصدر سابق، ص509 .

(14) في زمن كسرى ذهب وفد عربي على رأسه طبيب عربيّ هو الحارث بن خلدة الثّقفي، فقال له كسرى: فما صناعتك؟ قال: الطّبّ، قال: أعربيّ أنت؟، قال: نعم، من صميمها، وبحبوحة دارها، قال: فما تصنع العرب بطبيب مع جهلها، وضعف عقولها، وسوء أغذيتها؟، قال: أيّها الملك، إذا كانت هذه صفتها، كانت أحوج إلى من يصلح جهلها، ويقيّم عِوَجها، ويسوس أبدانها، ويُعَدّل أمشاجها. أنظر، ابن أبي أصيبعة (موفق الدّين، أبو العبّاس، أحمد بن القاسم بن حليفة بن يونس السّعدي الخزرجي): عيون الإنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق: الدّكتور نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص162 .

(15) ابن العبري(غريقوريوس الملطي): تاريخ مختصر الدّول، وقف على طبعه ووضع حواشيه الأبّ: أنطوان صالحاني اليسوعي، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، لبنان، طبعة 1958م، ص ص135 ،136 .

(16) التّوحيدي (أبو الحيان):كتاب الإمتاع والمؤانسة، صحّحه وضبطه وشرحه: أحمد أمين وأحمد الزّين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ج1، ص72 .

(17) قال ابن المقفّع:"إنّ العرب ليس لها تؤمّة، ولا كتاب يدلّها، أهل بلد قفر، ووحشة من الإنس، احتاج كلّ واحد منهم في وحدته إلى فكره، ونظره، وعقله وعلموا أنّ معاشهم من نبات الأرض، فوسموا كلّ شيئ بسمته، ونسبوه إلى جنسه، وعرفوا مصلحة ذلك في رُطبه، ويابسه، وأوقاته، وأزمنته، وما يصلح منه في الشّاة والبعير، ثمّ نظروا إلى الزّمان، واختلافه، فجعلوه ربيعيّا وصيفيّا وقيضيّا وشتويّا، ثمّ علموا أنّ شربهم من السّماء، فوضعوا لذلك الأنواء، وعرفوا تغيّر الزّمان، فجعلوا له منازله من السّنة، واحتاجوا إلى الانتشار في الأرض، فجعلوا نجوم السّماء أدلّة على أطراف الأرض وأقطارها، فسلكوا بها البلاد، وجعلوا بينهم شيئا ينتهون به عن المنكر، ويُرَغّبهم في الجميل، ويتَحنّوْن به عن الدّناءة، ويحضّهم على المكارم، حتّى أنّ الرّجل منهم، وهو في فجّ من الأرض يصف المكارم، فما يبقى من نعتها شيئا

ويسرف في ذمّ المساوئ، فلا يقصر لمن لهم كلام، إلاّ وهم يحاضون به على اصطناع المعروف، ثمّ حفظ الجار، وبذل المال، وابتناء المحامد كلّ واحد منهم يصيب ذلك بعقله، ويستخرجه بفطنته، وفكرته، فلا يتعلّمون، ولا يتأدّبون؛ بل لجائز مؤداته، وعقول عارفة". أنظر، نفسه.

(18) جاء في وصية المنصور لابنه المهدي:...وإيّاك أن تستعين برجل من بني سُليم، وأظنّك ستفعل". أنظر، ابن خلدون(عبد الرّحمن بن محمّد بن خلدون الحضرمي المغربي ت808هـ): تاريخ ابن خلدون المسمّى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر، مؤسّسة جمال للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، 1399هـ/1979م،ج3، ص204؛ وفي موضع آخر ذكر، كان بنو سُليم يفسدون بنواحي المدينة، ويتسلّطون على النّاس في أموالهم، وأوقعوا بناس من كنانة. أنظر، ابن خلدون: نفس المصدر، ص271 .

(19) الأعجم، الّذي لا يفصح كلامه، وإن كان عربي النّسب، فأمّا الأعجمي، فهو الّذي من جنس العجم أفصح، أو لم يفصح. أنظر، ابن منظور الإفريقي المصري:لسان العرب، مادّة عجم، ص9-49 .

(20) الجاحظ:الحيوان، ج1، ص29 .

(21) الجاحظ:المحاسن والأضداد، قدّم له وبوّبه وشرحه: الدّكتورعليّ بوملحم، دار ومكتبة الهلال للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، طبعة2008م، ص19.

(22) ابن خلدون:المقدّمة، ص12 .

(23) أبو الفدا: كتاب المختصر في أخبار البشر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ج1، ص104 .

(24) جرجي زيدان: تاريخ التّمدّن الإسلامي، تعليق: الدّكتور حسين مؤنس، دار الهلال، القاهرة، مصر، 1950م، ج4، ص 134 .

(25) الجاحظ:البيان والتّبيّين، ج3، ص8 .

(26) أهل مرو، من أولاد الملوك، الّذين كانوا قبل الفرس بخراسان، وقيل: لكسرى. أنظر، ابن قتيبة(أبو محمّد، عبد الله بن مسلم213هـ-276هـ): المعارف، حقّقه وقدّم له: الدّكتور ثروت عكاشة، دار المعارف، مصر، الطّبعة الثّانية منقحة، ص652 .

(27) الجاحظ: البيان والتّبيّين، ج3، ص8 .

(28) أحمد محمّد الحوفي:تيارات ثقافيّة بين العرب والفرس، دار نهضة مصر للطّبع والنّشر، الفجالة، القاهرة، الطّبعة الثّالثة 1393هـ-1978م، ص33 .

(29) الكوفة، مدينة عراقيّة، لمّا نزل المسلمون المدائن، وطال مكثهم، وأذاهم الغبار والذّباب، كتب عمر إلى سعد في بعثة روّادا، يرتادون منزلا بريّا بحريّا، فإنّ العرب لا يصلحها من البلدان، إلاّ ما أصلح الشّاة والبعير، فسأل من قبله عن هذه الصّفة، فأشار عليه من رآى العراق من وجوه العرب باللّسان، وهو ظهر الكوفة، وكانت العرب تقول: أدلع البرّ لسانه في الرّيف، فما كان يلي الفرات منه، فهو الملطاط، وما كان يلي الطّين منه، فهو النّحّاف، فكتب عمر إلى سعد، يأمره به، فكان نزولهم الكوفة سنة17هـ/638م، والكوفة أقدم منها البصرة بثلاث سنوات. أنظر، ابن قتيبة: المعارف، ص ص564 ،565 .

(30) الجاحظ:البيان والتّبيّين، ج1، ص11 .

(31) علي عبد الواحد وافي: اللّغة والمجتمع، دار نهضة مصر للطّبع والنّشر، الفجّالة، القاهرة، مصر،1971م، ص179 .

(32) أنيس المقدسي:أمراء الشّعر العربي في العصر العباسي (دراسة تحليليّة لأدب ثمانيّة من أشهر شعراء العرب والجوّ الّذي نشأوا فيه)، دار العلم للملايّين، بيروت، لبنان، الطّبعة12، كانون الثّاني، يناير1979م، ص41 .

(33) الجاحظ:مصدر سابق، ج3، ص11 .

(34) الجاحظ:الحيوان، ج7، ص590 .

(35) التّوحيدي:الإمتاع والمؤانسة، ص74 .

(36) التّوحيدي: نفس المصدر، ص71 .

(37) الجاحظ: البيان والتّبيّين، ج3، ص42 .

(38) الجاحظ:الرّسائل السّياسيّة، ص479 .

(39) الأوس والخزرج: هما ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرؤ القيس بن ثعلبة مازن بن عبد الله بن الأزد بن الغوث بن النّبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ، هما ابنا قيْلة، نسبا إلى أمّهما، وهما الأنصار. أنظر، ابن قتيبة: المعارف، ص109؛ وذكر السّمعاني، الأوس، هي نسبة إلى الأوس، وهو بطن من الأنصار، أمّا الخزرج، فهو نسبة إلى بطن من الأنصار. أنظر، السّمعاني(الإمّام أبو السّعد عبد الكريم بن محمّد بن منصور التّميمي ت562هـ):الأنساب، تقديم وتعليق: عبد الله عمر البارودي، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى،1408هـ-1988م، ص228-359 .

(40) الجاحظ:الرّسائل السّياسيّة، ص479 .

(41) الجاحظ: نفس المصدر، ص477 .

(42) الجاحظ:نفس المصدر، ص485 .

(43) الجاحظ:نفس المصدر، ص486 .

(44) بنو هاشم، نسبة إلى هاشم أب عبد المطّلب، وهو هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النّضر بن كنانة بن خُزَيْمة بن مُدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معّد بن عدنان، وهاشم نسبة لهشم الثريد، وإطعامه. أنظر، ابن قتيبة: المعارف، ص117 .

(45) الجاحظ: المصدر السّابق، ص486.

(46) يستحبّ للسّلطان أن يكون جنده أجناسا مفترقة وقبائل شتّى، لا يتهيأ له الاتفاق على رأيّ واحد في الخلاف. أنظر، أبوبكر (محمّد بن الحسن الحضرمي ت489هـ): كتاب السيّاسة أو الإشارة في تدبير الإمارة، ص37 .

(47) الجاحظ:مصدر سابق، ص477 .

(48) سورة مريم:الآية، رقم4 .

(49) المبرّد(أبو العبّاس، محمّد بن يزيد):الكامل، عرضه وعلّق عليه: محمّد أبو الفضل السّيد شحاته، دار نهضة مصر للطّبع والنّشر، القاهرة، مصر، ج4، ص46 .

(50) الأزدي(أبو الحسن بن رشيق القيرواني):العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، حقّقه وفصّله وعلّق على حواشيه: محمّد محي الدّين عبد الحميد، مطبعة السّعادة، مصر، الطّبعة الثّانية، 1402هـ-1982م، ج2، ص198 .

(51) ابن حجر العسقلاني(الإمّام الحافظ أحمد بن علي 773هـ/856هـ):فتح الباري في شرح صحيح البخاري- طبعة مزيدة بفهرس أبجدي بأسماء كتب صحيح البخاري- قرأ أصله تصحيحا وتحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، كما رقّم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمّد فؤاد عبد الباقي وقام باخراجه وصحّحه وأشرف على طبعه: محبّ الدّين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، م12، ص39 .

(52) الجاحظ:الرّسائل الكلاميّة، قدّم لها وبوّبها: الدّكتور علي بوملحم، دار ومكتبة الهلال للطّباعة والنّشر، الطّبعة الأخيرة 2004م، ص248 .

(53) نفسه .

(54) ابن حجر العسقلاني العسقلاني: مصدر سابق، ص44 .

(55) الجاحظ:الرّسائل الكلاميّة، ص248 .

(56) الجاحظ:الرّسائل السيّاسيّة، ص513 .

(57) المبرّد:الكامل، ج4، ص15 .

(58) قال أبو هريرة رضيّ الله عنه:لا يقل أحدكم لمملوكه عبدي وأمتي وليقل فتاي وفتاتي، هذا على نفي الاستكبار عنهم، وأن لا ينسب عبوديّتهم إليه، فإنّ المستحقّ لذلك الله تعالى ، هو ربّ العباد كلّهم والعبيد. أنظر، ابن منظور:لسان العرب، مادّة عبد، م10، ص ص8 ،9 .

(59) المبرد: مصدرسابق، ص16.

(60) الجاحظ:الرّسائل السّياسيّة، ص483 .

(61) الأصبهاني (أبوالقاسم، حسين بن محمّد الرّاغب):محاضرات الأدباء ومحاورات الشّعراء والبلغاء، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، م1، ج1، ص349 .

(62) الجاحظ:الرّسائل السّياسيّة، ص483 .

(63) ابن الطّقطقي (محمّد بن علي بن طباطبا):الفخري في الآداب السّلطانيّة والدّول الإسلاميّة، عني بنشره: محمود توفيق الكتبي، الطّبعة الرّحمانيّة، ص41 .

(64) إنّ الموالي الّذين كانوا يسُتغلّون، فإنّما كان يستغلهم أبناء جلدتهم، لا العرب، وعندما اندلعت الثورة العباسيّة، كانت خراسان لمدّة عقد كامل تحت حكم نصر بن سيّار، وهو رجل اشتهر بكونه أحسن وأعدل الولاّة، الّذين حكموا خراسان من قبل الأمويّين، كان برنامجه، يتضمّن سياسة عادلة إزاء الموالي. أنظر، دانييل دينيت: الجزية والإسلام، ترجمه وقدّمه الدّكتور: فوزي فهيم جاد الله، راجعه: الدّكتور إحسان عباس، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ص190 .

(65) الجاحظ:مصدر سابق، ص484 .

(66) محمّد بن علي، هو أبو عبد الله، محمّد بن علي بن عبد الله بن العبّاس بن عبد المطّلب الهاشمي، وهو والد الخليفتين السّفاح والمنصور، ولد سنة40هـ/660م، ليلة مقتل علي كرم الله وجهه، انتقل إليه أمر الدّعوة بوصيّة من أبي هاشم بن محمّد بن الحنفية، لما أوصاه بها ولولده من بعده. أنظر، ابن خلّكان: وفيات الأعيان، ج4، ص186ومابعدها.

(67) زيد بن حارثة، زيد بن حارثة بن شراحيل، من كلب، أدركه سباء، فأعتقه الرّسول -صلّى الله عليه وسلّم-، كان يقال له: زيد بن محمّد، حتّى نزلت " أُدْعُوهُمْ لِآبَائِهِم "سورة الأحزاب، الآية: رقم5، كان ممّن أمّره الرّسول على الجيش يوم مؤتة، فاستشهد يومها في سنة8هـ/629م. أنظر، ابن قتيبة: المعارف، ص117 .

(68) مؤتة، قرية حدثت بها غزوة مؤتة شهر جمادي الأولى سنة8هـ/629م، بين المسلمين بقيادة زيد بن حارثة، وجيوش الرّوم بقيادة هرقل. أنظر، الطّبري(أبو جعفر محمّد بن جرير224هـ-310هـ):تاريخ الأمم والملوك(تاريخ الطّبري)، راجعه وقدّم له وأعدّ فهارسه: نواف الجرّاح، دار ومكتبة الهلال، الطّبعة الأولى، بدون تاريخ، م2، ص ص450 ،451 .

(69) الجاحظ:مصدر سابق، ص484.

(70) المبرّد: الكامل، ج4، ص16.

(71) الجاحظ: الرّسائل السّياسيّة، ص484 .

(72) الجاحظ: نفس المصدر، ص556.

(73) نفسه.

(74) الجاحظ:البيان والتّبيّين، ج3، ص6.

(75) الجاحظ:الحيوان، ج1، ص118.

(76) أبو الفدا:المختصر في أخبار البشر، م1، ص118 .

(77) الصّقالبة، ينتسبون إلى يافث بن نوح عليه السّلام. أنظر، السّمعاني: الأنساب، م1، ص19، وقيل: كانت أراضي الصّقالب أرض الرّوم قبل الرّوم. أنظر، ابن قتيبة: المعارف، ص26 .

(78) المسعودي(أبو الحسن بن علي ت346هـ):أخبار الزّمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران، دار الأندلس للطّباعة والنّشر والتذوزيع، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى1416هـ/1996م، ص92 .

(79) الجاحظ:الحيوان، ج1، ص67 .

(80) التّرك، ينتسبون إلى يافث بن نوح عله السّلام. أنظر، السّمعاني:مصدر سابق، ص29 .

(81) الخوارج، الّذين كفّروا عليّ بن أبي طالب وعثمان بن عفّان –رضي الله عنهما– والحكمين، وأصحاب الجمل، توجب فرقتهم الخروج عن الإمّام الجائر، من أشهر فرقهم: الإباضيّة والنّجدات والإباظيّة. أنظر، البغدادي: الفرق بين الفرق، ص72 .

(82) الجاحظ:الرّسائل السّياسيّة، ص491 .

(83) الجاحظ:نفس المصدر، ص ص505 ، 506 .

(84) الجاحظ:نفس المصدر، ص510 .

(85) سأل المعتصم راهبا:هل وجدت في كتب الملاحم، الّتي تكون عندكم أنّ مدينة عموريّة يفتحها أحد من المسلمين؟ قال: حيث كتبت الملاحم، ما كان أحد من المسلمين، وإنّما رأيت في كتب الملاحم، أنّه لا يفتحها إلاّ أولاد التّرنا، فقال المعتصم: الله أكبر، عسكري كلّهم الأغلب عليهم الأتراك، والأتراك كلّهم أولاد التّرنا، فإنّه ليس بينهم شريعة، ولا سياسة. أنظر، ابن العبراني:الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص106؛ وقال المعتصم:ما في الدّنيا سود الرؤوس، أشجع، ولا أرمأ، ولا أثبت أقداما على الأعداء من الأتراك". أنظر، ابن طيفور(فضل أحمد بن أبي طاهر ت280هـ): كتاب بغداد(المستوعب لفترة خلافة المأمون)، دار الجنان، ش.م.م، بيروت، لبنان، ص79 .

(86) الجاحظ: الرّسائل السّياسيّة، ص497 .

(87) الجاحظ:نفس المصدر، ص501 .

(88) المسعودي: مروج الذّهب، ج3، ص336 .

(89) الجاحظ:الرّسائل السّياسيّة، ص499 .

(90) الزّنوج، من أولاد حام بن نوح عبه السّلام. أنظر، السّمعاني: المصدر السّابق، ص29؛ الزّنج، اسم القبائل الزّنجيّة الّتي تقطن ساحل إفريقية الشّرقي، أطلق العرب المؤرّخون هذا الاسم على العبيد المنتفضين الّذين أثاروا الفزع والرّعب في القسم الأدنى من أرض العراق خمسة عشر عاما من255هـ/869م إلى 270هـ/884م. أنظر، دائرة المعارف الإسلاميّة، م10، مادّة زنج، ص222 .

(91) الجاحظ:الرّسائل السّياسيّة، ص537 .

(92) عبده بدوي:السّود والحضارة العربيّة، دار قباء للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، ط2001م، ص134 .

(93) الجاحظ:مصدر سابق، ص537 .

(94) نفسه.

(95) ذكر الجاحظ عن ما قاله المدائني: "وسألت مباركا الزّنجي الفاشكار، ولا أعلم زنجيّا، بلغ في الفشكرة مبلغه". أنظر، الجاحظ: البيان والتّبيّين، ج1، ص29 .

(96) الجاحظ:الرّسائل السّياسيّة، ص539 .

(97) نفسه.

(98) نفسه.

(99) الجاحظ:الحيوان، ج2، ص275 .

(100) المسعودي:أخبار الزّمان، ص64 .

(101) قنبلة، اسم مكان تزّف منه السّفن "اسم المكان الّذي تزفون منه سفنكم إلى ساحله". أنظر، الجاحظ: الرّسائل السّياسيّة، ص549 .

(102) نفسه.

(103) الجاحظ:نفس المصدر، ص539 .

(104) الجاحظ:نفس المصدر، ص540 .

(105) قال أحد الشّعراء واصفا سخاء الزّنج:لا تفخر بخصال من بني أسد فإنّ أكرم منها الزّنج والنّوب. أنظر، نفسه.

(106) الشّيعة، الّذين شايعوا عليّا -ﷺ-، قالوا: بإمامته نصّا ووصيّة، إمّا جليّا أو خفيا، واعتقدوا أنّ الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت، فبظلم يكون من غيره، أو بتقيّة من عنده، وليست الإمامة قضية مصلحيّة، تناط باختيار العامّة، ويتنصب الإمام بنصبهم؛ بل قضيّة أصوليّة. أنظر، الشّهرستاني:الملل والنّحل، ج1، ص ص144 ،145 .

(107) يرى البعض أنّ المعارضة المتشيّعة للأمويّين، عرفت معظم الحركات السّياسيّة المتشيّعة لهم، بأنّها تمثّل أهل السّنّة، ومن من بين الحركات الّتي صاحبت ذياع صيت المعتزلة حركة تسمّى النّابتة، ظهرت النّابتة في القرن الثّالث الهجري/ التّاسع الميلادي، وعرفت بمناوءتها السيّاسيّة للعبّاسيّين، ومعارضتها لآراء المعتزلة الدّينيّة، والبيانيّة. أنظر، محمّد نجيب محمّد بوطالب: الصراع الاجتماعي في المجتمع العربي الإسلامي(دراسة سوسيولوجيّة للمجتمع العبّاسي من132هـ إلى400هـ)، ماجستير من إشراف أ.د عبد الكريم اليافي، جامعة دمشق، كلية الآداب، قسم الدّراسات الفلسفيّة والاجتماعيّة، علم الاجتماع، ص98؛ بينما البعض يرى أنّ النّابتة هم أنصار بني أميّة بعد انصرام دولتهم بمئة سنة، فهؤلاء الحشويّة يستخدمون اسم معاويّة لغرضهم السّياسي، ويحتجون بالعباسيّن بحجج، استخرجوها، واستنبطوها مستندين إلى طريقة كلاميّة محضة. أنظر، وديعة طه النّجم: بغداد والحاضرة العباسيّة، ص16 .

(108) الرّافضة، فرقة إسلامية" الشّيعة" رفضت رأي زيد بن عليّ في خلافة أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب -رضي الله عنهما-، ولا تصلح الإمامة عندهم إلاّ في ولد عليّ بن أبي طالب ﷺ. أنظر، عبد القادر صالح:العقائد والأديان، دارالمعرفة، بيروت، لينان، الطّبعة الثّانية1427هـ-2006م، ص156.

(109) الجاحظ:الرّسائل الكلاميّة، ص245 .

(110) الجاحظ: نفس المصدر، ص179 .

(111) زيد بن علي، هو زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي، ولد عام79هـ/698م، وتوفّي عام122هـ/740م، فقيه، عالم، متكلّم، خطيب. أنظر، عبد القادر صالح: عقائد وأديان، ص164 .

(112) عبد القادر صالح:نفس المرجع، ص156 .

(113) عبد القادر صالح:نفس المرجع، ص 173.

(114) الشّهرستاني:الملّل والنّحل، ج1، ص116 .

(115) الحشويّة، تشبيه الحشويّة من أهل الحديث، هو مصطلح ظهر في مجلس الحسن البصري، إذ عرض عليه جماعة من الرّواة لبضاعتهم في الحديث، فصاح في أتباعه(ردّوا هؤلاء إلى حشا الحلقة)؛ أي جانبها، فسمّوا حشويّة، كما يقال أيضا:أنّ هذه التّسمية وردت أوّلا على لسان عمرو بن عبيد في وصفه لعبد الله بن عمر؛ إذ يقبل الأحاديث، والسّنن والآثار دون تمحيص في رأيه، كما يرى أهل السّنّة أنّ الحشو إنّما ظهر بالتّشبيه في دائرتين، هما دائرة الشّيعة، ودائرة أهل الحديث. أنظر، أ/د.هاشم حسن فرغل:الفرق الإسلاميّة في الميزان، دار الآفاق العربيّة للنّشر والتّوزيع، مدينة نصر، القاهرة، مصر، الطّبعة الأولى 1428هـ/2007م، ص140 .

(116) الشّهرستاني:مصدر سابق، ص117 .

(117) الجاحظ:الرّسائل الكلاميّة، ص245 ؛ يبدو أنّ هناك قصور فهم عند شارل بللاّ في تحديد موضوع رسالة النّابتة، ومفهوم النّابتة، الّذين قال: أنّهم أنصار بني أميّة بعد انصرام دولتهم بمئة سنة، فهؤلاء الحشويّة يستخدمون اسم معاويّة لغرضهم السّياسي، ويحتجّون على العباسيّين بحجج. أنظر، شارل بللا: أصالة الجاحظ، ص16؛ وهناك نفس الفهم عند البعض الآخر، الّذي يرى أنّ الجاحظ أظهر العداء الشّديد لبني أميّة، ونقدهم نقدا لاذعا، وألّف فيهم رسالة سمّاها رسالة النّابتة، وهم أنصار الأمويّين في العصر العباسي. أنظر، إيمان عبد الرّحمن هياجنة: الجاحظ مؤرخا، المشرف أ.د صالح درادكة، ماجستير، التّاريخ الإسلامي، كليّة الدّراسات العليّا، الجامعة الأردنيّة، كانون الأول، 1996 م، ص92 .

(118) الشّهرستاني: الرّسائل الكلاميّة، ص117 .

(119) الشّهرستاني:نفس المصدر، ص118 .

(120) أحمد بن حنبل، الإمام أبو عبد الله بن محمّد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن حيان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن وائل الذّهلي الشّيباني، المروزي، ثمّ البغدادي ولد عام164هـ-781م، طلب العلم وهو ابن خمس عشرة سنة، أعلم بفقه الحديث ومعانيه، دائم التّعوذّ من رأي الخوارج، ومن البدع، يقول: لا يفلح من تعاطى الكلام بأنّ القرآن مخلوق، فضُرب في عهد الخليفة المعتصم، مات عام241هـ-861م.أنظر، الذّهبي: سير النّبلاء، ج11، ص179 .

(121) نفسه.

(122) سورة: المؤمنون، الآية: رقم14 .

(123) سورة:المائدة، الآية: رقم110 .

(124) الجاحظ:الرّسائل الكلاميّة، ص246 .

(125) الشّهرستاني:الملل والنّحل، ج1، ص119 .

(126) نفسه.

(127) الجاحظ: الرّسائل الكلاميّة، ص246 .

(128) نفسه .

(129) الجاحظ:نفس المصدر، ص173 .

(130) الأزرقي، نسبة إلى جماعة من الخوارج، يقال لها: الأزارقة، نسبة إلى نافع بن الأزرق، خرجوا مع نافع من البصرة إلى الأهواز، فغلبوا عليها، وعلى كورها، وما وراءها من بلدان فارس، وكرمان، أيّام ابن الزّبير، وقتلوا عمّاله، يؤمن الأزرقي بأنّ عليّا –ﷺ– هو الّذي أنزل الله فيه"وَمِنَ النّاسِ مَنْ يُعْجِبْكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ الله عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَام". سورة البقرة، الآية: رقم240. أنظر، عبد القادر صالح: مرجع سابق، ص252 .

(131) الغالي، هو المغالي في حقّ أئمّته، حتّى أخرجهم من صفاتهم الخَلقيّة البشريّة، ورفعهم إلى مقام الألوهيّة، وربّما شبّه الإله بالخَلق. أنظر، عبد القادر صالح، نفس المرجع، ص218 .

(132) المرجئة، فرقة إسلاميّة، ظهرت بعد مقتل الخليفة عثمان، كوسط بين المنازعات، الدّاعية إلى الحرية والجهميّة الدّاعيّة إلى الجبر، مشتقّة من الإرجاء، وهو معنيين، التّأخير والآخر، إعطاء الرجاء، المرجئة يطلق على الّذين كانوا يؤخرون العمل عن القصد والنيّة، ويقولون: لا تضرّ مع الإيمان معصيّة، كما لا تنفع مع الكفر طاعة. أنظر، نفسه.

(133) الجاحظ: الرّسائل الكلاميّة، ص58 .

(134) الجاحظ: نفس المصدر، ص 260.

(135) ربيعة، نسبة إلى ربيع بن نزار وأخو مضرّ، نزار بن معد بن عدنان بن أدد بن يحثوم بن مقوّم، وينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليه السّلام. ربيعة الفرس، رجل من طيئ، أضافوه كما تضاف الأجناس، وهو ربيعة بن نزار، سمّي بربيعة الفرس، لأنّه أعطى من مال أبيه الخيل، وأعطى أخوه الذّهب، فسمّي مُضرّ الحمراء والنّسبة إليهم، ربعي. أنظر، ابن منظور: لسان العرب، مادّة ربع، م6، ص89 .

(136) غسّان، اسم ماء نزل عليه بنو مازن بن الأزد بن الغوث، هم الأنصار، وبنو جفنة، وخزاعة، فسمّوا به، يقال: أنّه سدّ مأرب باليمن، كان شربا لبني مازن بن الأزد بن الغوث. أنظر، ابن قتيبة: المعارف، مادّة غسّان، ص292 .

(137) الدّميري(كمال الدّين محمّد بن موسى 742هـ-808م): حياة الحيوان الكبرى، شركة مكتبة ومطبعة: مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطّبعة الثّالثة1376هـ-1956م، ج1، ص246 .

(138) يبدو لي أنّ الجاحظ مهتمّ فقط بالقبائل العربيّة، الّتي تذهب في نسبها لعدنان، ربّما لأنّ كنانة تنتمي لهذا الفرع، وربّما تأهيلا منه لزعامة هذه القبيلة مستقبلا، وبالتّالي تأكيدا لفاعليّة طريقته .

(139) اليهوديّة، نسبة إلى يهود بن يعقوب. أنظر، ابن قتيبة: المعارف، ص619 .

(140) الجاحظ:الرّسائل الكلاميّة، ص260 .

(141) نفسه.

(142) الجاحظ:مصدر سابق، ص246 .

(143) الملكانيّة، أصحاب ملكا الّذي ظهر بأرض الرّوم، واستولى عليها، ومعظم الرّوم ملكانيّة، قالوا:إنّ الكلمة اتّحدت بجسد المسيح، وتعني الكلمة، أقنوم العلم، أمّا روح القدس، فهو أقنوم الحياة، قال بعضهم:إنّ الكلمة مازجت الجسم، كما يمازج الخمر، أو الماء اللبن، وقالت:الملكانيّة بإثبات التّثليث، وجاء في سورة المائدة الآية رقم:73 تكفيرهم"لَقَدْ كَفَرَ الذِينَ قَالُوا إِنَّ الله ثَالِثُ ثَلاَثَة". أنظر، الشّهرستاني:الملّل والنّحل، ج1، ص245 .

(144) النّسطوريّة، أصحاب نسطور الحكيم، الّذي ظهر في زمان الخليفة المأمون، وتصرّف في الأناجيل بحكم رأيّه، وإضافته إليهم، قال:إنّ الله تعالى واحد، ذو أقانيم ثلاثة: الوجود، العلم، الحياة، وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذّات، ولا هي هو اتّحدت الكلمة بجسد عيسى عليه السّلام، لا عن طريق الامتزاج ،كما قالت الملكانيّة، ولا عن طريق الظّهور، كما قالت اليعقوبيّة. أنظر، الشّهرستاني: نفس المصدر، ص247 .

(145) اليعقوبيّة، أصحاب يعقوب، قالوا بالأقانيم الثّلاثة، إلاّ أنّهم قالوا:انقلبت الكلمة لحما، ودما، فصار الإله هو المسيح، وهو الظّاهربجسده؛ بل هو هو، وهم من أخبرنا القرآن بهم في سورة المائدة، الآية رقم:72 "لَقَدْ كَفَرَ الذِينَ قَالُوا إِنَّ الله هُوَ المسِيحُ ابْن مَرْيم "، ومنهم من قال:إنّ المسيح هو الله تعالى، وزعم أكثرهم أنّ المسيح جوهر واحد أقنوم واحد، إلاّ أنّه من جوهرين، وربّما قالوا: طبيعة واحدة من طبيعتين، فجوهر الله القديم، وجوهر الإنسان المحدث، تركّبا تركيبا، كما تركّبت النّفس والبدن، فصارا جوهرا واحدا، وهو إنسان كلّه، وإله كلّه. أنظر،الشّهرستاني: نفس المصدر، ص249 .

(146) الجاحظ:الرّسائل الكلاميّة، ص267 .

(147) نفسه.

(148) الشّهرستاني:مصدر سابق، ص248 ؛ يبدو أنّ الجاحظ يفرّق بين المعتزلة والقدريّة الأولى، رغم أنّ كلاّ منهما يقول بالقدَر خيره، وشرّه بيد الإنسان، وربّما ذلك لتشدّد الأولى في ذلك .

(149) الجاحظ:مصدر سابق، ص267 .

(150) الزّرادشتيّة، نسبة إلى سبيتاما زرادشت628ق.م-551ق.م. أنظر، عبد القادر صالح: عقائد وأديان، ص158.

(151) تميم، نسبة إلى تميم بن سعد بن هُذيل بن مدركة بن الياس، تنتهي بمضرّ. أنظر، ابن قتيبة: المعارف، ص64 .

(152) الدّميري:حياة الحيوان الكبرى، ج1، ص246 .

(153) الخيزران، أنظر، الفصل الثالث، هامش رقم 1، ص145.

(154) البغدادي(أحمد بن علي أبو بكر الخطيب): تاريخ بغداد، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، م1، ص125.

(155) ابن قيّم الجوزية(الشيخ شمس الدّين، أبي عبد الله محمّد بن أبي بكر691هـ-751م): أحكام أهل الذّمّة، حقّقه وعلّق على حواشيه: الدّكتور صبحي الصالح، دار العلم للملايّين، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّانية1401هـ-1981م، ص99 .

(156) الجاحظ:الحيوان، ج4، ص164.

(157) الجاحظ:نفس المصدر، ج5، ص192.

(158) بلخ، مدينة بخراسان، بها الغلّة، تحمل غلّتها إلى خراسان، وخوارزم، وقيل:أنّ بانيها هو الإسكندر، وفتحها الأحنف بن قيس زمن الخليفة عثمان -رضيّ الله عنه-؛ أنظر، ياقوت الحموي: معجم البلدان، م1، ص ص479 ، 480 .

(159) الجاحظ: الحيوان، ج5، ص 192.

(160) الجاحظ:نفس المصدر، ص 274.

(161) نفسه.

(162) نفسه.

(163) يذكر الجاحظ تقريب الخليفة هارون لبعض منهم ، إذ وُصف يحي بن خالد الفضل بن سهل، وهو غلام على المجوسيّة للرّشيد، وذكر أدبه، وحسن معرفته، فعمل على ضمّه إلى المأمون، فقال ليحي يوما: أدخل إلي هذا الغلام المجوسي، حتّى أنظر إليه، فأوصله، فلمّا مثل بين يديه، ووقف، تحيّر، فأراد الكلام، فارتجّ عليه، فأدركته كبوة، فنظر الرّشيد إلى يحي نظرة منكرة، لما كان تقدّم من تقريظه إيّاه، فانبعث الفضل بن سهل، فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ من أبين الدّلائل على فراهة الملوك شدّة إفراط هيبته لسيّده، فقال له الرّشيد: أحسنت والله، لئن كان سكوتك، لتقول هذا، إنّه لحسن، ولئن كان شيئا أدركك عند انقطاعك، إنّه لأحسن، ثمّ جعل لا يسأله عن شيئ، إلاّ رآه فيه مقدّما، فضمّه إلى المأمون. أنظر، الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص28؛ وقيل: أنّ البرامكة كانوا قديما على دين المجوس، ثمّ أسلم منهم من أسلم، وحسن إسلامهم. أنظر، ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السّلطانيّة، ص143 .

(164) الدّينوري(أبوحنيفة، أحمد بن داود ت282هـ): الأخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: الدّكتور جمال الدّين الشيّال، وزارة الثّقافة والإرشاد القومي، الإقليم الجنوبي، 1379هـ/1959م، ص25 .

(165) الجاحظ:الحيوان، ج5، ص274 .

(166) بلخ، مدينة مشهورة بخراسان، وأكثرها خيرا، وغلّة، تحمل غلّتها إلى خراسان، وخوارزم، وقيل:أنّ بانيها هو الإسكندر، وفتحها الأحنف بن قيس زمن الخليفة عثمان -ﷺ-. أنظر، ياقوت الحموي: معجم البلدان، م1، ص ص 479 ،480 .

(167) ابن كثير:البداية والنّهايّة، ج5، ص589 .

(168) الجاحظ:الرّسائل الكلاميّة، ص260 .

(169) النّويري(شهاب الدّين، أحمد بن عبد الوهاب):نهاية الأرب في فنون الأدب، مطابع:كوتساتسوماس وشركاه، القاهرة، مصر، م1، ج1، ص106 .

(170) نفسه.

(171) نفسه.

(172) الحسني(عبد الحيّ1256هـ-1341هـ):الثّقافة الإسلاميّة في الهند(معارف العوارف في أنواع العلوم والمعارف)، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، سوريا، 1377هـ-1958م، ص9 .

(173) الحسني:نفس المصدر، ص9 .

(174) المسعودي:أخبار الزّمان، ص92 .

(175) الأصبهاني:محاضرات الأدباء، م1، ج1، ص9 .

(176) الشّهرستاني:الملّل والنّحل، ج2، ص291 .

(177) الجاحظ:الرّسائل الكلاميّة، ص246 .

(178) قيل: أنّ اليهودية كانت في حِمْير، وكنانة، وكندة، وبني الحارث بن كعب". أنظر، الدّميري: حياة الحيوان الكبرى، ج1، ص246؛ ولعلّ وجودها في كنانة، الأمر الّذي صرف الجاحظ من الخوض في الحديث عن اليهود.

(179) الدّهريّة، فرقة تقول بقدم الدّهر؛ أي بأزليّته، واستناد الحوادث إلى الدّهر، خبّر عنهم القرآن الكريم"وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ ونَحْيَا وما يُهْلكنا إلاّ الدَّهْر"سورة الجاثية، الآية، رقم24. أنظر، عبد القادر صالح: العقائد والأديان، ص131 .

(180) الجاحظ:الرّسائل الكلاميّة، ص261 .

(181) الجاحظ:الحيوان، ج1، ص96 .

(182) الصّابئة، القائلون بأنّ مدبّر العالم أكثر من واحد، ويقولون بقدم الأصلين، إلاّ أنّهم يقولون بتعظيم الكواكب السّبعة والبروج الإثني عشر، ويصوّرونها في هياكلهم، ويقولون بقدمها، ويُقرّبون الذّبائح، ولهم صلوات خمس في اليوم واللّيلة، تقرب من صلوات المسلمين، ويصومون شهر رمضان، ويستقبلون في صلاتهم الكعبة والبيت الحرام، ويعظّمون مكة والكعبة ويحرّمون الميتة والدمّ ولحم الخنزير. أنظر، ابن حزم الظّاهري: الفصل في الملّل والأهواء والنّحل،ج1، ص88 .

(183) ابن قيّم الجوزية:أحكام أهل الذّمّة، ج1، ص57 .

(184) ابن قيّم الجوزية: نفس المصدر، ص99 .

(185) الشّهرستاني:الملل والنّحل، ج2، ص273 .

(186) الشّهرستاني:نفس المصدر، ص291 .

(187) الجاحظ: الحيوان، ج1، ص70 .

(188) نفسه.

(189) هناك تقسيم لطبقات النّاس على أساس العلم، في تاريخ ابن النّجار عن ابن مبارك، قال: قدّمت على سفيان الثوري بمكّة، فوجدته مريضا شارب دواء، فقلت له:إنّي أريد أن أسألك عن أشياء، قال: قل، قلت :أخبرْني من النّاس؟ قال : الفقهاء قلت:فمن الملوك؟، قال:الزّهّاد، فقلت: فمن الأشراف؟، قال:الأتقيّاء، قلت: فمن الغوغاء؟ قال:الّذين يكتبون الحديث، يريدون أن يأكلوا به أموال النّاس، قلت: فمن السّفلة؟، قال:الظلمة، أمّا الغوغاء، فهي: الجراد، إذا احمّر، وبدت أجنحته، وهو يُذَكر، ويُؤنث، ويُصْرَف، ولا يصْرِف، واحدته غوغاوة، وبه سمّيت سفلة النّاس، المنتسبون إلى الشرّ، المسرعون إليه، قال أبو العبّاس الرّوزباني: الغوغاء، من يخالط المفسدين، والمجرمين، ويخاصم النّاس بلا غاية. أنظر، الدّميري: حياة الحيوان الكبرى، ج2، ص115 .

(190) الجاحظ:البيان والتّبيّين، ج1، ص64 .

(191) ابن العبراني(محمّد بن علي بن محمّد ت580هـ): الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق وتقديم: الدّكتور قاسم السّامرائي، دار الآفاق العربيّة، القاهرة، مصر، الطّبعة الأولى ، 1419هـ/1999م، ص 69 .

(192) ابن منظور:لسان العرب، مادّة عمّم، م10، ص287 .

(193) ابن منظور:نفس المصدر، مادّة رعى، م6، ص181.

(194) ربّما نظرا لكثرة عدد أفراد طبقة العامّة، سميت دار الخلافة بدار العامّة " زعم محمّد بن الجهم، وثمامة بن الأشرس، والقاسم بن يسار في جماعة، ممّن يغشى دار الخلافة، وهي دار العامّة. أنظر، الجاحظ: الرّسائل السّياسيّة، ص493 .

(195) طيبة صالح الشّذر: ألفاظ الحضارة العبّاسيّة في مؤلفات الجاحظ، دار قباء للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، 1998م، ص39 .

(196) الجاحظ:البيان والتّبيّين، ج1، ص64 .

(197) كثيرة هي الكلمات المتداولة أصلها من كلام العامّة، مثلا القّلنسوّة، تقول لها العامّة الشّاشيّة، وتقول لصانعها الشوّاشي، ويضاف إليها أنّها تكسر ما كان مفتوحا لغة، مثل السّرداب، الدّهليز، الأنفحة، وتضمّ ما كان مفتوحا، مثل خصوصيّة، تخوم الأرض، وممّا جاء مضموما، والعامّة تفتحه، على وجهه طلاوة". أنظر، السّيوطي(عبد الرّحمن جلال الدّين):المزهر في علوم اللّغة وأنواعها، شرحه وضبطه وعنون موضوعاته وعلّق حواشيه: محمّد أحمد جاد المولى، علي محمّد البجاوي، محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ص316 .

(198) في سنة220هـ/835م، كان الإمّام أحمد بن حنبل إمّام السنّة حين أحضره المعتصم بين يديه سلّم، وتكلّم بكلام أعجب النّاس، ثمّ قال في أثناء كلامه:يا أمير المؤمنين، إنّ لآبائي نسقا في هذه الدّعوة، فليسعني ماوسع أصحاب رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– من السكوت، والرّضا من جميعهم بأنّ القرآن كلام الله...فالتفتّ المعتصم إلى ابن أبي دؤادة وقال:ذكرتم أنّ الرّجل عاميّ ...ثمّ قال:وذكرتم أنّه جاهل، وما أراه إلاّ مُعرّبا فصيحا، وأكرمه. أنظر،ابن العبراني: الإنباء في تاريخ الخلفاء، ص105.

(199) الجاحظ:الحيوان، ج1، ص55 .

(200) الجاحظ:الرّسائل الكلاميّة، ص207 .

(201) الجاحظ:البيان والتّبيّين، ج1، ص11 .

(202) الجاحظ:نفس المصدر، ص 34.

(203) الجاحظ:نفس المصدر، ص61 .

(204) الجاحظ:الحيوان، ج4، ص71.

(205) الجاحظ: البخلاء، ص64 .

(206) قال: عبيد الله وزير المهدي: "البلاغة مافهمته العامّة ورضيته الخاصّة". أنظر، الثّعالبي(أبو منصور عبد الملك بن محمّد بن إسماعيل ت429هـ): تحفة الوزراء، تحقيق حبيب عليّ الرّاوي، الدّكتورة إبتسام مرهون الصفار، دار الآفاق العربيّة، مدينة نصر، الطّبعة الأولى،1420هـ/2000م، ص389.

(207) الجاحظ:الحيوان، ج2، ص250 .

(208) الجاحظ:الرّسائل الأدبيّة، ص 140.

(209) يقول الجاحظ: "وعندي صديق لي من السّوقة، له أدب". أنظر، الجاحظ: نفس المصدر، ص389 .

(210) الجاحظ: البيان والتّبيّين، ج1، ص65؛ قال عمر بن عبد العزيز إذا نظر إلى الحشو، والطُّغام:" قبّح الله هذه الوجوه، لا تُعرف إلاّ عند الشرّ". أنظر، الجاحظ: الرّسائل الكلاميّة، ص206 .

(211) الجاحظ: البيان والتّبيّين، ج1، ص108 .

(212) كان الشّاعر أبو العتاهيّة من سوقة النّاس، وعامّتهم؛ إذ كان في شبيبته يألف أهل التّوضّع، حتّى عوتب في ذلك. أنظر، المزرباني(أبو عبيد الله، محمّد بن عمران بن موسى ت384هـ):الموشح، تحقيق: عليّ محمّد البجاوي، دار النّهضة، مصر، 1965، ص403 .

(213) ذكر التّميز الّذي تعدّى الطّبقية إلى الدّرجات العلميّة "وحدّثني أبو حسّان الزّيادي، وذكر الفضل بن سهل، فترحّم عليه، وقال: وجّه إليّ في ليلة، وقد أويت إلى فراشي رسولا، فقال:يقول لك ذو الرّياستين:لا تعتمّ غدا على قَلنسوة، إذا حضرت الدّار، قال:فبتّ واجما، وأنا لا أعلم، ما يريد بذلك، وغدوت، وغدا النّاس على طبقاتهم، ومراتبهم". أنظر، الجاحظ: التّاج في أخلاق الملوك، تحقيق ونشر: دار الفكر، بيروت لصاحبها إبراهيم الزّين، 1375هـ، دار البحار لصاحبها أديب عارف الزّين 1955م ، ص101.

(214) الجاحظ:نفس المصدر، ص109 .

(215) الجاحظ:الرّسائل الكلاميّة، ص172 .

(216) كان المعتصم قد انتقل من مدينة السّلام، منذ بناها المنصور، وكان السّبب في ذلك، أنّ أهلها كرهوه، وتأذّوا بجواره، حين كثر عبيده الأتراك وغيرهم من الأعاجم، لما كانوا يلقون منهم، ومن غلظتهم، وربّما وثبت العامّة على بعضهم، فقتلوه لصدمهم إيّاهم في حال ركضهم، فأحبّ التّنحي بهم، والانفراد عن مدينة السّلام. أنظر، المسعودي: التّنبيه والإشراف، طبع في مدينة ليدن المحروسة ، مطبعة أبريل، 1893م، ص 355.

(217) واصل بن عطاء، هو أبو حذيفة واصل بن عطاء، المعروف بالغزّال، مولى بني ضبَّة، وقيل:مولى بني مخزوم، أحد الأئمّة البلغاء المتكلّين في علم الكلام وغيرها، ولد عام80هـ/699م، وتوفّي عام121هـ/739م، من أهل المدينة ذكرالجاحظ سبب كنيته بالغزّال؛ كونه يُكثر الجلوس في سوق الغزّالين، إلى أبي عبد الله مولى قطن الهلالي، واحتجّ على تسميته بالغزّال، بقوله:قد كتبنا احتجاج من زعم أنّ واصل بن عطاء، كان غزّالا، واحتجاج من دفع ذلك عنه، ويزعم هؤلاء أنّ قول النّاس واصل الغزّال، كما يقولون خالد الحذّاء، إنّما قيل ذلك:لأنّه يُكثر الجلوس في سوق الغزّالين. أنظر، الكتبي:فوات الوفيات، ج2، ص624؛ ابن النّديم:الفهرست، ص203؛ الجاحظ:البيان والتّبيّين، ج1، ص ص27 ،28 .

(218) الجاحظ:الرّسائل الكلاميّة، ص 205.

(219) نفسه.

(220) الجاحظ: الرّسائل الكلاميّة، ص209 .

(221) نفسه.

(222) الجاحظ: نفس المصدر، ص209 .

(223) الجاحظ: الرّسائل السّياسيّة، ص 307.

(224) الجاحظ: مصدر سابق، ص259 .

(225) الجاحظ: الحيوان، ج2، ص254 .

(226) الرّقيق الأبيض كان يُحمل من وراء النّهر، وأصله من الصّقالبة، أو من الخزر الأتراك من بادية تركستان، أنظر، جرجي زيدان: التّمدّن الإسلامي، ج5، ص46.

(227) الخاصّة، أنظر، محتوى العنصر الموالي، ص95.

(228) تقول العامّة في تحبيبها العمل "كلب جوّال خير من أسد رابض". أنظر، الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص255 .

(229) الجاحظ: الرّسائل السّياسيّة، ص307 .

(230) يذكر جرجي زيدان عناصر طبقة العامّة، بما يشبه ماذكره الجاحظ، ويُفصّل أكثر؛ بأنّها طبقتان، فيها أهل الحرف الرّاقيّة، وتجّار السّلع، والأقمشة، وهي طبقتان، طبقة المقرّبون من الخاصّة، وهم الّذين يستظلّون بها، ويعيشون من عطاياهم، أو رواتبهم، أو يرتزقون من بيع سلعهم لهم، وهم أربع فئات، أهل الفنون الجميلة، من شعراء وأدباء وفقهاء وموسيقيّين، وتُجار، وصُنّاع، أمّا الطّبقة الثّانية للعامّة، فيها الباعة، وأهل الحرف، والرّعاع، ومنهم الزّرّاع، والرّعاع، والعيار، والشُطّار واللّصوص والصّعاليك والمخنُثّون .أنظر، جرجي زيدان: التّمدّن الإسلامي، ج5، ص38وما بعدها.

(231) الأبشيهي(شهاب الدّين، محمّد بن أحمد أبو الفتوح): المستطرف في كلّ فنّ مستظرف، شرحه ووضع حواشيه: الدّكتور مفيد محمّد قميحة، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّانية، 1423هـ/2002م، ج1، ص313 .

(232) الجاحظ: البيان والتّبيّين، ج1، ص109 .

(233) ابن كثير: البداية والنّهايّة، ج1، ص109 .

(234) محمّد عبد القادر أبو الفوارس:القاضي أبي يعلى الفرّاء والأحكام السّلطانيّة، مؤسسة الرّسالة، مصر، بدون تاريخ، ص175 .

(235) الجاحظ:الرّسائل الأدبيّة، ص141 .

(236) الجاحظ: الرّسائل السّياسيّة، ص77 .

(237) الجاحظ: البيان والتّبيّين، ج1، ص61 .

(238) المسعودي: مروج الذّهب، ج3، ص283 .

(239) طبقة الخاصّة خمسة أقسام :الخليفة، أهله، رجال دولته، أرباب البيوتات، توابع الخاصّة، أتباع الخاصّة: الجند، الأعوان، الموالي، الخدم. أنظر، جرجي زيدان:التّمدّن الإسلامي، ج5، ص26وما بعدها .

(240) الجاحظ:الرّسائل الكلاميّة، ص56 .

(241) الجاحظ: التّاج، ص248 .

ثانيا: الزّندقة، والشّعوبيّة، ومظاهرهما في المجتمع العباسي:

عرف المجتمع العبّاسي في عصره الأوّل انتشارعدّة أفكار، مارست تأثيراتها عليه، إمّا لتغيير إسلامه إلى ديانات أخرى، أو لإبراز تفوّق تقاليد وعادات قديمة لإحدى تركيباته البشريّة كالفارسيّة مثلا خاصّة قصد العودة به إلى ما كان سابق عهده من نظم فارسيّة، ربّما للبرهنة على فشل البيت العبّاسي في تكوين دولة لوّحت في شعارات تأسيسها بالمساواة والحريّة والعدل، ومن ثمّ ظهرت فكرتا الزّندقة والشّعوبيّة، اللّتان كان للجاحظ سبق في تحديد مفهومهما، والتّنبيه إلى مخاطرهما على الفرد العبّاسي وقتها اجتماعيّا وعقائديّا.

مع الإشارة إلى التّرجمة وعيوبها وبعض مصطلحات التّعبّد، كالتّنسك والزّهد الّتي أضحت متداولة لدى كلّ التركيبات المجتمعيّة، ممّا كان له أثر في الإحتفال بالمناسبات وممارسة العادات والارتقاء ببعضها في مسألة الأزياء والملابس وقتها، ثمّ تأثيرها المباشرفي النّشاط الحِرفي، وتميّزه من فئة لأخرى ومن طبقة لطبقة، ومنه الواقع الاقتصادي للدّولة العبّاسيّة حينذاك.

فإلى أيّ مدى وُفّق الجاحظ في تقريب مفهوم كلّ من الزّندقة والشّعوبيّة للفرد العبّاسي المسلم، خاصّة وأنّ الأغلبيّة وقتها كانت من العامّة، الّتي لا تُفَعّل عقلها، وتسير بمبدإ التّقليد الأعمى؟ وهل كانت تلك الأفكار محليّة أم مستوردة؟ وما دور الفرد العبّاسي المسلم في انتشارها من الخاصّة كان أو من العامّة؟ وما قدرة الجاحظ في تشخيص المخاطر المنتظرة لها انطلاقا من دراسته للواقع وقتها مجتمعيّا وعقائديّا؟ وأيّ الفئات المجتمعيّة كانت أكثرخطرا على الأخرى في المجتمع العبّاسي وقتها؟.

1- الزّندقـــة:

أ- مفهوم الزّندقة عند الجاحظ:

لم يذكر الجاحظ في مؤلّفاته تعريفا مباشرا للزّندقة[1]، فعباراته في كتاب الحيوان تأتي متأرجحة في تحديد مفهوم الزّنادقة بدقّة وصراحة، إذ وصف لنا أنواع كتب الزّنادقة وليس إيمانهم، ولكنّنا نستشفه من خلال قراءات تمحيصية، لما ذكر بين طيّات كتبه، فأحيانا يذكرها في إطار مقارنتها بدين النّصارى بأنّها دين "ودين الزّندقة في الكفّ والسّلم، أسوأ من دين النّصارى"[2].

ويربطها بعبادة الإثنين الظّلمة والنّور، من خلال ما حوت كتبهم[3] " فجلّ ما فيها ذكر النّور والظّلمة وتناكح الشياطين وتسافد العفاريت، وذكر الصّنديد والتّهويل لعمود الصّبح والإخبارعن شقلون وعن الهامة، وهذر، وعيّ، وخرافة، وسخريّة، وتكذيب"[4]، منه فتعريفها مرتبط بالمانويّة[5] والزّرادشتيّة وحتى الدّيصانيّة والمرقيونيّة، لاشتراكها في ذكر الظّلمة والنّور، لذلك فهي قريبة من النّصرانية، وكذا الإلحاد.

ما يُفهم منه أنّهم نِحل[6] "ودينهم يرحمك الله يضاهي الزّندقة[7]، ويناسب في بعض وجوهه قول الدّهريّة "والدّليل على ذلك أنّا لم نر أهل ملّة قطّ، أكثر زندقة من النّصارى"[8] وفي سياق آخر يعرّفها[9] بأنّها إظهار للدّين الإسلامي، وتطبيق لتعاليم ديانات أخرى خاصّة النّصرانية " ألا ترى أنّ أكثر من قتل في الزّندقة، من كان ينتحل الإسلام ويُظهره، هم الّذين آباؤهم وأمّهاتهم نصارى"[10].

وفي حالة أخرى قرنها بالمجون والتّعرّض للحرمات، مثلما نقل لنا عن معاملة أبناء الوزير أبي عبيد الله لزوجة الخليفة المهدي الخيزران، وقضية الحمّام " فلمّا رجعت الخيزران أخبرت المهدي بذلك، فكان السّبب[11] في قتل المهدي محمّد بن أبي عبيد الله على الزّندقة "[12] أو هي من دلائل التعبد للمتكلّمين، الّتي تجعل الزّندقة تهمة، أو لقبا لمن لا يسير في طريقهم[13] "ونُسك المتكلّم التّسرّع إلى إكفار أهل المعاصي، وأن يرمي النّاس بالجبر أو بالتّعطيل أو بالزّندقة، يريد أن يوهم أمورا منها، أنّ ذلك ليس إلاّ من تعظيمه للدّين والإغراق فيه، ولم نجد في المتكمين أنطف –عيب– ولا أكثر عيوبا، ممّن يرمي خصومه بالكفر"[14] .

- تنظيمها ومبادؤها:

في إطار مقارنة الجاحظ للزّندقة بدين النّصارى، يذكر تقاربهما في وجود رجال الدّين كالرّهبان دون وجود معابد أو كنائس للزّنادقة، وربّما هذا ما يجعل من الصّعوبة على الخلافة العبّاسيّة الوصول إليهم[15]؛ بل يعتمد هؤلاء الرّهبان على التّجوال[16]، ولعلّ

ذلك سبيلا لتمييزدينهم عن دين النّصارى، وإذا أخذنا بعين الاعتبارأنّ الزّندقة دين، فرهبان الزّنادقة سيّاحون[17]، لأنّهم جعلوا السّياحة بدل تعلّق النسطوري في المطامير، والملكاني في الصّوامع ومقام النّسطوري في المطامير، ولا يسيحون إلاّ أزواجا[18].

ويعطينا الجاحظ إشارات إلى إمكانيّة التّعرف على الزّنادقة، وتخوّفهم من السّلطة العبّاسيّة من خلال عدم استقرارهم في مكان معيّن، لكنّه لا يوضح هل التّعرّف عليهم راجع للباسهم أو شيئ آخر؟ "ومتى رأيتَ منهم واحدا، فالتفتّ، رأيتَ صاحبه، والسّياحة عندهم أن لا يبيت أحدهم في منزل ليلتين"[19].

ويبدو أنّ تلك السّياحة لم تكن إلاّ لنشر تعاليم الزّندقة[20]، الّتي حصرها الجاحظ في أربع خصال هي: القدَس، والطُهر والصدق والمسكنة[21]، وهي ألفاظ تقبلها العامّة المسلمة؛ لأنّ في ديننا الإسلامي ما يشبهها شكلا، لكنّها تختلف في مضمونها، عمّا يدعوا إليه الزّنادقة، ويظهر أنّ للرّهبان تعّبدًا خاصّا بهم، فأمّا المسكنة فأن يأكل من المسألة، وممّا طابت به أنفس النّاس له حتّى لا يأكل من كسب غيره، الّذي عليه عزمه[22] .

وهو ما يشبه تماما ما يظهره الصّوفي المسلم من نسك للنّاس في بعض الحالات، إذا كان فسِلا ببعض العمل، تطرّف وأظهر تحريم المكاسب وعاد سائلا، وجعل مسألته وسيلة إلى تعظيم النّاس له[23]، في حين يترك ما أحلّ الله من جماع في المبدإ الثّاني الطُّهر، وأمّا الصّدق فعلى أن لا يكذب، وأمّا القدَس فعلى أن يكتم ذنبه وإن سُئل عنه[24]، ولذلك فهم يمثّلون السلبيّة في تحفيز النّاس للعمل، والاندماج في الحياة العاديّة، بإظهارالمحاسن دون المساوئ للنّاس، فالتّعبد كان أحد أوجه الزّندقة.

2- وسائل الزّنادقة:

الجاحظ تبعا لما تدعو إليه طريقته، ناقش الزّندقة انطلاقا ممّا شاهده أو سمعه عن محتوى كتب الزّنادقة، الّتي كانت بين أوساط الخاصّة تحديدا، ومن ثمّ فستصل إلى العامّة، إذ نقل لنا ما سمعه من إبراهيم السّندي الفارسي الأصل، مدى جاذبية كتبهم للاقتناء من طرف المشاهد لها من جهة، ومن جهة أخرى قوله: " وددت أنّ الزّنادقة، لم يكونوا حرصاء على المغالاة بالورق النّقيّ الأبيض وعلى تحلّل الحبر الأسود المشرق البرّاق وعلى استجادة الخطّ والإرغاب لمن يخطّ، فإنّني لم أر كورق كتبهم ورقا، ولا كالخطوط الّتي فيها خطّا "[25].

وعليه فالجاحظ بما يذهب إليه يشير إلى فكرة هامّة، كان يركّز عليها الزّنادقة، وهي الاستفادة من تغييب العقل في إدراك ما بعد ماتراه العين، وهو للأسف عند الغالبيّة حتّى تجذب إليها؛ بل وإلى أفكارها الّتي تحويها، يؤكّد الجاحظ الّذي اطّلع عليها من أنّها لم تكن نافعة أصلا للمجتمع العبّاسي الإسلامي.

والجاحظ بصفته أديبا كاتبا لم يهتم بذكر أسماء الزّنادقة، بل وصف إيمانهم من خلال مااطّلع عليه من كتبهم[26] الّتي شبّهها بكتب النّصارى، لا تحوي منافعا معاشيّة أو فكريّة، وأنّ الزّنادقة في اهتمامهم بإصدار كتبهم والإنفاق عليها، قد حاكوا النّصارى في هذا الأمر[27].

وهذا يجعلنا نذهب إلى أنّ الجاحظ، كان ملمّحا لخطرهم، وخطر تلك الكتب، ولذلك فمحاربة الخلافة العبّاسيّة من المفروض، أن يكون لمنع تلك الكتب من التّداول بين النّاس، وليس محاربة الزّنادقة كأشخاص حاملين للزّندقة؛ لأنّ قتل الزّنادقة فيه تعظيم للزّندقة ذاتها من المعتنقين لها.

ويشير الجاحظ إلى صعوبة محاربتها من طرف المتكلّمين؛ لأنّ محض العمى التّقليد في الزّندقة، إذا رسّخت في قلب امرئ تقليدا أطالت جرأته، وأستغلق على أهل الجدل إفهامه[28] خاصّة وأنّ إصدار هذه الكتب لم يكن عشوائيّا؛ بل مخطّطا له، إنّما إنفاقهم في ذلك كإنفاق المجوس على بيت النّار، وكإنفاق النّصارى على صلبان الذّهب، أو كإنفاق الهند على سدنة البددة[29].

واستغرب قضيّة تزيينهم لكتبهم الموجّهة، لغرض نشر الزّندقة " فما بالهم، لا يصنعون ذلك إلا بكتب ديانتهم، كما يزخرف النّصارى بيوت عباداتهم "[30]، ولعلّ ذلك ما يتّفق مع ماذكره ابن خلدون، من أنّ ابن الزّيّات، قال للأفشين[31]: " مابال الكتاب المحلّى بالذّهب والجوهر عندك وفيه الكفر"[32]، فردّ عليه:"كتاب ورثته من آبائي، وأوْصوني بما فيه من آدابهم"[33].

مشيرا إلى خطرها الأعظم في أنّها تنشر عبادة الاثنين[34]، ممّا قد يسيئ ويهدد أصل التّوحيد، الّذي هو أوّل أصول الاعتزال، وجاذبيتها قد تجعل العامّة مقبلة على تقبّل ما فيها مباشرة؛ لأنّ العامّة تأخذ علومها من القصّاص، الّذين يستميلون النّاس بالتّهويل والحديث عن الخوارق، خاصّة وأنّها لا تحوي موعظة حسنة ولا حديثا مونقا ولا تدبير معاش ولا سياسة عاملة، ولا ترتيب خاصّة، ووصف كتبهم بأنّها أداة للتّجهيل، مستغربا إقبال النّاس عليها " أيّ كتاب أجهل، وأيّ تدبير أفسد من كتاب، يوجب على النّاس الإطاعة، والتّحرّج بالدّيانة على جهة الاستبصار والمحبّة، وليس فيه صلاح معاش ولا تصحيح دين؟"[35].

وفي ذلك من الجرأة ما قد يفهمه النّصارى، بأنّه تهجّم من الجاحظ عليهم مباشرة، ومناصبة للعداء لهم "ودينهم يرحمك الله، يضاهي الزّندقة، والدّليل على ذلك، أنّا لم نر أهل ملّة قطّ أكثر زندقة من النّصارى، ألا ترى أنّ أكثرهم من قُتل في الزّندقة، من كان ينتحل الإسلام ويُظهره هم الّذين آباؤهم وأمّهاتهم نصارى"[36].

فالجاحظ يُبعد تهمة الزّندقة على العرب، وذهب بعض المستشرقين إلى إبعاد الزّندقة عن النّصارى، الّتي علّق الجاحظ عن مضمونها "وجلّ مافيها ذكر الظّلمة والنّور، وهذا المضمون إن دلّ على شيئ إنّما يدلّ على عبادة الاثنين عند زنادقة الجاحظ، ونتساءل عن سبب ذكر المجوس والنّصارى ومقارنتهم بالزّنادقة؟"[37]، لذلك يقدّم الجاحظ دليلا على اتّهامه لهم، ويصبّ امتعاضه منهم، ناسبا إليهم كلّ بلوى في المجتمع الإسلامي، خاصّة وأنّهم يخلون بضعفائنا ويسألون عنّا عوّامنا، مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزّنادقة[38] الملاعين[39].

لذلك فمجالسة الزّنادقة النّصارى للعامّة، قد أثّر تأثيرا مباشرا على عقيدة الأفراد ، إذ نرى أنّ الزّندقة لما كانت في خصوصيّاتها المانويّة، ساعد ذلك العامّة على الاشتباه في أمرها؛ لأنّ بعض شعائرها، تشبه الشّعائر الإسلاميّة شكلا[40]، فكان على أتباعها أن يُصلّوا سبع أو أربع صلوات في اليوم وفي الصّلاة الواحدة عدّة ركعات، ويتوضّؤون قبل الصّلاة، وكان عليهم أن يصوموا أيضا.

ومن جهة كانت المانويّة تجمع آراء مسيحيّة وزرادشتيّة، فكان لها قابلية كبيرة على جلب المسيحيّن والزّرادشتيين إلى صفوفها[41]، كما رصد لنا الجاحظ بعض إشارات التّعرّف عليهم من خلال ألفاظ، يتداولونها باللّغة العربية تحديدا من تلك الّتي لم تكن متداولة عند العامّة ولا الخاصّة.

ويمكن التّعرّف عليهم بسهولة "والأصل في ذلك أنّ الزّنادقة أصحاب ألفاظ في كتبهم وأصحاب تمويل؛ لأنّهم حين عدموا المعاني ولم يكن عندهم فيها طائل، مالوا إلى تكلّف ما هو أخصر وأيسر وأوجز كثيرا، ولكلّ قوم ألفاظ حظيت عندهم، فصار حظّ الزّنادقة من الألفاظ الّتي سبقت إلى قلوبهم واتّصلت بطبائعهم وجرت على ألسنتهم: التناكح، المزاح، النور، الظّلمة، الدّفاع، المناع، الغّامر، البُطلان، الوُجدان، الأثير، الصّديق، وأشكالا من هذا الكلام فصار، وإن كان غريبا، مرفوضا مهجورا عند أهل ملّتنا ودعوتنا، وكذلك هو عند عوّامنا وجمهورنا، ولا يستعمله إلاّ الخواص وإلاّ المتكلّمون"[42] .

لجأوا أيضا إلى نشر الأخبار المغلوطة الّتي تجذب إلى تصديقها كلّ من لا يستعمل عقله ويُمحّص فيها، قد سمعت من يذكر أنّ كبر أذن الإنسان دليل على طول عمره، حتّى زعموا أنّ شيخا من الزّنادقة لعنهم الله تعالى، قدّموه لتُضرب عنقه، فعدا إليه غلام سعدي كان له فقال:أليس قد زعمت يامولاي أنّ من طالت أذنه، طال عمره؟ قال:بلى، قال:فهاهم يقتلونّك قال: إنّما قلت: إن تركوه[43].

وفي الحقيقة أنّ انتشار مثل هذه وتصديق النّاس لها دليل على تردّي في المجتمع العبّاسي أو دليلا على ما آلت إليه حركة الزّندقة، وأنّ العرب الّذين استساغوا الإسلام البسيط والسّمح، لم يستطيعوا فهم المانويّة، كما أنّ المانويّة أنفسهم، لم يندمجوا في المجتمع

الإسلامي، ولم يفهموه، وبقوا مصرّين على عدم فهمه، رغم تعلّمهم العربيّة وتعريب كتب ديانتهم، ممّا يعني فشل مخطّطاتهم الّتي حاولوا تنفيذها[44].

وهذا يؤكد أنّ الأمر، كان تنظيما فكريّا مخطّطا له من تلك الفئات القريبة والمحتكّة بالعامّة على حدّ سواء من أطبّاء ومتكلّمين ومنجّمين نصارى " فلولا متكلّمو النّصارى وأطبّاؤهم ومنجّموهم، ما صار إلى أغبيائنا وظرفائنا ومجّاننا وأحداثنا شيئ من كتب المنّانيّة والدّيصانيّة والمرقونيّة...ولما عرفوا غير كتاب الله تعالى وسنّة نبيّه"[45].

ويظهر أنّ الجاحظ، لم يحكم بالزّندقة على الكثير من الشّعراء وغيرهم كبشار بن برد[46] وذكر بعضا من أشعاره في كتاب البيان والتّبيّين، لنستدّل بها على وضعه إزاء الزّندقة[47] ويبدو أنّه كان محقّا، فقد روى مؤرخون أنّ قتله في الزّندقة كان خطأ[48]، كما أبعد سبب قتل بعض الكتّاب، كابن المقفّع[49] لسبب الزّندقة، موردا السّبب الحقيقي لقتله أنّه كان سياسيّا، ولم يكن لسبب الزّندقة، ثمّ كتب لبني العبّاس عبد الله بن المقفّع، فأغرى بهم عبد الله بن عليّ، ففُطن له وقُتل، وهُدِم البّيت على صاحبه، في حين يثبت الزّندقة على كتّاب آخرين، مثل قوله: ثمّ كتب لهم يونس بن أبي فروة، وكان زنديقا، فطُلب، فاختفى بالكوفة والنيل حتّى هلك[50].

2- الشّعوبيّة ودعواها:

أ- مفهومها عند الجاحظ:

يعرّفها الجاحظ بالنِحلة الدّينيّة "ثمّ إعلم أنّك لم تر قوما قطّ أشقى من هؤلاء الشّعوبيّة، ولا أعدى على دينه، ولا أشدّ استهلاكا لعرضه، ولا أطول نصبا، ولا أقلّ غنما من أهل هذه النّحلة[51]، ثمّ يعرفها بالمذهب "لأنّ الشّعوبيّة، قد طعنت في جملة هذا المذهب على قضيب النّبي صلّى الله عليه وسلّم" [52].

ويربط الجاحظ ظهورالشّعوبيّة بواقع المجتمع العبّاسي سلطة وعامّة، دون تحديد خليفة بعينه أو وزير أو كاتب؛ لأنّ المشكلة تعدّت الأشخاص على ما يبدو إلى الأمّة "وأرجو أن يكون الله، قد أغاث المحقّين ورحمهم، وثوى ضعفهم وكثّر قلّتهم، حتّى صار ولاّة أمورنا في هذا الدّهر الصعب والزّمن الفاسد، أشدّ استبصارا في التّشبيه من علّيتنا، وأعلم بما يلزم فيه منّا، وأكشف للقناع من رؤسائنا"[53].

أمّا على مستوى طبقة العامّة، فكان التأثير واضح من عدم سيادة التّفكير والتّقبّل لكلّ ما يطرح من جديد دون رويّة، وهو ما شجّع انتشار الشّعوبيّة "وصادفوا النّاس، وقد انتظموا معاني الفساد أجمع وبلغوا غايات البدع، ثمّ قرنوا بذلك العصبيّة الّتي هلك بها عالم بعد عالم والحميّة، الّتي لا تُبقي دينا إلاّ أفسدته، ولا دنيا إلاّ أهلكتها"[54].

فظهور الشّعوبيّة كان مخطّط ومدبّر له، أوّلا بتهيّئة المجتمع العبّاسي الإسلامي وقتها قمّة وقاعدة لتقبلها كجديد يفرض نفسه، وجب تقبّله كأمر واقع، إلاّ أنّ الّذين قادوا الشّعوبيّة لم يكونوا عامّة العجم؛ بل أولئك العجم الّذين كانوا يمثّلون طبقة الموالي في المجتمع العبّاسي؛ أي الّذين تمّ تقبّلهم في المجتمع العبّاسي كتركيبة طبيعيّة فيه.

وعليه فتركيز الجاحظ على الموالي، وكما سبق أن شرحته في الفصول السّابقة، لم يكن من باب العشوائيّة؛ بل لما لهذه الفئة من دور في التّنكّرلمواليها، خاصّة على مستوى القصور و طبقة الخاصّة "وهو ما صارت إليه العجم من مذهب الشّعوبيّة، وما قد صار إليه الموالي من الفخر على العجم والعرب، وقد نجمت من الموالي ناجمة، ونبتت منهم نابتة، تزعم أنّ المولى بولائه، قد صار عربيا لقول النّبي"مَوْلَى القَوْمِ مِنْهُمْ"وقوله"الوَلاَءُ لُحْمَةٌ كَلُحْمَةِ النَسَبِ، لاَ يُبَاعُ وَلاَ يُوهَبُ"[55].

ومعايشتهم للعرب، وتعرّفهم الأكيد على تاريخهم من معاملاتهم الّتي لا تعبّرعن حقيقة العربي وقتها، للتّأثيرات الّتي مورست عليها، وربّما لوقوفهم على حقيقة من يحكم، ويدير القصور العبّاسيّة، أنّهم من العجم عموما؛ كل ذلك دفعهم إلى فكرة الاستعلاء وطلب المكانة الحقيقيّة الّتي من المفروض أن يكونوا عليها، من أنّهم أسياد والعرب مسودين.

وكانوا أيضا ضدّ بني جلدتهم من العجم[56]، قالوا: "نحن معاشر الموالي بقديمنا في العجم أشرف من العرب وبالحديث الّذي صار لنا في العرب أشرف من العجم، ولنا خصلتان وافرتان فينا جميعا، وصاحب الخصلتين أفضل من صاحب الخصلة، وقد جعل الله المولى بعد أن كان عجميا عربيّا بولائه، كما جعل حليف قريش من العرب قرشيّا[57].

وحديث الجاحظ هذا يؤكّد أنّهم لم يرفضوا الإسلام نظريّا، لكنّهم لم يتمثّلوه تطبيقيّا، فهم قد أهانوا الإسلام؛ بل ركّزوا على النّسب وعراقة الأصل، لذلك فالجاحظ لم يناقش أهل الشّعوبيّة من باب التّسوية[58] بينهم وبين العرب؛ بل من باب التّصغير لهم من شأن العرب، فالشعّوبيّة إذن نوع من المنافسة بين الفرس والعرب باعتبارهم عربا مسلمين، إذ نادى شعوبيو القرن الثّالث بأفضلية الفرس، أو غيرهم من الأمم غير العربيّة على العرب، ودافعوا عن دعواهم بحجج اجتماعيّة وثقافيّة لا دينيّة[59].

ومن جهة أخرى تنبيهه إلى الصّفة الّتي كانوا يظهرون بها وهي التّسويّة[60] الّتي ما هي في الحقيقة إلاّ غطاء لإخفاء حقيقة ما تسعى إليه الشّعوبيّة[61]، من تحقير للعرب خاصّة للخطباء ما يدخل في باب الثّقافة "ونبدأ على اسم الله، بذكر مذهب الشّعوبيّة، ومن يتحلّى باسم التّسويّة وبمطاعنهم على خطباء العرب، بأخذ المِحْصرة[62] عند مناقلة الكلام، ومساجلة الخصوم"[63].

ثمّ إنّه لم يقصد بالشّعوبيّين الفرس فقط؛ بل العجم الموالي وفكرة العجم تشمل الهنود والزّنوج[64]وغيرهم، والأكثر من ذلك يذكر "وإنّما بدأنا بذكر سليمان صلّى الله عليه وسلّم؛ لأنّه من أبناء العجم والشّعوبيّة إليهم أميل، وعلى فضائلهم أحرص"[65]، وخصّ الفرس أكثر؛ لأنّهم مثّلوا أغلبيّة العجم في القصور العبّاسيّة في العصرالعبّاسي الأوّل، وأنّ بعضا منهم يمثّل جناحا متعصّبا "قالت الشّعوبيّة، ومن يتعصّب للعجميّة"[66].

ب- **دعواها ووسائلها:**

يركّز الجاحظ على ماذهبت إليه عيون الشّعوبيّين، ربّما لتوضيح أساس الجاحظيّة من تركيزها على احتفاظ العرب بالعصا، رغم التّحوّلات المشهودة من قصور وغيرها من مظاهر التّحضّر، وهو اعتراف في الحقيقة منهم بطريقة ضمنيّة لا تصريحيّة، أنّ هناك أصلا عربيّا رغم ما تتداوله الشّعوبيّة.

وإن ركّز الجاحظ على الخطباء والخلفاء العبّاسيّين خاصّة في حمل العصا والمخاصر وغيرهما "أردنا أبقاك الله أن نبتدئ صدر هذا الجزء من البيان والتّبيين، بالرّدّعلى الشّعوبيّة في طعنهم على خطباء العرب وملوكهم، إذا وصلوا أيمانهم بالمخاصر، واعتمدوا على وجه الأرض بأطراف القِسّي [67] والعِصيّ، وأشاروا عند ذلك بالقضبان القُنى"[68] من جهة.

ومن جهة أخرى اعتمادهم على الشّعر كوسيلة جدل في ذاك الوقت" ونبدأ على اسم الله بذكر مذهب الشّعوبيّة، ومن يتحلّى باسم التّسويّة وبمطاعنهم على خطباء العرب، بأخذ المِحْصرة عند مناقلة الكلام، ومساجلة الخصوم بالموزون والمقفّى والمنثور الّذي يُقفّ وبالأرجاز عند المتج"[69].

ما يؤكد أنّ هناك منطقا عربيّا يستعمل الشّعر، حتّى وصلوا في تصغير شأن العرب إلى الشّتم والاستهزاء"وقد طعنت الشّعوبيّة على أخذ العرب في خطبها المِخصرة والقناة والقضيب والإتّكاء والإعتماد على القوس، والحدّ في الأرض، والإشارة بالقضيب بكلام مستكره"[70]، قالت الشّعوبيّة ومن يتعصّب للعجميّة:"القضيب للإيقاع والقناة للبقّار والعصا للقتال والقوس للرّمي"[71].

ولعلّ هذا ما حدا بالجاحظ للرّدّ على العجم الّذين أصبحوا يحتلّون أرفع المراتب، فأضحوا خطرا؛ لأنّهم يدينون سرّا بديانتهم المجوسيّة، وإن كانوا يتظاهرون بالإسلام، ويزدرون العرب ليقينهم بتفوّق حضارتهم وثقافتهم الفارسيّة، وإن كانوا يحسنون العربيّة، فتبصّر الجاحظ بكلّ ذلك، فالتمس ما للعرب وما على الفرس في ميدان الثّقافة، وبحث عمّا يبرهن على تفوّق العرب وتقصير العجم[72].

الجاحظ أيضا انطلق من مشاهدة، فالشّعوبيّة أجنحة، فيها جناح يظهرالتّسويّة مع العرب لكنّه يتّفق مع المتعصّب في التّصغير من شأن العرب، فالتّسويّة قد تسهّل عليهم معرفة أحوال العرب إزاءهم؛ بل وصلت حتّى للتّصغير من شأن الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، ممّا يلفت الانتباه إلى إسلامهم النّظري فقط، وأنّ الشّعوبيّة قد جاهرت بما تُخفيه[73]؛ لأنّها قد طعنت في جملة هذا المذهب على

قضيب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وعنزته وعلى عصاه ومِخصرته وعلى عصا موسى؛ لأنّ موسى صلّى الله عليه وسلّم، قد كان اتّخذها من قبل أن يعلم ما عند الله فيها[74].

ويمكن اعتماد أدلّة وحجج تصغيرهم بشأن العرب دليلا على اعترافهم بتمسّك العرب خلفاء ورعيّة بأصالتهم، الّتي لم يقدر اللّسان العجمي ولا العادات الدّخيلة معهم تغييرها "وقد نُقلت كتب الهند وتُرجمت حِكم اليونان، وحُوّلت آداب الفرس، فبعضها إزداد حِسنًا وبعضها ما انتقص شيئا، لم تذكره العجم في كتبهم، الّتي وُضعت لمعاشهم وخُطبهم وحِكمهم، وقد نقلت هذه الكتب من أمّة الى أمّة ومن قرن إلى قرن ومن لسان إلى لسان، حتّى انتهت إلينا وكنّا آخر من ورثها، ونظر فيها"[75]، ما يدل أنّ كتب الشّعوبيّين، عرف المتكلّمون خاصّة أهل الاعتزال من أصحاب الجاحظ خطورة مافيها.

وعليه فهؤلاء الحاملين لهذه الحملة الشّديدة على العرب، كانت اللّغة العربيّة، وهي إذ ذاك لغة الدّين والعلم والسيّاسة، ففاتهم أنّ اضمحلال لغاتهم الأصليّة على تعدّدها، وبلوغ أكثرها درجة عاليّة من الرُقيّ، وحلول العربيّة محلّها، كلّها برهان قاطع على رئاسة العرب وسِمَة على جباههم، لا يمحوها الدّهر[76] من محو سماتها، وهي دليل على نجاح اللّغة العربيّة، اللّغة حيث تنتصر اللّغة، تتطوّر عقليّة الجماعة تطوّرا كبيرا[77].

و ذهب بعض الدّارسين، من أنّ كتاب البخلاء ما هو إلاّ محاولة لانتقاد الشّعوبيّين، وإثبات البخل عليهم وإلصاقه بهم، بوصفه نقيصة من النّقائص الإنسانيّة المعيبة[78]، ولعلّ الجاحظ يبرز حقيقة أخرى تأكيديّة على مدى بقاء الأصالة العربيّة، الّتي ربّما قد يُشكّك في أمرها؛ لأنّ الشّعوبيّة ركّزت أكثر على ما بالقصور وطبقة الخاصّة "وأخرى أنّك متّى أَخذْت بيد الشّعوبي، فأدخلته بلاد الأعراب الخُلّص ومعدن الفصاحة التّامّة، ووقّفته على شاعر مغلق أو خطيب مُصْقَع، علم أنّ الّذي قلت هو الحقّ، وأبصر الشّاهد عيانا، فهذا فرّق ما بيننا وبينهم"[79].

فاللّغة العربيّة وبقائها، كانت أكثر أدلّة الجاحظ على ما ذهب إليه، وهذا ما جعله يستنتج أنّ الشّعوبيّة، فشلت في محو الأصالة العربيّة، ومنه حسدت العرب على ذلك، ما يدلّ أنّهم لم يتمثّلوا الإسلام حقيقة؛ لأنّه يرفض الحسد" ثمّ اعلم أنّك لم تر قوما قطّ أشقى من هؤلاء الشّعوبيّة ولا أعدى على دينه ولا أشدّ استهلاكا لعرضه ولا أطول نصبا ولا أقلّ غنما من أهل هذه النّحلة، وقد شفى الصّدور منهم طول جثوم الحسد على أكبادهم، وتَوَقُّد نار الشّنآن في قلوبهم، وغليان تلك المراجل الفاترة، وتَسّعُر تلك النّيران المضطرمة، ولو عرفوا أخلاق أهل كلّ ملّة وزيّ أهل كلّ لغة وعللهم على اختلاف شاراتهم وآلاتهم وشمائلهم وهيئاتهم وما علّة كلّ شيئ من ذلك، ولِمَ اجتلبوه، ولِمَ تكلّفوه لأراحوا أنفسهم، ولخفّت مؤونتهم على من خالطهم"[80].

وما يؤكّد كرم العرب معهم، أنّ الخلفاء العبّاسيّين ولّوهم مناصب حسّاسة، على أساس أنّهم مسلمين، لا على أساس أنّهم عجم، ولكنّهم وظّفوها للقضاء على العنصر العربي، كما فعل الأفشين التّركي الأصل في عهد الخليفة المعتصم، وقد كان الأفشين الّذي سعى لقتل من ولاّه طمعًا في إيصال العجم إلى الحكم بدل الخلفاء العبّاسيّين العرب، يقول:"إذا ظفرتُ بالعرب شدخت رؤوس عظمائهم بالدّبوس"[81].

ذكر بعض المؤرّخين مدى ثقة العرب في الأفشين في ذوْده عن الإسلام والدّولة الإسلاميّة خاصّة في أمر القضاء على بابك الخرّمي[82]، حَمَدَهُ له الخليفة فمدحه الشّاعرأبو تمّام[83]، فلمّا سخط المعتصم عليه[84] لما نُسب إليه من سوء السّيرة وقُبح السّريرة، وأنّه يخطُب درجة بابك ويريد التّحصّن بموضع يخلع فيه يده عن الطّاعة، وأظهر القاضي ابن أبي دؤادة عليه أنّه على غير الإسلام، قام أبو تمّام معتذرا للمعتصم من تقديمه واجتبائه[85].

العوامل المؤثّرة في انتشارهما:

- نشـاط التّرجمة وآثاره:

كانت التّرجمة في أوجّها زمن العبّاسيّين خاصّة زمن الخليفة المأمون، تشكّل مظهرا رئيسيّا من مظاهر تلك التّأثيرات الأجنبيّة على الحضارة الإسلاميّة، وعموم المجتمع العربي الإسلامي وذهنياته وعاداته، إذ تقوَّتْ بإفساح المجال للعناصرغيرالعربيّة، وعلى رأسهم الفرس لممارسة ليس فقط الدورالسّياسي؛ بل الفكري والاجتماعي، ومنه سمحت بتدعيم الزّندقة والشّعوبيّة، فتُرجمت زمن الخليفة أبي جعفر المنصور كتب الهند، منها كتاب اسمه – سيد هنتا– إلى العربيّة حول حركة النّجوم[86].

قرّب إليه المنجّمين وتُرجم في عهده كتاب كليلة ودمنة، الّذي تناول إصلاح الأخلاق وتهذيب النّفوس، جلبه بروزويه الحكيم الفارسي من الهند إلى ملك الفرس أنوشروان بن قباذ وترجمه له من الهندية إلى الفارسيّة، ثمّ ترجمه عبد الله بن المقفّع، كما ترجم كتب أرسطو[87] في المنطق[88].

فالأكيد أنّ هذه الترجمات خاصة لعلم الفلك، قد فتح الباب للخرافات، وأخلّ بمبدإ التّوحيد بإشراك النّجوم والكواكب في تحديد سيرورة الإنسان، لذلك اهتمّ الجاحظ فيه بذكرعيوب المترجمين لغير المواد العلميّة، بوضع مقارنة خفيفة لذلك "إنّ التّرجمان، لا يؤدّي أبدا ما قال الحكيم على خصائص معانيه وحقائق مذهبه ودقائق اختصاراته وخفيات حدوده ولا يقدر أن يوّفيها حقوقها، ويؤدّي الأمانة فيها"[89].

كما جعل من الواجب أن تتوفّر في المترجم شروط لمواصلة عمله في ترجمة الكتب الدّينيّة "ولا بدّ للتّرجمان، من أن يكون بيانه في نفس التّرجمة في وزن علمه في نفس المعرفة وينبغي أن يكون فيها سواء وغاية، ومتى وجدناه أيضا قد تكلّم بلسانين، علمنا أنّه قد أدخل الضّيْم عليهما؛ لأنّ كلّ واحدة من اللّغتين، تجذب الأخرى، وتأخذ منها، وتعترض عليها، وكيف يكون تمكّن اللّسان منهما مجتمعتين فيه، كتمكنه إذا انفرد بالواحدة، وهذا قولنا في كتب الهندسة والتّنجيم والحساب واللّحون"[90]، مؤكّدا أنّ العيوب كلّها تظهر في الكتب الدّينيّة المترجمة" فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين وأخبار عن الله عزّ وجلّ، بما يجوز عليه"[91].

وفي ذلك دعوة من الجاحظ إلى الإهتمام بحركة التّرجمة لا بتوقيفها، والتّأكيد على تكوين مترجمين مسلمين عرب حتّى لا يضيفوا إلى التّرجمات تأثّرهم بأديان أخرى، لأنّ العيب سيظهر خاصّة في الترجمات الّتي تؤكّد أخطاء المترجمين "ومتى لم يعرف ذلك المترجم، أخطأ في تأويل كلام الدّين، والخطأ في الدّين أضّر من الخطإ في الرّياضة والصّناعة والفلسفة والكيمياء وفي بعض المعيشة الّتي يعيش بها بنو آدم"[92].

وفي ذلك على ما يبدو توضيح من الجاحظ للدّور الصّعب الّذي يقوم به المتكلّمون وخاصّة أهل الاعتزال، في الرّدّ على المخالفين ومن ذلك فهو يتّفق مع ماقاله جميل صليبا، في أنّه لولا حاجة الفرق الإسلاميّة إلى دعم حججها بالبراهين المنطقيّة، لما أقبل النّاس على ترجمة هذه الكتب، وشجّع الخلفاء العقل العربي على الاقتباس من العقل اليوناني، وأعلوْا شأن العلماء وحثّوهم على تأليف الكتب، لتوكيد العقيدة الإسلاميّة، وأنّ المعتزلة والمتكلّمين عملوا على نشر الدّعوة الدّينيّة بطريق العقل، واستعانوا بالمنطق اليوناني في دحض آراء المخالفين[93].

وفي سياق آخريؤكّد الجاحظ على خطورة هذه الكتب المترجمة؛ لأنّها في الحقيقة كُتبت لأناس آخرين في الأصل هم غير مسلمين، من هنود وغيرهم، ثمّ إنّها تُرْجمت عدّة مرات من ألسنة مختلفة، وفي كلّ مرة كان مترجموها يُحَمّلوها إضافات وعليه، فترجمتها ونقلها إلى الرّعيّة المسلمة فيه من الخطورة المتعلّقة بزرع عادات غريبة عن الإسلام والمسلمين"وقد نُقِلت كتب الهند، وتُرجمت حِكم اليونان، وحُوِّلت آداب الفرس، فبعضها إزداد حسنا وبعضها ما انتقص شيئا، لم تذكره العجم في كتبهم، الّتي وُضعت لمعاشهم وخُطبهم وحِكمهم، وقد نُقلت هذه الكتب من أمّة إلى أمّة ومن قرن إلى قرن ومن لسان إلى لسان، حتّى انتهت إلينا، وكنّا آخر من ورثها، ونظر فيها"[94].

وفي عهد الخليفة هارون الرّشيد نشطت حركة التّرجمة والتّأليف وتصنيع الورق وانتشاره لرُخص ثمنه وسهولة حمْله وتيسّرت الكتابة عليه، كما أغدق على العلماء الهبات، فنشطت أُسَر في حركة التّرجمة، كأسرة البرامكة وعلى رأسها يحي بن خالد[95] الّذي عرَّب كليلة ودمنة من محيِّي الحكمة والكلام والنّظر، في أيامه كثُرالمتكلّمون وجادلواوناظروا ووضعوا الكتب[96].

أمّا في عهد الخليفة المأمون، الّذي عُدَّ من كبارالعلماء[97]، فاستخرج كتب الفلاسفة اليونان من جزيرة قبرص[98]، وبلغت الحركة العلميّة في عهده أوجها؛ لأنَّه كان محبّا للعلوم والفلسفة، فتُرجمت الكتب الفلسفيّة، رغم نفورالمسلمين منها، فشكَّل مجمعا علميّا للقيام بحركة التّرجمة[99]، لتبرزشخصيّة المترجم حُنين بن إسحاق[100].

وإجادةً منه لمادّته الّتي يترجم منها كان يسمح لنفسه بشرح وتبسيط العبارات العويصة الّتي يذكرها المؤلف، كما يقدّم لكلّ كتاب بترجمة لمقدّمة العالم الخبير، ويُعَلِّق عليه ببعض الشّروح والتّفسيرات، كما اشتهر بدقّته، لا يُقدِمُ على التّرجمة إلاّ بعد الحصول على ثلاث مخطوطات على الأقل من الكتاب المراد ترجمته، يقابل بينها ويُقَوِّم نصّها ويصحّحه، إذا ما دعت الحاجة إلى هذا[101].

يبدو أنّ هذا النّشاط المكثّف في حركة التّرجمة، لم يُؤدّ الهدف المرجو منه خاصّة على المستوى الدّيني، لذلك يرى الجاحظ أنّ التّرجمة، قد تكون صحيحة نسبيّا لكلّ المعارف ما عدا الجانب الدّيني "المترجم حتما ستكون له أخطاء في تأويل كلام الدّين والخطأ في الدّين، أضرّ من الخطإ في الرّياضة والصّناعة والفلسفة والكيمياء وفي بعض المعيشة، الّتي يعيش بها بنوآدم"[102]، وهذا سيُدخل حتما بِدعًا ولو بشكل غير مقصود، تجعل العامّة تميل إلى تصديقها باعتبارها فاقدة للتّشكيك "إنّ الفلسفة اليونانية ومَن أشبهها من عقلي في الإلهيات، كان حُقنة مسمومة لتراثنا الدّيني النظّيف"[103].

أ- **النّسك والزّهـــد:**

أشار الجاحظ في مؤلّفاته خاصّة الحيوان إلى ظاهرتي النّسك والزّهد[104]، وفي كتاب البيان والتّبيين ذكر قائمة للنّسّاك والزّهّاد، ممّا يؤكّد وجود هاتين الفئتين في المجتمع العبّاسي، وهما لا يخصّان العرب وحدهم؛ بل لكلّ التركيبات الموجودة في المجتمع "ونسك المتكلّم التّسرّع إلى إكفار أهل المعاصي، وأن يرمي النّاس بالجبر، أو بالتّعطيل، أو بالزّندقة، يريد أن يوهم أمورا، منها أنّ ذلك ليس إلاّ من تعظيمه للدّين والإغراق فيه"[105].

ومن هذا يظهر أنّ الجاحظ حكم على بعض المتنسّكين من مختلف الفئات على ما شاهده على أساس توضيح طريقته، ليصل أنّ نسكهم يعني تركهم السّلوكات الّتي كانوا على علم بسوئها، أو تعدّ على استقرار المجتمع الأخلاقي، لكنّه في الوقت نفسه يذهب إلى أنّ ذلك لم يتعد فكرة التّظاهر أمام النّاس، والفعل المنكر بقي ساري التّطبيق عندهم، ممّا يؤكّد به أنّ النّسّاك قد مثلوا السّلبيّة في تغيير أحوال المجتمع الأخلاقية من التّردي إلى الأردأ، ما يجعل الفرد الواحد من أي عقيدة مسؤولا عن تغيير نفسه بنفسه، بما يراه أصلح لها.

فالجاحظ يشير بطريقة ضمنيّة إلى الصعوبة الكامنة في إفهام العامّة بالطريقة العقليّة، لما هو قد إختلط عليها فهما، فالتّنسّك بالنّسبة لها حلال ومطلوب شرعا، لكنّها لا تعي أنّ كلّ التركيبات الاجتماعيّة من مسلمين وغيرهم لها هذا السّلوك، فيوّضح بدقّة أنّ نُسك الخراساني أن يحجّ، ونُسك البَنوي أن يدع الدّيوان، ونسك المغني أن يكثر التّسبيح، وهو يشرب النّبيذ والصّلاة على النّبي صلّى الله عليه وسلّم والصلاة في جماعة، ونسك الرافضي إظهار ترك النّبيذ، ونسك السّوادي ترك شرب المطبوخ فقط، ونسك اليهودي إقامة السّبت[106].

وربّما أراد الجاحظ التّلميح إلى أنّ التّنسك، كان أحد وجوه الزّندقة، على اعتبار مفهومها إظهار شيئ وإخفاء آخر، ولم يستثن الجاحظ فئة المتكلّمين الّتي يبدو أنّ بعضا منها أيضا قد لجأ إلى التّنسّك لإخفاء معاصيه، فنسك المرتاب من المتكلّمين أن يتحلّى برمي النّاس بالرّيْبة ويتزيّن بإضافة، ما يجد في نفسه إلى خصمه، خوفا من أن يكون فُطن له، فهو يستر ذلك الدّاء برمي النّاس به، ونسك الخارجي الّذي يتحلّى به ويتزيّا بجماله، إظهار استعظام المعاصي، ثمّ لا يلتفت إلى مجاوزة المقدار وإلى ظلم العباد، ولا يقف على أنّ الله تعالى، لا يحبّ، أن يظلم أظلم الظّالمين، وأنّ في الحقّ، ما وسع الجميع[107].

ومن العادات المقيتة الّتي تمخّض عنها هذا التّنسك لدى البعض، ظهور ظواهر منها التّكبّر، فنسك الخراساني أن يحجّ وأن ينام على قفاه ويعقد الرّياسة، ويتهيّأ للشّهادة ويبسط لسانه بالحسبة، وقد قالوا: إذا نسك الشّريف، تواضع وإذا نسك الوضيع، تكبّر، وتفسيره قريب واضح[108]، والثّانية هي التّسوّل، أي نبذ العمل، ومنه نبذ الكسب المشروع، فالصّوفي المظهر للنّسك من المسلمين، إذا

كان فسلا ببعض العمل، تطرّف وأظهر تحريم المكاسب، وعاد سائلا وجعل مسألته وسيلة إلى تعظيم النّاس له، وإذا كان النّصراني فسلا نذلا مبغضا للعمل، ترهّب ولبس الصّوف؛ لأنّه واثق، أنّه متى لبس وتزيّا بذلك الزّيّ، وتحلّى بذلك اللّباس وأظهر تلك السّماء، وأنّه قد وجب على أهل اليسر والثّروة منهم، أن يعولوه ويكْفّوه[109] .

ما يؤكّد به الجاحظ أنّ ظاهرة التّنسّك، قد تطوّرت هي الأخرى بحسب التّركيبة الاجتماعيّة وفئاتها، وآثار ذلك السّلبيّة على المجتمع، والملاحظ أنّ الجاحظ أولى أهمية بالغة للحديث عن التّنسّك وليس الزّهد، ربّما لأنّه اعتبر أنّ المعتزلة من الزّهّاد أصلا، وهو ماذهب إليه بعض الدّارسين، كلمة الزّهّاد في العصر العبّاسي تطلق على الورعين الصّادقين الزّاهدين في الدّنيا والرّاغبين في الآخرة وبأسماء مختلفة، قرّاء معتزلة، عبّاد، قصّاص، نسّاك، مصلّين[110].

وعليه فإنّ الزّندقة والشّعوبيّة وغيرهما أفكار لها جذور في المجتمع الفارسي، ولها إسهامات في هدم البناء الوحدوي الإسلامي.

---

(1) الزّندقة، في أيّام ماني ظهر اسم الزّنادقة، الّذين أضيفت إليهم الزّندقة، وذلك أنّ الفرس كان لهم كتاب يسمونه "السّنا"، وكان له شرح، سمّي الزّند، فكان من أتاهم بزيادة على ما في كتابهم، يسمّونه زنديّا، فلمّا جاءت العرب، أخذت هذه المهنة من الفرس، فعرّبته، وقالت: زنديق، فالثنويّة هم الزّنادقة، فألحق هذا الاسم بسائر من اعتقد القِدَم، وأبى حدوث العالم، وأنكر البعث. أنظر، النويري:نهاية الأرب، م8، ج16، ص169؛ زنديق، هو معرّب، زن دين؛ أي دين المرأة، وزندف، أو تزّندق الرّجل؛ أي صار زنديقا، أو تخلّق بأخلاق الزّنديق، وقولهم: من تزندق، أي لأنّه توّرط في الأقيسة، والنّتائج، بما يفسد العقائد الدّينيّة الّتي مدارها على التّسليم. أنظر، بطرس البستاني: كتاب محيط المحيط، قاموس مطول للّغة العربيّة، مطبعة لبنان، ساحة رياض الصلح، طبع في مطابع تيبو برس، لبنان ، طبعة جديدة1987م، مادّة زنو، ص381 .

(2) الجاحظ: الرّسائل السّياسيّة، ص110 .

(3) يقول الجاحظ إكبارا منه للدّين الإسلامي والقرآن تحديدا "وأكثر من كتبهم نفعا، وأشرف منها نظرا، وأحسن موقعا كتب الله تعالى الّتي فيها الهدى والرّحمة، والإخبار عن كلّ حكمة، وتعريف عن كلّ سيّئة وحسنة. أنظر، الجاحظ: الحيوان، ج1، ص 55 .

(4) الجاحظ: الرّسائل الكلاميّة، ص262 .

(5) يتّفق الجاحظ في رأيه هذا مع ماذكره المسعودي، أنّ الفئة الزّندقيّة الأكثر نشاطا في عهد الخليفة المأمون، هي الّتي كانت على دين المانويّة؛ إذ ذكر ثمامة بن أشرس، قال: بلغ المأمون خبر عشرة، ممّن يذهب إلى قول ماني، ويقول بالنّور والظّلمة من أهل البصرة، فأمر بحملهم إليه، بعد أن سمّوا واحدا واحدا، فلمّا وصلوها، وأدخلوا على المأمون، جعل يدعو بأسمائهم رجلا رجلا، فسأله عن مذهبه، فيخبره بالإسلام، فيمتحنه، ويدعوه إلى البراءة من ماني، ويظهر له صورته، ويأمره أن يتفل عليها والبراءة منها، وغير ذلك، فيأبَوْن، فمرّهم بالسّيف. أنظر، المسعودي: مروج الذّهب، ج3، ص ص305 ،306 .

(6) النِحل، جمع نِحلة بكسرالنون، تطلق على طائفة من النّاس، يجمعهم مذهب واحد، فتكون مرادفة للجماعة، أو الفرقة، أو تطلق على طائفة من النّاس، تجمعهم عقيدة باطلة، أوعقيدة مخالفة لعقيدة الجماعة، فتكون حينئذ مرادفة للبدعة. أنظر، جميل صليبا:المعجم الفلسفي، ص ص460 ،461 .

(7) كذبت النّصارى على الله في أمر عيسى، بقولهم: عيسى روح الله من ذات الله، وكلمته من ذات الله، كما يقال: أنّ هذه الخرقة من هذا الثوب، ويردّ عليهم الإمّام أحمد بن حنبل: أنّ عيسى بالكلمة كان، وليس عيسى هو الكلمة. أنظر، إمّام أهل السّنّة والجماعة أحمد بن حنبل ت241هـ: الرّدّ على الجهميّة والزّنادقة فيما شكّوا فيه من متشابه القرآن وتأوّلوه على غير تأويله، تحقيق صبري بن سلامة شاهين، دار الثّبات للنّشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى، 1424هـ/2003م، ص126 .

(8) الجاحظ: الرّسائل الكلاميّة، ص262 .

(9) ولعلّهم كانوا طوائفا على ماذكره ابن كثير، حين تحدّث عن معاملة الخلافة العبّاسية لهم "وشرع الهادي في طلب الزّنادقة من الآفاق، فقتل منهم طائفة كثيرة". أنظر، ابن كثير: مصدر سابق، ص535 .

(10) الجاحظ: مصدر سابق، ص262 ؛ الجاحظ لم يذكر أنّ الزّندقة كانت أيضا في بعض بني هاشم، ممّن ذكرهم الطّبري كما ذكر في أحداث سنة169هـ/786م، فيها اشتدّ طلب الخليفة موسى الهادي للزّنادقة، فقتل من بني هاشم يعقوب بن الفضل، وذكر عن على بن محمّد الهاشمي، قال: كان المهدي أتى بابن لداود بن عليّ زنديقا، وأتى بيعقوب بن الفضل بن عبد الرّحمن بن عبّاس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطّلب، وكان ليعقوب ولد من صلبه عبد الرّحمن والفضل، وأروى وفاطمة، فأمّا فاطمة، فوُجدت حبلى منه، وأقرّت بذلك، ...فأدخلت فاطمة، وامرأة يعقوب بن الفضل، وليست بهاشميّة، يقال لها: خديجة على الهادي أو على المهدي من قبل، فأقرّتا بالزّندقة، وأقرّت فاطمة بأنّها حامل من أبيها. أنظر، الطّبري:مصدر سابق ، ص1688.

(11) أُثر عن الخليفة أبي جعفر المنصور قوله: الملوك تحتمل كلّ شيئ من أصحابها، إلاّ ثلاثا، إفشاء السّرّ، والتّعرّض للحرم، والقدح في الملك. أنظر، الطّبري: نفس المصدر، ص1648.

(12) الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص269 .

(13) النُسك، هو العبادة والطّاعة، وكلّ ما تُقُرِّب به إلى الله تعالى؛ أي، تعبّد. أنظر، ابن منظور: لسان العرب، ج14، ص247 .

(14) الجاحظ: الحيوان، ج1، ص97 .

(15) يستعمل كل من الطّبري والجهشياري والذّهبي وابن كثير عبارة" جدّ المهدي في طلب الزّنادقة، والبحث عنهم في الآفاق"، وهو أراه تأكيدا لما ذكره الجاحظ من صفة السّياحة، الّتي هم عليها. أنظر، أحداث سنة166هـ/783م، وفيها جدّ المهدي في طلب الزّنادقة، والبحث عنهم في الآفاق، وقتلهم . أنظر، الطّبري: مصدر سابق، ص1678؛ ابن كثير: المصدر السّابق، ص527 ؛ الذّهبي(الإمام شمس الدّين أبي عبد الله محمّد بن أحمد بن عثمان673هـ/748هـ):دول الإسلام، حققّه وعلّق عليه: حسن إسماعيل مروة، قرأه وقدّم له: محمود الأرناؤوط، دار صادر، بيروت، الطّبعة الأولى1999م، ج1، ص155؛ الجهشياري: مصدر سابق، ج2، ص118 .

(16) تجوالهم وسياحتهم تلك جعلتهم يرتادون كلّ الأماكن، ففي سنة168هـ/785م قتل المهدي الزّنادقة ببغداد. أنظر، الطّبري: مصدر سابق، ص1679.

(17) السّياحة، من ساح الرّجل، أو يسوح؛ أي ذهب في الأرض، أوللعبادة، وهي عاميّة، محرّفة عن ساح، يسيح، فهو سائح. أنظر، بطرس البستاني: محيط المحيط، مادّة سوا، ص445 .

(18) الجاحظ:الحيوان، ج4، ص157 .

(19) نفسه. نقلا عن ما حدّثه به أبو شعيب القلاّل الصّفري، كما ذكر الجاحظ.

(20) يذكرالأصفهاني ما يؤكد هذا، إذ أورد أنّ الخليفة هارون الرّشيد، أتى ببنت مطيع بن إياس في الزّنادقة، فقرأت كتابهم، واعترفت به، وقالت:هذا دين علّمنيه أبي، وتبت منه، فقبل توبتها، وردّها إلى أهلها. أنظر، الأصفهاني: الأغاني، ج13، ص 296 .

(21) الجاحظ:مصدر سابق، ص157 .

(22) نفسه.

(23) الجاحظ: الحيوان، ج1، ص120؛ يعقد الجاحظ مقارنة عينيّة، لما رآه في التّماثل بين رهبان الزّنادقة، ورهبان النّصرانيّة "، وإذا كان النّصراني فسلا نذلا، مبغضا للعمل، ترهّب، ولبس الصّوف، لأنّه واثق، أنّه متّى لبس، وتزيّا بذلك الزّي، وتحلّى بذلك اللباس، وأظهر تلك السماء، وأنّه قد وجب على أهل اليُسر والثروة منهم، أن يعولوه، ويكفوه". أنظر، الجاحظ: نفس المصدر، ص ص120، 121.

(24) الجاحظ: نفس المصدر، ج4، ص157.

(25) الجاحظ: نفس المصدر، ج1، ص41.

(26) يشير الذّهبي إلى تعامل الخليفة المهدي مع كتب الزّنادقة، الّتي يظهر أنّها لم تكن كلّها؛ بل بعضها، ففي163هـ/780م قتل المهدي جماعة من الزّنادقة، وصرف همّته إلى تتبّعهم، وأتى بكتبهم، وهو بحلب، فأحرقها. أنظر، الذّهبي: دول الاسلام، ج1، ص152.

(27) ذكر الجاحظ ما قاله لإبراهيم بن السّندي، قلت لإبراهيم: أنّ إنفاق الزّنادقة على تحصيل الكتب، كإنفاق النّصارى على البيع، ولو كانت كتب الزّندقة كتب حِكم وكتب فلسفة وكتب مقاييس وسنن وتبين وتبيّين، أو لو كانت كتبهم كتبا، تُعَرّف النّاس أبواب الصّناعات، أو سبل التكسّب والتّجارات، أو كتب ارتفاقات ورياضات، أو بعض ما يتعاطاه النّاس من الفِطن والآداب، وإن كان ذلك لا يقرب من غنى، ولا يُبعد من مأثم، لكانوا ممّن قد يجوز، أن يُظنّ بهم تعظيم البيان والرّغبة في التّبيّين، ولكنّهم ذهبوا فيها مذهب الدّيانة على طريق تعظيم الملّة. أنظر، الجاحظ:مصدر سابق، ص41 .

(28) الجاحظ: الرّسائل السّياسيّة، ص641 .

(29) الجاحظ: الحيوان، ج1، ص41. الجاحظ يلمح إلى وجود تنظيم، يشبه الدّولة لدى الزّنادقة، إذ يخصّصون أموالا لكتب الزّندقة الّتي قد تكون عندهم بمثابة القرآن عندنا.

(30) نفسه.

(31) الأفشين، من أولاد ملوك الأكاسرة، اسمه حيدر بن كاوس، وكان بطلا شجاعا مطاعا، ليس في الأمراء أكبر منه. أنظر، ابن عماد الحنبلي: شذرات، ج2، ص58 .

(32) ابن خلدون: العبر، ج3، ص269 .

(33) نفسه.

(34) لابن ديصان كتب منها كتاب النّور والظّلمة، كتاب روحانية الحقّ، كتاب المتحرك والجماد، أمّا المرقيونيّة، فهم قبل الدّيصانيّة، وهم طائفة من النّصارى أقرب من المنّانية والدّيصانية، زعمت أنّ الأصلين هما النّور والظّلمة ... وللمرقيونيّة كتاب يختصّون به يكتبون به ديانتهم، ولمرقيون كتاب إنجيل، ولأصحابه عدّة كتب، وهم يتسترون بالنّصرانيّة، وهم بخراسان كثير، وأمرهم ظاهر كظهور المنّانيّة. أنظر، ابن النّديم: مصدر سابق، ص402 .

(35) الجاحظ: الحيوان، ج1، ص42 .

(36) الجاحظ: الرّسائل الكلاميّة، ص262 .

(37) الأب الدّكتور جرجس داود داود: الزّندقة والزّنادقة في الأدب العربي من الجاهليّة وحتّى القرن الثّالث الهجري، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى 1425هـ/2004م، ص18 .

(38) ذكر الإمام أحمد بن حنبل كثيرا من الشكوك الّتي تناقلها الزّنادقة في مضمون بعض الآيات القرآنيّة، كقولهم: فما بال جلودهم الّتي عصت، قد احترقت وأبدلهم جلودا أخرى؟، فلا نرى إلاّ أنّ الله يعذّب جلودا، لم تُذنب، حين يقول"إِنَّ الذِينَ كَفَرُوا بِأَيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العَذَابَ إِنَّ الله كَانَ عَزِيزًا حَكِيمَا". سورة النساء، الآية:56 ، فشكّوا في القرآن، وقالوا:أنّه متناقض، بينما يذهب حسب الإمّام أحمد، القصد تحديدها فقط، وفي قول الله "وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَة إِلَى رَبّهَا نَاظِرَة"سورة القيّامة، الآيتان:22 ،23 ، وقال في آية"لاَتُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَيَدْرِكُ الأَبْصَارَ" سورة الأنعام، الآية:103، فقالوا: كيف يكون هذا يُخبر أنّهم ينظرون إلى ربّهم؟، فشكّوا في القرآن وقالوا: أنّه متناقض، أي ينقض بعضه بعضا، لاتدركه الأبصار في الدّنيا، أمّا في الآخرة، فإنّهم يرونه، فهذا تفسير ماشكّت فيه الزّنادقة.أنظر، إمام أهل السّنّة والجماعة أحمد بن حنبل ت241هـ: الرّدّ على الجهمية والزّنادقة فيما شكّوا فيه من متشابه القرآن وتأوّلوه على غير تأويله، ص30ومابعدها.

(39) الجاحظ: مصدر سابق، ص265 .

(40) ينبغي لمن أراد أن يدخل في دين ماني، أن يمتحن نفسه، فإن رآها تقدر على قمع الشّهوة والحرص وترْك أكل اللحمان وشرب الخمر والتّناكح وترْك أذية الماء والنّار والشّجر والنّبات، فليدخل في الدّين، وإنْ لم يقدر على ذلك كلّه، فلا يدخل في الدّين، وإن كان يحبّ الدّين، ولم يقدر على قمع الشّهوة والحرص، فليغتنم حفظ الدّين والصّديقين، وليكن له بإزاء أفعاله القبيحة، أو قات، يتجرّد فيها للعمل والبرّ والتّهجّد والمسألة والتّضرع . أنظر، ابن النّديم: مصدر سابق، ص396 .

(41) عبد العزيز الدّوري: العصر العبّاسي الأوّل(دراسة في التّاريخ السيّاسي والإداري والمالي)، دار الطّليعة، لبنان، الطّبعة الثّالثة، فيفري1997م، ص88 ؛ ذكر ابن النّديم أنّ ماني فرض الصّلوات أربع، أو سبع، وهو أن يقوم الرّجل، فيمسح بالماء الجاري، أو غيره، ويستقبل النّير الأعظم قائما، وتتخلّل الرّكعات سجدات ...أمّا الصّلوات الأولى، فعند الزّوال والثّانية بين الزّوال وغروب الشّمس، ثمّ صلاة المغرب بعد غروب الشّمس، ثمّ صلاة العتمة بعد المغرب بثلاث ساعات، فأمّا الصّوم فإذا نزلت الشّمس القوس، وصار القمر كلّه نورا، يُصام يومين، لا يُفطر بينهما، فإذا أهلّ الهلال يُصام يومين، لا يُفطر بينهما، ثمّ من بعد ذلك يُصام إذا صار نورا يومين في الجديّ، ثمّ إذا أهلّ الهلال، ونزلت الشّمس الدلو، ومضى من الشّهر ثمانيّة أيام، يُصام حينئذ ثلاثين يوما، يُفطر كل يوم عند غروب الشّمس، والأحد يعظّمه عامّة المنّانيّة، والإثنين يعظّمه خواصّهم. أنظر، ابن النّديم: مصدر سابق، ص397 .

(42) الجاحظ: الحيوان، ج3، ص486 .

(43) الجاحظ:نفس المصدر، ج6، ص ص480،479 .

(44) زهير مُحَمَّد حمد الحراحشة:الزّندقة في المشرق الإسلامي(نشوؤها وتطورها حتّى القرن الرّابع الهجري/العاشر الميلادي دراسة تاريخيّة)، المشرف: الأستاذ الدّكتور عمر فاروق فوزي، جامعة آل البيّت، ماجستير، ص73.

(45) اجاحظ: الرّسائل الكلاميّة، ص265 .

(46) بشار بن برد، أصله من طُخارستان، من سبي المهلب بن أبي صفرة، وهي ناحية كبيرة، مشتملة على بلدان على نهر جيحون، ممّا وراء النّهر، كنيته أبو معاذ، لقبه المرعث، وهو الّذي في أذنه رُعاث، وهو جمع رعثة وهي القرطة، لُقب بها لأنّها كانت في صغره معلّقة في أذنه، عقيلي بالولاء، نسبة إلى عقيل بن كعب، وهي قبيلة، وقيل: أنّه ولد على رقّ، أعتقته إمراة عقيلية، وولد أكمه، جاحظ الحدقتّين، قد تغشّاهما لحم أحمر، وكان ضخما عظيم الحلق والوجه، مجدّرا وهو في أول مرتبة المحدثين من الشّعراء المجيدين، نشأ بالبصرة، ثمّ قدم بغداد، ومدح الخليفة المهدي العبّاسي. أنظر، البغدادي: خزانة الأدب، م3، ص230 .

(47) رُمي بالزّندقة، روي أنّه كان يفضل النّار على الأرض، ويصوّب رأي إبليس في امتناعه من السجود لآدم عليه السّلام، ونُسب إليه قوله: الأرض مظلمة والنّار مشرقة * والنّار معبودة، مذ كانت النّار، فأمر المهدي الخليفة بضربه، فضرب سبعين سوطا، فمات من ذلك، وذلك في سنة168هـ/785م، وقد زاد على تسعين سنة من عمره، ومن هجائه للخليفة المهدي، قوله: خليفة يزني بعمّاته * يلعب بالدّبوق والصولجان، وبينه وبين حمّاد عجرد أهاج فاحشة، وقتل حمّاد على الزّندقة أيضا في سنة166هـ/7883م ودفن بشار على حمّاد عجرد في قبر واحد. أنظر، البغدادي: نفس المصدر، م3، ص231 .

(48) بشار بن برد كان يمدح المهدي بن المنصور أمير المؤمنين، ورميّ بالزّندقة، فأمر بضربه، فضّرب سبعين سوطا، فمات من ذلك في البطيحة بالقرب من البصرة في168هـ/785م، وقد زاد على التسعين في عمره، وروي أنّه فتشت كتبه، فلم يصب فيها شيئ ممّا كان يرمى به، وأصيب له كتاب فيه، أنّي أردت هجاء آل سليمان بن علي بن عبد الله بن العبّاس –ﷺ–، فذكرت قرابتهم من رسول الله، فأمسكت عليهم. أنظر، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص273؛ وبعد قتل الخليفة المهدي لبشار بن برد، ووجد الكتاب، فلمّا قرأه، بكى وندم على قتله، وقال: لا جزى الله يعقوب خيرا، فإنّه لما هجاه لفّق عندي شهودا على أنّه زنديق، فقتلته، ثمّ ندمت حيث لا ينفع الندم. أنظر، الدواداري(أبوبكر بن عبدالله بن أيبك):كنز الدرر وجامع الغرَر(الدرّة السَنية في أخبار الدّولة العبّاسيّة)، تحقيق: دورتياكرافولسكي، بيروت، لبنان، 1413هـ/1992م، ج5، ص101 .

(49) الجاحظ لم ينف، ولم يؤكد صفة الزّندقة على ابن المقفّع، في حين إنفرد ابن كثير بذكر قول الخليفة المهدي: ما وجدت كتاب زندقة، إلاّ وأصله من ابن المقفّع. أنظر، ابن كثير: البداية والنّهاية، ج5، ص473؛ وأشار المؤرخ أحمد مختار العبادي إلى مايوافق الجاحظ، كذلك ألقيت الزّندقة هذه التّهمة في بعض الأحيان على الأشخاص غير المرغوب فيهم سياسيّا، كوسيلة للانتقام، أو التّخلص منهم، وكانت النتيجة أن قتل كثير من النّاس ظلما تحت ستار الزّندقة، فقتل بالزّندقة ابن المقفّع لأسباب سياسية في الحقيقة، وتزوير بعض الوثائق الرّسميّة الخاصّة بصياغة الأمان الّذي أعطاه المنصور لعمّه عبد الله بن علي؛ إذ كان هو الّذي تولّى صياغته. أنظر، أحمد مختار العبادي: في التّاريخ العبّاسي والأندلسي، دار النّهضة العربيّة للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، 1972م، ص70.

(50) الجاحظ: الرّسائل السّياسيّة، ص110.

(51) الجاحظ:البيان والتّبيّين، ج3، ص12.

(52) الجاحظ: نفس المصدر، ص36 .

(53) الجاحظ: الرّسائل الكلاميّة، ص247 .

(54) الجاحظ: نفس المصدر، ص247 .

(55) نفسه.

(56) يتّفق هذا مع ماذهبت إليه أمينة بيطار من أنّ الشّعوبيّة تيّار فكري اجتماعي وسياسي، يمثّل مواقف الشّعوب الّتي ضمّتها الدّولة الإسلاميّة من بعضها إلى بعض. أنظر، د.أمينة بيطار: تاريخ العصر العبّاسي، جامعة دمشق، الطّبعة الرّابعة، ص154.

(57) الجاحظ: الرّسائل الكلاميّة، ص247 .

(58) يتّفق رأي الآلوسي مع رأي الجاحظ في أنّ الشّعوبيّة فرقة من النّاس، ذهبوا إلى تصغير شأن العرب، وأنّهم لا يرون لهم فضلا على غيرهم، لكنّه يختلف معه في مفهوم أهل التّسويّة، وقالت الشّعوبيّة: أنّا ذهبنا إلى العدل والتّسوية، وأنّ النّاس كلّهم من طينة واحدة وسلالة رجل واحد. أنظر، البغدادي(السيّد محمود شكري الألوسي) : بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، عني بشرحه وتصحيحه وضبطه: محمّد بهجة الأثري، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ص159-165 ؛ والشّعوبيّ هو الّذي يُصَغر شأن العرب، ولا يرى لهم فضلا على غيرهم، وهؤلاء يرون أنّ العرب كافة لا ميزة لهم، إذا قورنوا بالرذومان والهنود، أو الفرس، وأنّه ليس عندهم ما يفخرون به، والعرب في زعمهم أضعف الأمم شأنا، وإذا فخروا بالإسلام، فليس الإسلام دين العرب وحدهم؛ بل هو دين النّاس كافة، وكان الشّعوبيّون أخلاطا من الفرس والنّبط والقبط وبعض هؤلاء الشّعوبيّين، ألّفوا في مناقب العجم. أنظر، حسن أحمد محمود، أحمد إبراهيم الشّريف: العالم الإسلامي في العصر العبّاسي، دار الفكر العربي للطّبع والنّشر، القاهرة، الكويت، الطّبعة الثّانية، 1973م، ص89 .

(59) عبده بدوي: السّود والحضارة العربيّة، دار قباء للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، 2001م، ص ص220 ، 221 .

(60) هناك قصورا في فهم التّسويّة الّتي دعت إليها الشّعوبيّة عكس ما قاله الجاحظ، فالمفكر عمر فرّوخ يجعلها مرحلة سابقة للتّصغير من شأن العرب؛ إذ برزت الشّعوبيّة، الّتي بدأت بالقول بالتّسويّة بين العرب وغيرهم، ممّن جمع الإسلام بينهم، ثمّ استولى القول على أنّ غير العرب كانوا قبل الإسلام أفضل من العرب قبله، ثمّ عنّفت الشّعوبيّة، فحاول غير العرب أن يزيلوا الملك العربي بالثّورة والحرب، ليعيدوا الملك إلى أنفسهم، كما كان لهم من قبل. أنظر، عمر فروخ: تاريخ الفكر العّربي إلى أيّام ابن خلدون، دار العلم للملايّين، بيروت، لبنان، 1392هـ/1972م، ص242 .

(61) هناك قصورا في فهمها عند بعض المؤرّخين، في العصر العبّاسي الأوّل ظهرت نزعتان شهيرتان، نزعة تقول: بأنّ العرب ليسوا أفضل من غيرهم من الأمّم، والنّاس كلّهم من طينة واحدة وسلالة رجل واحد، والتّفاضل بين الأفراد وليس بين الأمّم، ويسّمون بأهل التّسويّة، وهم أكثر المتحضّرين من العرب والعجم، وأطلق على أصحاب هذه النّزعة الشّعوبيّة...ونزعة أخرى تميل إلى الحطّ من شأن العرب، وتفضيل غيرهم من الأمم عليهم، وأطلق على هؤلاء أيضا اسم الشّعوبيّة. أنظر، حسن أحمد محمود، د أحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العبّاسي، ص88 .

(62) كان للرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– مِخصرة، تسمّى العرجون، وهي كالقضيب يستعمله العرب والأشراف في أيديهم للتّشاغل به، وحكّ ما بعُدَت عنه اليد من الظهر. أنظر، القضاعي:تاريخ القضاعي، ص ص251 ،252 .

(63) الجاحظ: البيان والتّبيّين، ج3، ص3 .

(64) أورد الجاحظ الكثير من الإشارات إلى محاولة السّودان تأكيد فضلهم، ومزاياهم بكتاب فخر السّودان على البيضان...ولكنّ هذه الإشارات إنّما تدّل على محاولة، لإثبات كيان اجتماعي لجماعات تحسّ بحاجتها إلى ذلك في المجتمع العربي الإسلامي، ومن المتّعذر وضعها في النّطاق النّهجي العنيف للشّعوبيّة. أنظر، عبده بدوي: السّود، ص224 .

(65) الجاحظ: البيان والتّبيّين، ج3، ص12 .

(66) الجاحظ: نفس المصدر، ص6 .

(67) القسيّ، هي قضيب، يذكر ابن قيّم الجوزية أصنافها؛ إذ هناك نوعان: قوس يد وقوس رجل، فقوس اليد: هي ثلاثة أصناف القوس العربية: نوعان، النّوع الأول، تسم ذى الحجازية، يصنعونها من عود النّبع، أو الشوحط، وهي قضيب، أو قضيبان يسمونها شريحية، والتي من فرع واحد أجود، وهي قسي أهل البدو ومنهم، والنوع الثاني، أي الواسطية، فتصنع من خشب، والعقب، والفرا، والقرن، وسميت كذلك، لتوسطها من القسي الحجازية، والفارسية. أنظر، ابن قيّم الجوزية: الفروسيّة هذّبه وعلّق عليه: سمير حسين حلبي، دار الصحابة للتّراث بطنطا للنّشر والتّحقيق والتّوزيع، طنطا، مصر، الطّبعة الأولى 1411هـ/1991م، ص74 .

(68) الجاحظ: البيان والتبيّين، ج2، ص173 .

(69) الجاحظ: نفس المصدر، ج3، ص3 .

(70) الجاحظ:نفس المصدر، ج1، ص158 .

(71) الجاحظ:نفس المصدر،ج3، ص6 .

(72) وديعة طه النّجم: الجاحظ والحاضرة العباسيّة، ص19 .

(73) استفحل أمر الشّعوبيّة، فصاروا بعد التّستّر، يقولون جهرا، أنّهم ليسوا من سلالة ساداتهم الأحلاف؛ بل من عنصر آخر أعلى شرفا، وأرقى أدبا، وأشهر ذكرا، وتخطوا هم أيضا حدود الاعتدال، فصاروا يدّعون أنّ العرب أضعف خلق الله عقلا وأحطّهم مداركا، وأقلّهم تعويلا على أنفسهم. أنظر، رشيد يوسف عطا الله(ساروفيم فيكتور): تاريخ الآداب العربيّة، تحقيق: علي نجيب عطوي، مؤسّسة: عزّ الدّين للطّباعة والنّشر، الطّبعة الأولى، م1، ص222 .

(74) الجاحظ: البيان، ج3، ص 36 .

(75) الجاحظ: الحيوان،ج1، ص51 .

(76) رشيد عطا الله:تاريخ الآداب العربيّة، م1، ص223 .

(77) نقولا حداد: علم الاجتماع(حياة الهيئة الاجتماعيّة وتطوّرها)، ص129.

(78) علاء الدّين رمضان السيّد:صورة المجتمع العبّاسي في كتاب البخلاء، مقال، جذور، النّادي الأدبي الثّقافي، جدّة، السّعوديّة، مج7، الجزء14، ص364 .

(79) الجاحظ: البيان والتّبيّين، ج3، ص12؛ تناقض فيما ذكره الجاحظ، فباستدلاله هذا يجعل العرب منقسمين في درجة عروبيّتهم من ناحية لأخرى، وربّما يكون ذلك لتّمييز قبيلته عن القبائل العربيّة الأخرى، أو أنّ العرب في المجتمع العبّاسي الأول، انقسموا إلى نوعين، الأعراب من البدو، وهم أصحاب النّجعة، وارتياد الكلأ، أمّا العرب، فهم الّذين استوطنوا المدن والرّيف والقرى، وهم أرّق طبعا، وألْيَن جانبا وأكثر تحوّلا وتمذهبا من الأعراب، فكان الأعراب والخُلص من العرب الأقحاح هم المتّفقون على خصائصهم . أنظر، علاء الدّين رمضان السيّد:صورة المجتمع العبّاسي في كتاب البخلاء، مقال، جذور، ص ص373 ، 374.

(80) الجاحظ:مصدر سابق، ص12.

(81) الجاحظ:نفس المصدر، ص 23.

(82) بابك الخرّمي، اهتمّ المؤرّخون بالحديث عن أخبار أمّه أكثر في التّرجمة لحياته؛ إذ قالوا: شَغُف بها رجل من النّبط في السّواد يقال له: عبد الله بن منبه، فحملت منه وقُتل الرّجل، وهي حامل ببابك، فوضعته، وتكسّبت له، حتّى بلغ، فصار أجيرا لأهل قريته بطعامه، وكسوته، وكان في تلك الجبل قوم من الخرّميّة ، فاستأجره جاوندان من أمّه، وكان ظهور بابك في سنة201هـ/817م بناحية أذربيجان، وهزم من جيوش الخليفة العباسي الكثير، إلى أن قضت عليه الخلافة العباسيّة. أنظر، ابن الجوزي(أبو الفرج، عبد الرّحمن بن علي بن محمّد ت597هـ): المنتظم في تاريخ الملوك والأمّم، دراسة وتحقيق: محمّد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، راجعه وصحّحه: نعيم زوزور، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، 1412هـ/1992م، ج11، ص ص52، 53.

(83) الشّاعر أبو تمّام، هو أبوتمّام بن أوس الطّائي، ولد من سلالة عربيّة عام190هـ/806م بقرية جاسم من أعمال دمشق، وتربّى فقيرا في مصر؛ إذ كان يسقي الماء بالجرّة في جامع عمرو، تعلّم العربيّة، وحفظ الشّعر، ونبغ فيه، ثمّ خرج إلى مقرّ الخلافة العباسيّة، ومدح الخليفة المعتصم بالله، ووزيره ابن الزّيّات، وأقام بالموصل إلى وفاته عام231هـ/864م، ويعدّ من شعراء الحكمة في مصاف المتنبي. أنظر، أحمد الهاشمي:جواهر الأدب في أدبيات و إنشاء لغة العرب، ص ص173 ،174.

(84) في سنة 226هـ/841م غضب المعتصم على الأفشين، وسجنه، وضيّق عليه، ومنع من أهل الطّعام، حتّى مات، أو خنق، ثمّ صلب إلى جانب بابك، وأُتِي بأصنام من داره، أنّهم بعبادتها، فأُحرقت. أنظر، ابن عماد الحنبلي: شذرات، ج2، ص58 .

(85) الأصفهاني:زهر الآداب وثمر الألباب، ج1، ص ص342 ،343 .

(86) زيغريد هونكة:شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فؤاد حنين علي، مكتبة رحاب، الجزائر، طبعة1406 هـ /1986م، ص284 .

(87) أسطو، أرسطوطالس384ق.م/332ق.م، فيلسوف يوناني، له مؤلّفات عديدة في المنطق والطّبيعيّات والإلهيّات والأخلاق، أهمّها كتاب ما بعد الطّبيعة. أنظر، الشّهرستاني:الملل والنّحل، ج2، ص192 .

(88) يحي وهيب الجبوري:الكتاب، ص144 .

(89) الجاحظ: الحيوان، ج1، ص51 .

(90) نفسه. يرى بعض الباحثين المعاصرين أنّ حركة التّعريب، والتّرجمة سارت في العهد العبّاسي بتسارع، وتعثّرت بعدم دقّة التّعريب، والابتعاد عن الألفاظ الإصطلاحية، الّتي لم يكن قد تحدّدت أبعاد معانيها، وكذلك نقْل كتب عن لغات غير لغاتها الأصليّة، الأمر الّذي أفقدها شيئا من الدّقّة والضّبط، تفاوت بتفاوت المترجم والنّسخة المترجمة والموضوع. أنظر، عزّت السيّد أحمد: فلسفة الأخلاق عند الجاحظ، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق،2005 م، ص49.

(91) الجاحظ: الحيوان، ج2، ص52 .

(92) نفسه.

(93) جميل صليبا: تاريخ الفلسفة العربيّة، دار الكتاب اللّبناني، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّانية 1973م، ص ص19 ، 20 .

(94) الجاحظ: الحيوان، ج1، ص51 .

(95) يحي بن خالد، ابن برمك الوزير الكبير، أبو علي الفارسي، أكثر حزما، وسياسة، وعقلا، ضمّه المهدي إلى ابنه الرّشيد ليُربيه، ويثقفه، ردّ إليه مقاليد الوزارة، مات بالرّقّة عام179هـ/795م. أنظر، الذّهبي: سيّر أعلام النّبلاء، ج9، ص89 .

(96) زيغريد هونكه:شمس العرب تسطع على الغرب، ص147 .

(97) السّيوطي:تاريخ الخلفاء، ص236 .

(98) السّيوطي:نفس المصدر، ص249 .

(99) زيغريد هونكة:شمس العرب، ص284 .

(100) حنين بن إسحاق، الطبيب النّصراني العبّادي، نسبته إلى العبّاد، قوم من نصارى العرب من قبائل شتّى، انفردوا عن النّاس في قصور، ابتنوها بظاهر الحيرة، وسُمّيوا بالعُبّاد، والده صيدلانيّا بالحيرة، نشأ حنين، وانتقل إلى بغداد، حضر مجلس بن ماسويه، كان صاحب سؤال، تعلّم اللّغة اليونانيّة في بلاد الرّوم، توسّع في تحصيل كتب الحكمة، عاد إلى بغداد، وارتحل فارس، فالبصرة، لزم الخليل بن أحمد، برع في اللّسان العربي، ترجم لجبريل بن بختشوع، أصبح عارفا بالنّقل، والتّفسير، اشتهر أيّام الخليفة المتوكّل، مات مسموما. أنظر، ابن العبري:تاريخ مختصر الدّول، ص144.

(101) زيغريد هونكه:مرجع سابق، ص288 .

(102) الجاحظ:الحيوان، ج1، ص78.

(103) محمّد الغزالي:الإسلام والطّاقات المعطّلة، دارالبعث، قسنطينة، الجزائر1407/10/03م، ص86 .

(104) الزّهد، هو زهد فيه، وعنه وزهد، يزهد زهدا، وزهادة، رغب عنه وتركه، فهو زاهد، والشّيئ مزهود فيه، أو عنه الزهادة في الدّنيا، والزّهد في الدّين، وقيل: هو قلّة الطّعام؛ أي الإمساك عن كثرة الطّعام، أنظر، بطرس البستاني: محيط المحيط، مادة زني، ص388 ؛ الزّهد، في اللّغة ترك الميل إلى الشّيئ، نوعان:في الحرام، وفي الحلال، فإذا كان في الحرام كان فرضا، وإن كان في الحلال كان فضلا، أمّا اصطلاحا، بغض الدّنيا، والإعراض عن شهواتها، قريبا من معنى التّقشّف؛ لأنّ التّقشّف ترك الترفه، والنعمة، ومحاربة النّفس في سبيل الوصول إلى الكمال الأخلاقي، وقيل:الزّهد ترك راحة الدّنيا، طلبا للآخرة". أنظر،جميل صليبا:المعجم الفلسفي، ص ص641 ،642 .

(105) الجاحظ:الحيوان، ج1، ص97 .

(106) نفسه.

(107) الجاحظ: نفسه.

(108) الجاحظ: نفس المصدر، ص120.

(109) الجاحظ: نفس المصدر، ص ص120، 121.

(110) إلياس عبد الوهاب خضر:موقف الرّقّاد من النّظام المالي للدّولة العباسيّة في عصره الأوّل ، مقال، مجلّة أبحاث، كليّة التّربيّة الأساسيّة ، كليّة التّربيّة الأساسيّة، جامعة الموصل، مج7،العدد1، 2008م، ص204 .

5. جوانب حضارية، وأزمات إقتصادية في المجتمع العباسي:

الأعياد مناسبات عند كلّ الأمّم، بغض النّظرعن أديانها، وألوانها، ومن ثمّ فالمجتمع العباسي الإسلامي له مناسباته، حسب تركيباته النّسَبية والدّينيّة، ما جعل التّنوع العاداتي واضح؛ بل وزاد من التّأثر فيما بينها، للتّدليل على الإندماج الإجتماعي، وهو ما كان له إنعكاساته على جوانب إجتماعية هامّة منها، الحرف والأطعمة والتّسليّة، فما جديد المجتمع العباسي في هذه الجوانب؟.

أ– الأعياد والمناسبات:

انفرد كتابا المحاسن والأضداد"، و"التّاج" بالإشارة للأعياد في المجتمع العباسي، فذكر الجاحظ أعياد الفرس تحديدا كالنّيروز[1]، والمهرجان[2]، لما للتّأثير الفارسي وعاداتهم، بما فيها أعيادهم في المجتمع العباسي، مشيرا إلى قِدم وجود هذه الأعياد، والاحتفال بهذين العيدين[3]، لكنّ الاحتفال بالنّيروز عند المسلمين ليس جديدا؛ بل أحتفل به أيضا في عهد الإمّام علي –ﷺ–؛ إذ رُوي عن أمير المؤمنين علي أنّ قوما من الدّهاقين[4]، أهدوا إليه جامات[5] فضّة، فقال: ماهذا؟ فقالوا: يوم نيروز، فقال: نيروزنا كلّ يوم، فأكل الخُبيص[6]، وأطعم جلساءه، وقسّم الجامات بين المسلمين، وحسِبها في خراجهم [7]، بينما هدايا ملوك الفرس، فتوضع لصالح الخاصّة[8]، وهو نفس الشّيئ الّذي يقوم به الملك عند الفرس.

ومن حقّ البطانة والخاصّة على الملك في هذه الهدايا[9]، أن تُعرض عليه، وتُقَوم قيمة عدل[10]، ومن ثمّة فإنّ العامّة التي لا تملك ما تعطي من هدايا للملوك، لن تشارك في هذا العيد ومنه، فلا تعرف الملوك الفرس وضعها المادّي؛ لأنّ الهدايا الموجودة في القصور هي للخاصّة[11]، وليست للعامّة، مايؤكّد عدم عدالة نظام حكم الفرس، وملوكهم، أو هونظام يكفل للأقليّة الحقوق، وليس للكلّ.

ويشير إلى سير الخليفة المتوكّل[12] نفس السيرة من شأن الاحتفال بالنّيروز، حتّى الخليفة المتوكّل لم يرفضه، فأهل السّنّة والجماعة قبلوه شكلا، وقبلوا فيه الهدايا[13]، فالهديّة تدّعّم المحبّة بين الأفراد، وهذا موجود قبلا في سيرة نبيّنا والصّحابة، قال خالد المهلبي[14]: وأُهديت إلى المتوكّل في يوم النّيروز ثوب وشي، منسوج بالذّهب، ومشنّة عنبر عليها فصوص جوهر، مُشْبك بالذّهب، ودرعا مضاعفة، وخشبة نجور نحو القامة، وثوبا بغداديّا، يقطع ثوبا، فأعجبه حُسنه، ثمّ دعا به، فلبسه، وقال: "يا مُهلبي، إنّما لبسته، لأسُرّك به"[15]، وهو نفسه الفعل في عيدي الفطر والأضحى[16].

ومن ثمّة فيمكن أن يكون هذا التّفرّد دليل سبب نشوء الرّيّ عند الخلفاء المسلمين وقتها ""خالف تُعْرف"، أو أنّه مجرد ميل الشّخص إلى تميّيز نفسه على غيره، ولا سيّما من هم دونه، وربّما كانت علامة التّفرّد دليلا على الفوز، أو ربّما قبول أهل السّنّة للاحتفال بالنّيروز ليس القصد منه، إلاّ جذب المحتفلين به إلى الدّين الإسلامي من باقي الدّيانات الأخرى، وإبعادهم تدريجيّا عن أديانهم لصالح الدّين الإسلامي من جهة، ومن جهة أخرى الإنقاص من درجة الاختلاف، الّتي قد تقع بين أهل السّنّة والجماعة وأهل الذّمّة المحتفلين به وهي أيضا خطوة فعّالة، لتقريب الرّعيّة من الخليفة، مايؤكّد أنّ ذلك ليس القصد منه التّشبّه بغير المسلمين في زيّهم، وإنّما دليلا على تطوّر الذّوق الجمالي في اختيار الأزياء عند الخلفاء، واستدامة المحبّة وليس مثلما هو عند الفرس؛ إذ كان الرّجل ممّن أهدى نشابة، أو درهما، أو تفاحة، أو أُترجة، فإنّ تلك الهديّة، إنّما قدّمها لتثبت له في الدّيوان[17]، ويخبر الملك إن نابته نائبة، فعلى الملك إعانته عليها[18]؛ أي أنّ الّذي لا يقدّم هديّة، لا يتلّقى مساعدة من الملك.

وربّما بذكر هذه التّجديدات التي هي في الأصل لم ترق لدرجة العادات العربيّة، وتقبُّل الخلفاء العباسيّين لها، إدراكهم بتعدّد التّركيبات الاجتماعيّة في المجتمع، ولا يمكن محو عاداتها خاصّة، وأنّ السّماح ومباركة مثل هذا، من شأنه خلق الإندماج والتّكافل الاجتماعي، لكنّ هذا التّأثّر بهذه المناسبة، فالخلفاء العبّاسيّين كانوا قريبين من الرّعيّة، خاصّة بديوان المظالم وصلاة الجمعة وغيرهما، وهو ما كان يميّزهم عن الملوك الفرس، فشتّان بين خلفاء يلتقون الرّعيّة باستمرار بعدالة[19]، وملوك ينتظرون لقاء رعيّتهم من مناسبة لأخرى !.

وذاك تلميح لغير العدالة للعامّة عند الفرس، خاصّة وأنّه من أخلاق الملك القعود للعامّة يوما في النّيروز ويوما في المهرجان، ولا يحجب عنه أحد في هذين اليومين من صغير ولا كبير ولا جاهل ولا شريف[20] ، ويُنادى بأمر الملك بالنّداء قبل قعوده بأيام، ليتأهّب النّاس كذلك، فيهيّئ الرجل القصّة، ويهيئ الآخر الحجّة في مظلمته، ويصالح الآخر صاحبه، إذا علم أنّ خصمه يتظلّم منه إلى الملك، فيأمر الموبذ[21]، أن يُوَكل رجالا من ثقاة أصحابه، فيقفون بباب العامّة، فلا يُمنع أحد من الدخول على الملك، وينادي مناديه، من حبس رجلا عن رفع مظلمته، فقد عصى الله، وخالف سنّة الملك، ومن عصى الله، فقد أذن بحرب منه ومن الملك؟[22].

وذلك توضيح لحقيقة نظام حكم الفرس، فهل يكفي يوم[23]، أو أيّام للنّظر في مظالم رعيّة؟! أو ربّما كان الاحتفال وسيلة من الملك للإبقاء على ملكه خاصّة، وأنّ العيد كان تذكرة لنجاة الرّعيّة من ظلم ملك فارسي عندهم، وأين هذا ممّا كان ينتهج الخليفة المأمون[24] مع رعيّته؟، فعند دخوله بغداد، وقراره بها أمر أن يدخل عليه من الفقهاء والمتكلّمين وأهل العلم جماعة، يختارهم لمجالسته ومحادثته، ويقعد للمظالم[25] في كلّ جمعة مرّتين، لا يُمتنع منه أحد[26].

وإذا كان من عادة خاصّة نساء الملك وجواريه أن يهدين إلى الملك ما يؤثرنّه، ويفضلنّه وجوبا والأكثر، فمن الواجب على الواحدة من نساء الملك، إن كانت عندها جارية، تعلم أنّ الملك يهواها ويُسرّ بها، أن تهديها إليه بأكمل حالاتها وأفضل زينتها وأحسن هيأتها، لتنال المنزلة عند الملك، ويقدّمها على نسائه ويخصّها بالمنزلة ويزيدها في الكرامة ويعلم أنّها قد آثرته على نفسها، وبذلت له، بما لا تجود النّفس به، وخصّته بما ليس في وسع النّساء إلاّ القليل منهنّ الجود بها[27]، فإنّ المرأة العباسيّة الحرّة، قد فعلت هذا لزوجها الخليفة بحريتها.

ويبدو أنّ الهدف الأكبر من التركّيز على عيدي النّيروز والمهرجان، لفت الانتباه إلى ضرورة التّنبّه للإحتفال بهما؛ لأنّهما يتشابهان في بعض مافيهما[28] مع الأعياد النّصرانيّة، خوفا من تحوّل المجتمع الإسلامي العباسي إلى الاحتفال بهما كإحدى عاداته؛ لأنّ أصل المشابهة التّفاعل بين الشّيئين المتشابهين، وكلّما كانت المشابهة أكثر، كان التّفاعل في الأخلاق والصّفات أتمّ، والمشاركة بين بني الإنسان أشّدّ تفاعلا، ولعلّ أبرز مثال على ذلك، مثال واحد من مشابهة اليهود والنّصارى العيد، فالعيد مظهرا مميّزا للأمّة[29].

وتركيزه أيضا على ذكرهما وبعض الفروق بينهما باقتضاب[30]، في حين دورهما في تحريك العلاقات اللاّ أخلاقيّة خاصّة عند القيان، ومنه المجون "إنّ القينة، لا تكاد تخالص في عشقها ولا تناصح في ودّها، لأنّها مكتسبة ومجبولة على نصب الحبالة والشّرك للمتربّصين، ليقتحموا في أنشوطتها... وأهدت إليه في النّيروز تكّة وسُكرا وفي المهرجان خاتما وتفاحة، ونقشت على خاتمها اسمه"[31].

ب – **الأزياء والعادات**:في كتب الجاحظ خاصّة البيان والتّبيّين والحيوان والتّاج إشاراتا لبعض ماكان من أزياء[32]، وألبسة في العصر العباسي، وهي تعبيرا لما اقتضته الحاجة للأفراد، أو الخلفاء في القصور، وهو مالا يعني أبدا أنّ العرب قد تنكّروا لأزيائهم القديمة؛ لأنّ اللّباس على وجه العموم نتيجة تطوّر طويل الأمد لذوق شعب ما في ناحية معيّنة، أو أنّه يتّفق مع الإدراك البديعي لذلك الشّعب ومع ميوله، ثمّ إنّ الأزياء تختلف عن العادات والتّقاليد، فالتّقاليد والعادات أعلى درجة من الأزياء؛ لأنّها تسير في سبيل الارتقاء، ولا تتغيّر، إلاّ إذا حلّ محلّها ماهو أفضل منها، على أنّ الأزياء لا تسير هذا السّير، والتّقاليد تكون أطول عمرا منها[33].

أورد خبرا عن التّطوّر في الأزياء في العصر العبّاسي الأوّل ماكان من أمّ جعفر[34]، من أمر الجمّازات[35] "وقد علمتم أنّ أوّل من شأن الجمّازات مُدَرّعات من الصّوف، أنّ أمّ جعفر أمرت الرّحّالين، أن يزيدوا في سير النّجيبة، الّتي كانت عليها، وخافت فوْت الرّشيد، فلمّا مشت ضروبا من المشي وصنوفا من السّير، فجمزت في خلال ذلك، ووافقت امرأة تُحسن الاختيار، وتفهم الأمور، فوجدت لذلك الجمز راحة ومع الرّاحة لذّة، فأمرتهم أن يسيروا بها في تلك السّيرة، فما زالوا يُقَرّبون ويُبَعّدون ويخطؤون ويصيبون، وفي كلّ ذلك تصوبهم لإتمام ذلك، حتّى تمّ واستوى"[36].

وربّما اقتضت الحاجة تطور الزّيّ لعيوب خَلقيّة؛ إذ ذكروا أنّ جعفر بن يحي[37]، كان أوّل من عرّض الجربانات[38] لطول عنقه[39]، كما دفعت حاجة العمى عند الشّاعر بشّار[40] التّعديل في جرباناته؛ إذ كان لجربان قميص بشار الأعمى وجبّته لبنتان،

فكان إذا أراد نزع شيئ منها، أطلق الأزرار، فسقطت الثّياب على الأرض[41]، ما يؤكّد أنّ الأزياء في المجتمع العبّاسي لم تكن في كلّ الحالات تشَبُّه بالغير؛ بل هي من صميم ماتفرضه الضّرورة، و قد يفهم منها وجه التّشابه بين ماكان يفعله ملوك الفرس وبعض الخلفاء العباسيّين، من تغيير اللّباس وهو ما نسبه الجاحظ لأخلاقهم، الّتي هي سلوكاتهم اليوميّة "وأخلاق الملوك تختلف في اللّبسة والطّيب، فأمّا المهديّ والهادي والرّشيد والمعتصم والواثق، فإنّهم كانوا لا يلبسون القميص إلاّ لبسة واحدة، إلاّ أن يكون الثوب نادرا معجبا غريبا"[42].

وربّما كان ذلك لتوضيح وجه الشّبه بين بعض الخلفاء العباسيّين وملوك الفرس، لتبيّين أنّ ذاك لتمييز أنفسهم عن رعيّتهم، وكان أردشير[43]، وأنوشروان[44] يأمران بإخراج ما في خزائنهم في المهرجان، والنّيروز من أنواع الملابس والفُرَش، فتُفَرّق كلّها في النّاس على مراتبهم، ويقولون: "أنّ الملوك تستغني عن كسوة الصّيف في الشّتاء، وعن كسوة الشّتاء في الصّيف، وليس من أخلاقهم، أن يخبّؤوا كسوتهم في خزائنهم، ويساووا العامّة في فعلها"[45]، لكنّ أبا مسلم[46] وغيره، كانوا ممّن يتصدّقون على الرّعيّة باللّباس؛ إذ اقتدى بالفرس في تفريق كسوته، ولا نعلم أنّ أحدا بعدهم، اقتفى آثارهم إلاّ عبد الله بن طاهر[47]، فإنّي سمعت، أنّه كان يفعل ذلك في النّيروز والمهرجان، حتّى لا يترك في خزائنه ثوبا واحدا إلاّ كساه[48].

أمّا ماكان يميّز العرب، فالعِمّة وأخذ المِخصرة من السّيما[49]؛ بل وهو من الضّرورة عند الخطباء العرب، وقد لا يلبس الخطيب الملحفة ولا الجبّة ولا القميص والرّداء، والّذي لا بدّ منه العمّة والمخصرة[50]، ذاكرا أنّها على أنواع دون تحديد منه لألوانها، أو أشكالها، فللخلفاء عِمّة وللفقهاء عِمّة وللبقّالين عِمّة وللصوص عِمّة وللأبناء عِمّة وللرّوم والنّصارى عِمّة ولأصحاب التّشاجي عِمّة ولكلّ قوم زيّ، فللقضاة زيّ ولأصحاب القضاة زيّ وللشّرطة زيّ وللكتّاب زيّ ولكتّاب الجند زيّ، ومن زيّهم أن يركبوا الحمير[51].

وربّما ذكره للعِمّة عند الرّوم والنّصارى دليل على مدى حذوهم حذو العرب في التّشبّه بالعرب في لباسهم وليس العكس، مايؤكّد أنّ العِمّة عند العرب، كانت تمثّل دليلا على تفرّدهم وقوّتهم أمام غيرهم، ما جذب إليهم الرّوم والنّصارى في التّشبّه بهم في هذا الأمر وربّما تأثرهم باللّباس هو بداية للّفظ تشدّدهم في ديانتهم والتّحوّل التّدريجي لصالح الإسلام، فقد يحدث أن يتّفق يوم أعياد المسلمين والنّصارى واليهود في يوم واحد.

وهذا يؤكّد هذا أيضا على أنّ وجود العِمّة عند العرب يدخل في باب العادات والتّقاليد، لا الأزياء فقط، لذلك كانت أطول عمرا، ولما كانت العِمّة كذلك، فقد تشدّد بعض الخلفاء العباسيّين في لبسها عند شعرائهم، إذ قيل: "دخل العمّاني[52] الرّاجز على الرّشيد لينشده شعرا، وعليه قَلَنسوة طويلة، وخفّ ساذج، فقال: إيّاك أن تنشدني، إلاّ وعليك عمامة عظيمة الكَوْر، وخفّان دمالقيّان، فبكّر عليه من الغد، وقد تزيّا بزيّ الأعراب، فأنشده، ثمّ دنا، فقبّل يده[53].

مايؤكد أنّ العِمّة كانت عند العرب من العادات، بينما عند غيرهم مجرد زيّ، يستعمل في حالة ولا يستعمل في أخرى، فاختلاف النّاس في أساليبهم وطرقهم في المعيشة والسّلوك هو مصدر أزيائهم وعاداتهم، مايؤكّد أنّ الفرد المسلم وغيره، يُنشِأ أسلوبا وطريقة لنفسه بشأن لباسه كأن يريد، أن يخالف غيره، أو لما يراه لنفسه من نفع فيه، فيتبعه، وتخوّفا من اتّخاذ النّصارى واليهود للعِمّة والقلانس كعادات لهم، فقد كان للرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– قَلنسوة بيضاء لاطئة، يلبسها والخلفاء لبسوا مثلها، اهتداء به، فيمنع أهل الذّمّة من لباس القَلنسوة، لعدم وجود هذه المعاني، والعمامة يُمنعون من لبسها والتّعمّم بها؛ لأنّ العمائم تيجان العرب، وعزّها على سائر الأمّم من سواها، ولبسها الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– والصّحابة من بعده، فهي لباس العرب قديما ولباس رسول الله والصّحابة، فهي لباس الإسلام[54].

في حين أنّ التّرك أيضا تلبس القلانس "ولنا الطُبول المهولة العظام والبنود ونحن أصحاب التّجافيف والأجراس والبازيكند واللّبود[55] الطوال والأغماد المعقفة والشّوارب المعقربة والقلانس الشّاشيّة"[56]، رغم وجود تّميز للعرب بلبس القلانس، كاتّخاذ القضاة القلانس العظام في حمّارة القيظ واتّخاذ الخلفاء العمائم على القلانس، فإذا كانت القلانس مكشوفة، زادوا في طولها وجدّة رؤوسها،

حتّى تكون فوق قلانس جميع الأمّة[57]، وهو مايثبت أنّ اللّباس خاصّة العمامة كانت جزءا من شخصيّة العرب، حتّى ألزم الخليفة المنصور النّاس بلبس قلانس طوال جدّا، حتّى كانوا يستعينون على رفعها من داخلها بالقصب عام 153هـ/770م[58].

وروي أنّ أبا جعفر المنصور، أمر سائر الخصيصين به، أن يلبسوا أقباعا طوالا، ويقيموا عليها ولا يفارقوا لبس السّواد، مكتوب بالبياض في ظهورهم، فسيكفيكهم الله وهو السّميع العليم ثمّ غيَّره[59]، كما وُصف المعتصم[60]...وغلب عليه حبّ الفروسيّة والتّشبّه بالملوك الأعاجم في الآلة، ولبس القلانس والشّاشيّات، فلبسها النّاس اقتداء بفعله، فسمّيت المعتصميّات[61]، وذكرأنّه كان قلّما يمسّ الطّيب، وأمّا في أيام خروجه، فكان من دنا منه وجد رائحة صدأ السّلاح والحديد من جسمه[62].

غير أنّ الجاحظ يشير إلى نوع من التّفرّد، الّذي تميّز به بعض خاصّة الخلفاء في لباسهم وأصحاب السّلطان ومن دخل الدّار على مراتب، فمنهم من يلبس المِطَلَة ومنهم من يلبس الدرّاعة ومنهم من يلبس القِباء، ومنهم من يلبس البازيكند[63]، ويعلّق الخنجر ويأخذ الحرز، ويتّخذ العِمّة، وزيّ مجالس الخلفاء في الشّتاء والصّيف فرش الصّوف، ونرى أنّ ذلك أكمل وأجزل وأفخم وأنبل[64]، كما أنّه لا يرى في ذلك تشبّها بغير المسلمين، مادامت الغاية منه وهو التّبجيل لمكانة الخلفاء.

ولذلك وضعت ملوك العجم على رؤوسها التّيجان، وجلست على الأسِرّة، وظاهرت بين الفُرَش، لإبراز هيبتها والحفاظ عليها[65]، مشيرا إلى وجود ظاهرة التّفرّد تلك عند الشّعراء خاصّة، مع التزامهم بلباس الدّولة العباسيّة الرّسمي ولونه، وهو الرّداء الأسود، فكانت الشّعراء، تلبس الوشيّ[66] والمقطّعات[67] والأردية السّود وكلّ ثوب مُشَهَّر، وقد كان عندنا منذ نحو خمسة سنين شاعرا يتزيّا بزيّ الماضين، وكان له برد أسود، يلبسه في الصّيف والشّتاء[68].

وافتخر بحمل العرب للعصا، وضمّنها كتاب البيان والتّبيّين، فهذه الرّهبان تتّخذ العصيّ من غير سقم ولا نقصان في جارحة، ولا بدّ للجاثليق[69] من قناع ومن مظلّة وبرطلة ومن عكّاز ومن عصا[70]، وذكر أمورا تشترك فيها العرب والعجم وهي القناع؛ لأنّه أهْيَب، ذاكرا بعض الشّخصيات من بني العبّاس ومواليهم[71]، فهو أهيب في الصّدور وأجّل في العيون والمتقنّع أروع من الحاسر؛ لأنّه إذا لم يفارقه الحجاب، وإن كان ظاهرا في الطّرق، كان أشبه بمباينة العوام وسياسة الرّعيّة وطرْح القناع ملابسة وابتذال ومؤانسة ومقاربة، ولما لا يكون للقناع تلك المنزلة، أنّ رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–، كان أكثرالنّاس قناعا ويضيف مكانة القناع عند المتكلّمين، أنّ رؤساء جميع أهل الملل وأرباب النّحل على ذلك[72].

ولما كان القناع مختصّا به الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم–، فقد اتّخذه بعض المتزندقين زيّا لهم، لإثبات نبوّتهم"وكان المقنّع الكندي الشّاعر، واسمه "محمّد بن عمير"، كان الدّهر مقنّعا، والقناع من سِيَم الرؤساء، والدّليل على ذلك والشّاهد الصّادق والحجّة القاطعة، أنّ رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–، كان لا يكاد، يرى إلاّ مقنّعا[73]، وهناك من اتّخذه لإثبات ربوبيته، كالمقنّع الّذي خرج من خراسان يدّعي الرّبوبيّة، لا يدع القناع في حال من الحالات وجهل بادّعاء الرّبوبيّة من طريق المناسخة[74].

أمّا العصا فالخلفاء العبّاسيّون كانوا يفضّلونها على كلّ مايأتيهم من هداياهم؛ إذ أهدى أبو العتاهيّة إلى أمير المؤمنين عِصي مختلفة[75] وأردية قطنيّة ورداء يمانيّة ونعالا سنديّة، فقبل من ذلك عصا واحدة، وردّ الباقي، وبعث إليه مرّة أخرى بنعل، فقبلها[76]، رغم أنّ النّعال يلبسها المجوس، الّذين كانوا يرتعون البصرة وبغداد وغيرهما بنعال سنديّة[77]، ورغم أنّ العرب تلهج بذكر النّعال[78]، والفرس تلهج بذكر الخفاف، وفي الحديث المأثور عن أصحاب رسول الله، كانوا ينهون نساءهم عن لبس الخفاف الحمر والصّفر؛ لأنّها من زينة نساء آل فرعون[79]، وربّما لقلّة لبس العرب للنّعال نظرا للاختلاف حولها، فصار لبس الخفاف والقلانس جزء من الشّخصيّة؛ إذ يلبس النّاس الخفاف والقلانس في الصّيف، كما يلبسونها في الشّتاء، إذا دخلوا على الخلفاء وعلى الأمراء وعلى السّادة العظماء؛ لأنّ ذلك أشبه بالاحتفال وبالتّعظيم[80].

كما اشتهر أيضا لباس الطّيلسان[81] حتّى عند المغنين، كما حدّث المغنّي علويّة عن نفسه" لو أُخبرك، أنّ عُلوية دخل الكرخ اليوم يبتاع طيلسانًا، إذ كان لا يملك طيلسانًا، أكنتَ تُصدّق؟ قلت: لا، والله إنّ الأمر كما خبّرتك[82]، وعليه فالطّيلسان لم يكن حِكرًا

لباسه على فئة معيّنة؛ بل الكلّ، ومن الغريب أن لا يمتلكه أحد[83]، كما اشتهر كذلك لباس الجلابيب، كما ذكره الجاحظ في كتاب الفُتيا "وما تُخفيه الجلابيب"[84] في حديثه عن النّظرة المحرّمة للمرأة[85].

واشتهر لبس الملاءة والجبّة في العهد العبّاسي، الّتي كانت معروضة للبيع على مايبدو "واشتريت مُلاءة مذارية[86]، فلبستها ماشاء الله رداء، وملحفة، ثمّ احتجت إلى طيلسان فقطّعتها يعلم الله، فلبسته ما شاء الله، ثمّ احتجت إلى جبّة، فجعلته يعلم الله طهار جبّة محشوّة فلبستها ما شاء الله"[87]، ومنه فالتّعدد في استعمال اللّباس، كان للضّرورة، وليس كما ذهب إليه بعض الدّارسين، من أن تعدّد الأزياء، كان نتيجة لتأثّر العباسيّين بالأزياء الفارسيّة والتّركيّة ورسوم ملوك الفرس القدامى[88]، ونظرا لجودة قماشه، أو لتعدّد صلاحيّاته الّتي أدخلها الجاحظ في باب البخل، وصل استعمال تلك الملاءة بعد مدّة إلى مخاد وغيرها، "ثمّ أخرجت ما كان فيها من الصّحيح، فجعلته مخادًا، وجعلت قطنها بقناديل، ثمّ جعلت ما دون خرق المخاد للقلانس، ثمّ عمدتُ إلى أصّح ما بقي، فبعته من أصحاب الصّينيات والصّلاحيات، وجعلت السّقّاطات، وما قد صاركالخيوط وكالقطن المتذوّق صمائم لرؤوس القوارير[89].

ت- **الحِرف**:يشير الجاحظ إلى تنوّع الحِرف في المجتمع العباسي، ليس من أجل التّحدّث عن الحرفة ذاتها؛ بل من أجل التّحدّث عن المنتسبين لها وأخلاقهم المتشابهة، فالصّناعات والصّنّاع في نظره بكثرة، وهو ما أنشأ جماعات حِرَفيّة، فأصبح الواحد ينتسب إلى حرفته "وكذلك النّحّاسون على طبقاتهم من أصناف، ما يبيعون، وكذلك السّمّاكون والقلاّسون"[90]، وذكره للحِرف والتّخصّص فيها ليس القصد منه التّحدّث عنها، بقدر ماكان همّه التّنبيه إلى الطبائع المشتركة الّتي يتّصف بها أصحابها، ومن ثمّ تأثيرها على المجتمع، على اعتبار أنّ هؤلاء يمارسون السّلوك التّعاملي مع أفراد المجتمع "وكلّ حجّام في الأرض، فهو شديد الاستهتار بالنّبيذ، وإن اختلفوا في البلدان والأجناس"[91]؛ بل وجعل التّشابه في الفعل عند المبتدئين والمحترفين في الحِرفة الواحدة "وكذلك النّحّاس وصاحب الخُلقان، وبيّاع السّمك وكذلك الملاّحون وأصحاب السّماد، أوّلهم كآخرهم وكهولهم كشبابهم، ولكن قلّ في استواء الحجّامين في حبّ النّبيذ"[92].

وهناك صناعات دخيلة ربّما انتشرت عن طريق الكتب المترجمة "وحسبك ما في أيدي النّاس من كتب الحساب والطّبّ والمنطق والهندسة ومعرفة اللّحون والفلاحة والتجارة وأبواب الأصباغ والعطور والأطعمة والآلات، وهم أنوّكم بالحكمة والمنفعة التي في الحمّامات وفي الأسترلابات والقرسطونات وآلات معرفة الصّناعات وصنعة الزّجاج والفسيفساء وغيرها، بما فيها تعليق الخيش واتّخاذ الجمّازات وعمل الحرّاقات[93] واستخراج الدّادي[94] وعمل الدّبّابات[95] وغيرها[96].

وهذا يؤكد مدى انتعاش النشاط الحِرفي عند العرب باحتكاكهم بغيرهم، إمّا عن طريق ترجمة كتب الغير، أو لتشجيع الخلفاء للنّشاط التّجاري، فقد أمر الخليفة المنصور ببناء الأسواق في سنة157هـ/774م[97]، أو ربّما التّعلّم منهم مباشرة بحكم المعايشة لهم، مايؤكّد ماذهب إليه بعض الدّارسين إلى كونه في استخدامه لعامل المهنة في تصنيفه، كان مختلفا عن بقية المحلّلين، حيث ركّز على أصناف المهن الفكريّة أكثر من الاقتصاديّة والإداريّة والسّياسيّة، وذلك لأهميّتها في حياة المجتمع العربي الإسلامي أنذاك[98]، والتّوجه إليها كان لأسباب، فإمّا الحاجة ولّدت هذا التّوجّه، وهو مايبرز التّطوّر العربي من البداوة إلى التّمدّن" فقد تُقَصّر الأسباب بعض النّاس، على أن يصير حائكًا، وتُقَصّر بعضهم على أن يكون صيرفيًا، فهي وإن قصّرته على الحياكة[99]، ويبدو تركيزه على ذكر النّشاط الحِرَفي لما لأهله من تجاوزات أخلاقيّة، تخصّ آداب التّعامل التّجاري، أو الإتقان في الصّنعة وعليه، فالحرفة لا علاقة لها بخلق المحترف لها، من خلف المواعيد "ولم تقصّره على خلف المواعيد، وعلى إبدال الغزول، وعلى تشقيق العمل دون الإحكام والصّدق وأداء الأمانة، ولم تُقصّر الصّيرفي على التّطفيف في الوزن، والتّغليط في الحساب"[100] .

وحرفة الحياكة مثلا كانت دليلا كافيّا على لؤم ممتهنها "وذكروا أنّ الرّشيد لمّا انصرف من الحجاز وصار بالرّقّة، سأل وزيره عن رجل، فقال: ياسيّدي هذا رجل شحّاذ، وإن قعد معك أذاك، فقعد، فلمّا حضر الغذاء دعاه، فكان يأكل أكل جائع بنهامة، إلاّ أنّه نظيف الأكل، فلمّا رفع الطّعام، قال له: ياهذا ماصناعتك؟ قال له: حائك، فردّ عليه: هذه أشّر من الأولى[101] ، وعليه فهناك مِهنا تختلف منزلتها الاجتماعيّة عن بعضها البعض، فالحاكة مثلا كانوا محتقرين، ويُعتبرون أسفل النّاس في معيشتهم وخُلقهم، بالرّغم من أنّ

هذه الحرفة قد شاعت أكثر وأصبحت أهميّتها أكبر في حياة المدينة[102]، ولربّما كان للحياة السّياسيّة واتّجاهاتها أثرا في هذا الموقف من الحاكة خاصّة، في حين لا يقال عن الصّيارفة[103]وغيرهم ما يقال عن الحاكة.

ويبدو أنّ الصّيارفة لم يكونوا كلّهم على دناءة الخلق، لذلك ذكرهم تارة في كتاب المعلّمين، ودعا من قولهم: اصرفه إلى الصّيارفة، فإنّ صناعة الصّرف تجمع مع الكتاب والحساب المعرفة بأصناف الأموال، ولا تجد بدّا من حلّة السّلطان[104]، حتّى أنّ الخليفة المأمون قد ولّى بعض الصّيارفة عدّة نواحي، كما فعل مع ابن جعفر بن يحي الّذي كان صيرفيّا، وقد كان ولاّه المأمون طساسيج عدّة[105] وتارة أخرى ذكرهم باللّؤم، كما هو متعارف عند العامّة عند ما وقف أعرابي، يسأل قوما، فقالوا له: عليك بالصّيارفة، فقال: هناك والله قرارة اللّؤم[106]، وهذا أمر يتطلّب التّبيّن.

ويذكر حرفة الحياكة، وما ارتبط بها من أقوال وتشنيعات بأهلها" ألا ترى أنّك لا تجد بدّا في كلّ بلدة، وفي كلّ عصر للحاكة فيهم على مقدار واحد وجهة واحدة من السّخط والحُمق والغباوة والظلم"[107]، ويشير إلى علاقتهم بحرفتهم" كما أنّ كلّ حجّام في الأرض، من أيّ جنس كان ومن أي بلد كان، فهو يحبّ النّبيذ"[108]، في حين يتوخّى الفساد الأخلاقي من حرفيّين آخرين "، وكما أنّ أصحاب الخلقان والسّمّاكين والنّخّاسين والحاكة في كلّ بلد من كلّ جنس شرار خلق الله في المبايعة والمعاملة، فعلمنا بذلك أنّ ذلك خلقة في هذه الصّناعات، وبنية في هذه التّجارات"[109]، وربّما كان ذلك دليلا على سرعة انتقال العادات السّيّئة بحكم كثرة التّلاقي بينهم، فصارت تلك العادات المكتسبة جزءا من طبائعهم.

ويؤكّد ذلك ابن كثير بما ذكره، قال أبونواس: دعاني يوما بعض الحاكة وألحّ عليّ، ليضيّفني في منزله، ولم يزل بي حتّى أجبته، فسار إلى منزله وسرت معه، فإذا منزل لا بأس به، وقد احتفل الحائك، فلم يُقَصّر، فأكلنا وشربنا، ثمّ قال: يا سيّدي، أشتهي أن تقول في جاريتي شيئا من الشّعر، وكان مغرما بجارية له، قال أبونواس: فقلت: أرينها، حتّى أنْظم على شكلها وحسنها فكشف عنها الحجاب، فإذا هي من أسمج خلق الله، وأوحشهم، سوداء، شمطاء، دندانيّة، يسيل لعابها على صدرها، فقلت لسيّدها: ما اسمها؟، فقال: تسنيم، فأنشأت أقول: أيُسْهِرُ لَيْلِي حُبُّ تَسْنِيمٍ جَارِيَةٌ في الحُسْنِ كالبُوم، قال: قام الحائك يرقص، ويصفّق سائر يومه، ويفرح، ويقول شبّهها والله بملك الرّوم[110].

وربّما كان ذلك لاختلاف لغوي بينهما حال دون الفهم، وفي رسالة الأوطان والبلدان "وقد تجدون عموم السّخف والجهل والكذب في المواعيد والغشّ في الصّناعة في الحاكة في كلّ بلد شيئ واحد"[111]، ما يؤكّد أنّ الجاحظ كان مدركا لحقيقة مايجري، وفي ذلك تنبيه إلى المصاعب الّتي يعانيها المحتسب في كشف كلّ مظاهر ذاك الغشّ عند الحاكة وغيرهم، فينبغي أن يُعيّن عليهم عرّيفا ثقة طاهرا مأمونا بصيرا بما يجري في السّوق من الخطإ والتّدليس، ويجعل كلّ جزء من النّساء متفرّدا غير مختلط، وأن يُعطوا لكلّ من عمل عندهم مسلاكا من غزله، لتزول التّهمة، ويرفع الشّك[112].

في حين ينفي الحمق على الغزّالين؛ لأنّ شيخ المعتزلة واصل[113]كان يُكثر الجلوس إلى بعضهم؛ بل وكُنّي بالغزّال، وقد سمعنا قول بعضهم: الحمق في الحاكة والمعلّمين والغزّالين، قال: والحاكة أقلّ[114]، وأسقط من أن يقال لها: حمقى وكذلك الغزّالون، لأنّ الأحمق هو الّذي يتكلّم بالصّواب الجيّد، ثمّ يجيئ بخطإ فاحش، والحائك ليس عنده صواب جيّد في فعال ولا مقال، إلا أنّ يُجعل جودة الحياكة من هذا الباب، وليس هو من هذا في شيئ[115]، ومنه فهو يصنّف المحترفين على أساس عقولهم، لا أساس حرفهم، وكلّ ما ارتبط بأهل الاعتزال من حرف، دافع الجاحظ عن حِرفهم والمنتسبين إليها.

ويجعل من تفعيل العقل أساسا في التّفرقة بين النّاس، سواء الأغنياء أو العامّة أو السّفلة "والعامّة والباعة والأغنياء والسّفلة، كأنّهم أعذار عام واحد، وهم في باطنهم أشّدّ تشابها من التّوأمين في ظاهرهما، وكذلك هم في مقادير العقول وفي الاعتراض والشّرع"[116]، ومن شدّة تواضع الخلفاء وتبجيلهم لأهل الحِرف وتشجيعهم، فقد أورد لنا عن الخليفة الرّشيد؛ إذ قالوا: أحبّ الرّشيد، أن ينظر إلى أبي

شعيب القلاّل، كيف يعمل القِلال؟، فأدخلوه القصر، وأتوْه بكل ما يحتاج إليه من آلة العمل، فبينما هو يعمل، إذا هو بالرّشيد قائم فوق رأسه، فلمّا رآه نهض قائما، فقال له: دونك، ما دُعيت له، فإنّي لم آتك لتقوم لي، وإنّما أتيتك لتعمل بين يدي[117].

وهذا يبرز مدى تشجيع الخلفاء للنّشاط الحِرفي من جهة، ففي سنة225هـ/840م، لما أُحرق الكرخ، وهب الخليفة المعتصم بالله للتّجار وأصحاب العقار خمسة آلاف درهم، جرت على يد القاضي أحمد بن أبي دؤادة[118]، وقدم بها إلى بغداد[119]، ومن جهة أخرى التّميّز الّذي كان عليه الخلفاء عن ملوك الفرس؛ إذ كان أردشير بن بابك، لا يرتضي لمنادمته ذا صناعة رديئة، كابن حائك وحجّام، ولوكان يعلم الغيب مثلا[120].

يشير الجاحظ إلى وجود فئة كبيرة في القصور، لا تساهم في القطاع الحِرفي، ويقرن ذلك بقلّة عقولها وحكمتها "والخصيان مع جودة آلاتهم ووفارة طبائعهم في معرفة أبواب الخدمة وفي استواء حالهم في باب المعاطاة، لم تر أحدا منهم قطّ نفذ في صناعة تنسب إلى بعض المشقّة وتُضاف إلى شيئ من الحكمة، ممّا يعرف ببعد الرّوية والغوْص بإدامة الفكرة؛ إلاّ ما ذكروا من نفاذ[121]، ثقف في التّحريك للأوتار، فإنّه كان في ذلك مقدّما وبه مذكورا، إلا أنّ الخصيّ من صباه يحسن صنعة الدّبوق ويجيد دعاء الحمام الطّوزي وما شئت من صغار الصّناعات[122]، ومنه فهذه الفئة تدخل في باب ماذكره الخليفة المأمون "السّوقة سُفّل والصّنّاع أنذال والتّجار بخلاء والكتّاب ملوك على النّاس والنّاس أربعة أصحاب حِرف وهي؛ إمارة وتجارة وصناعة وزراعة، فمن لم يكن منهم، صار عيالا عليهم[123].

في حين أنّ هناك التّرك الّذي لم تشغلهم صناعات ولا غيرها، ورغم ذلك كوّنوا كياناتا لهم "وكذلك التّرك أصحاب عمد وسكان فياف وأرباب مواش، وهم أعراب العجم، في حين لم تشغلهم الصّناعات والتّجارات والطّبّ والفلاحة والهندسة ولا غرس ولا بنيان ولا شقّ أنهار ولا جباية غلاّت، ولم يكن همّهم غير العدوّ والغارة والصّيد وركوب الخيل، صار كلّ ذلك هو صناعتهم، وتجارتهم وفخرهم"[124].

كما يشير بذلك إلى وجود الثّروة عند فئة من النّاس، وهم بائعي الشّراب خاصّة المصريّين "ويزعم أصحاب الشّراب، أنّهم لم يروا قطّ، ألّذ ولا أجمع بما يريدون من شراب العسل الّذي يُنتبذ بمصر، وليس في الأرض تُجّار شراب ولا غير ذلك، أيسر منهم[125] ، وربّما الوا قع العبّاسي يؤكد أيضا وجود الثّروة عند الكتّاب، والدّليل أنّ الخليفة الواثق بالله[126] في سنة 125هـ/743م، حبس الكتّاب، وألزمهم دفع أموال[127]، ويشير إلى الأحكام غير الصّائبة الّتي كانت تصدر في حقّ فئات من الحرفيّين، منها ما قيل عن الوُكلاء[128] "قد رأيتك حفظك الله، خوّنت جميع الوكلاء وفجّرتهم، وشنّعت على جميع الورّاقين وظلّمتهم وجمعت جميع المعلّمين وهجَوْتهم وحفظت مساويهم، وتناسيت محاسنهم"[129]، حتّى أنّ بعضهم شنّع عليهم، فيما شكّك الجاحظ في قوله: وزعمت في أوّل تشنيعك عليهم، فقلت: قال يعقوب بن عبيد لبعض ولده، حين قال له في مرضه: أيّ شيئ تشتهي؟ قال: كبد وكيل، وقد كان ترك التّجارة من سوء معاملتهم، وفُحش خبائثهم[130].

والظّاهر أنّ تشكيكه فيما يُشنّع به الوكلاء ليس في محلّه، أو أنّه حكم غير قابل للتّعميم، إذ هناك شهادات لبعض القادة، تتّفق في التّشنيع على الوكلاء، ووجود استغلال غير مباشر للأراضي الزّراعيّة من طرف ملاكها الحقيقيّين، إذ قال نصر بن سيّار[131]: لعن الله وكيل الضّيعة، إن عشتَ، أكلها دونك، وإن متَّ ادّعاها بعدك، وإن كان عاجزا جاهلا استهلكها"[132]؛ بل ويؤكّد عدم القدرة على تفادي شرّ الوكلاء "لا تتّخذ الوكيل داهية أريبا، ولا ذا عشيرة منيعة، فإنّك، إن قاومته أيّام حياتك، عجز عنه ولدك بعد وفاتك"[133].

فالجاحظ يدعو إلى ضرورة التّريّث في إصدار الأحكام بطريقة عشوائيّة، لما فيها من إشاعة الفوضى والرّذيلة بين الحرفيّين الآخرين" اعلم أنّ الوكيل والأجير والأمين والوصيّ في جملة الأمر، يجرون مجرى واحد، فإيش لك أن تقضي على الجميع بإساءة البعض، ولو بهرجنا جميع الوكلاء وخوّنا جميع الأمناء واتّهمنا جميع الأوصياء وأسقطناهم ومنعنا النّاس الارتفاق بهم، لظهرت الخلّة وشاعت

المعجزة وبطلت العقد، وفسدت المستغّلات وإضطربت التجارات وعادت النّعمة بلية والمعونة حرمانا والأمر مهملا والعهد مريحا"[134]، ما يؤكد أنّ الأمر بالمعروف، يجب أن يشمل الإرتفاق بهذه الفئة؛ بل بالعكس يدعو إلى ضرورة العمل على تغيير أخلاق منكرة بأخرى حسنة"وكذلك أمر الوكلاء والأوصياء والأمناء، لا نعلم قوما الشّرّ فيهم، أعّم ولا الغّشّ فيهم، أكثر من الأكِرّة، وما يجوز لنا مع هذا أن نعمّهم بالحكم، مع أنّ الحاجة إليهم شديدة، ونزع هذه العادة وهذا الخلق منهم أشّدّ"[135].

كما ظهرت جماعة أخرى تُنَفّر في التّجارة، رغم أنّها أساسيّة "وإنّ الّذي دعا صاحبك إلى ذمّ التّجارة، تَوهّمه بقلّة تحصيله؛ أنّها تُنقص من العلم والأدب، وتقتطع دونهما وتمنع منهما، فأيّ صنف من العلم، لم يبلغ له التّجار فيه غاية أو يأخذوا منه نصيب؟ هل كان في التّابعين أعلم من سعيد بن المسيّب[136] أو أنبل؟وقد كان تاجرا يبيع ويشتري وكان أعبر النّاس للرّؤيا، وأعلمهم بأنساب قريش[137]، ولتثبيط حركة التّجار والاستفادة من الرّبح السّريع دون جهد، ظهرت جماعة تدعو إلى تشجيع الكراء، لذلك كان ردّ عليها بالتّشكيك في ماتدعو إليه "زعمتم أنّكم، قد أحسنتم إلينا، حين حثثتم النّاس على الكراء؛ لما في ذلك من الرّخاء والنماء، فأنتم لم تريدوا نفعنا بترغيبهم في الكراء؛ بل إنّما أردتم أن تضرّونا بتزهيدكم في الشّراء[138]، وهو ما يفهم منه أنّ الاقتصاد العبّاسي كان مهدّدا خاصة من بعض المتنسكين، كما ذكرت سابقا الّذين يشجّعون التّسوّل والكسب السّريع المريح.

وعليه فهناك فئات متطفّلة في القصور تُصدر أحكاما دون تمحيص، مايشير طبعا إلى انتشار الحسد على هذه الفئة النّشيطة، فالحسد داء ينهك الجسد، ويفسد الودّ وعلاجه عَسِر وصاحبه ضَجِر[139] ، ويخصّ بالذّكر الدّاعين إلى ذلك "وهذا الكلام لا يزال ينجم من حشوة السّلطان، فأمّا عليّتهم ومصّاصهم وذووا البصائر والتّميز منهم، ومن فتّقته الفطنة وأرهفه التّأديب وأرهقه طول الفكر وجرى فيه الحياء وأحكمته التّجارب، فعرف العواقب وأحكم التّفصيل وتبطّن غوامض التّحصيل، فإنّهم بفضيلة التّجّار، ويتمنّون حالهم، ويحكمون لهم بالسّلامة في الدّين وطيب الأطعمة، ويعلمون أنّهم أودع النّاس بذلك، وينزع إليهم ملتمسو البيّاعات، لا تلحقهم الذّلّة في مكاسبهم ولا يستعبدهم الصرع لمعاملاتهم"[140].

وحتى لا يعمّم في اتّهام كلّ من هُم بالقصر" وليس هكذا من لابس السّلطان بنفسه وقاربه بخدمته، فإنّ أولئك لباسهم الذّلّة وشعارهم الملق"[141]، في حين يبيّن مفاخر البصرة محيطه الأصلي في إطار مقارنة بسيطة لها بغيرها من المدن العراقيّة كبغداد" ويدلّ على صلاح مائهم كثرة دورهم وطول أعمارهم وحسن عقولهم ورفق أكفهم وحذْقهم لجميع الصّناعات، وتقدّمهم في ذلك لجميع النّاس"[142]، مع تطوّر تقنيات البناء عند البصريّين، دليلا على تميّز المدن العراقيّة عن بعضها البعض بالحرف والنّشاطات المختلفة "وإذا رأيت بناءهم وبياض الجصّ الأبيض بين الآجر والأصفر، لم تجد لذلك شبها أقرب من الفضّة بين تضاعيف الذّهب"[143].

مبيّنا بعض الانتقادات الّتي كانت من أهل بغداد لبعض الطّرق الّتي يستخدمها البصريّون في انتاجهم الزّراعي، لأنّ أرض البصرة قليلة السّماد، فإنّ البصريّين يلجؤون إلى تسميدها "ثمّ العجب من أهل بغداد وميلهم معهم، وعيبهم إيّانا في استعمال السّماد في أرضينا، ولتخالنا ونحن نراهم يسمّدون بقولهم بالقذرة اليابسة صرفا، فإذا طلع وصار له ورق، ذرّوا عليه من تلك القذرة اليابسة، حتّى يسكن في خلال تلك الورق"[144]؛ بل أنّ المزبلة نفسها، يُسوَى منها اللّبن لبناء الدّور في البصرة، وهو نوع من التّفنن والإبداع "ويريد أحدهم، أن يبني دارا إلى مزبلة فيضرب منها لبِنا، فإن كانت داره مطمئنة ذات قعر، حشا من تلك المزبلة الّتي لو وجدها أصحاب السّماد عندنا، لباعوها بالأموال النّفيسة"[145].

وبلغ الأمر أنّ المناطق القريبة من البصرة، احتذى أهلها نفس التّفنّن في توفير حاجيّاتهم من استغلال أخرى، منها ما ذكره في كتاب البخلاء من استعمال الملاءة المذاريّة حتّى تصير في آخر المطاف صمائم لرؤوس القوارير[146]، وهو ما يؤكّد به أنّ هناك اكتفاء ذاتيّا محليّا، لا حاجة معه إلى اقتناء كل الحاجيات من الغير؛ أي وجود نواة إقتصاد محلّي بصري ومن ثمّة، فذاك مدعاة للافتخار والاحتذاء به في كلّ الأحوال، خاصّة إذا علمنا أنّ مُدُنًا كالأهواز[147] وبغداد وغيرها، يكثر فيها الدّراهم، ويعزّ فيها المبيع، لكثرة عدد النّاس وعدد الدّراهم[148].

ث- الأطعمة:يشير الجاحظ في كتاب البخلاء إلى تعدّد أنواع الأطعمة، من خلال أكل البصريين والبغداديّين، قصة زُبيدة بن حميد الّذي ضرب غلمانه؛ لأنّهم أكلوا كلّ جُوارشن[149] كان عنده[150]، وكان بعض القصّاص كخالد بن يزيد مولى المهالبة، كان قد بلغ في البخل والتّكدّية[151] وفي كثرة المال المبالغ الّتي لم يبلغها أحد، ورغم ذلك كان أكله الزّكوري[152] لمدّة ثلاثين سنة، ولذلك كان يُضيّق على غلمانه في الأكل، رغم كونه قاصّا، متكلّما، بليغا، داهيّا ومن بين غلمانه، ذكر الجاحظ أبا سليمان الأعور وأبا سعيد المدائني القاضيّان[153].

ولم يكن الطّعام لمجرد الأكل؛ بل له خصوصيّات التّذّوق حتّى عند البخلاء، أي وجود ثقافة أكل "وأنا لست أطعم الجزر المسلوق بالخلّ والزيت والمرّي[154] دون الكمأة بالزّبدة والفلفل لمكان الرّخص، أو لموضع الاستفضال، ولكن لمكان طيبه في الحقيقة؛ ولأنّه مالح الطبيعة[155]، وكان الخُشكار[156] من ألّذ الأطعمة" قلت: فاجعل إذا جميع خبزك الخشكار، فإن فضل ما بينه وبين الحُوّارى[157] في الحُسن والطّيب، لا يقوم بفضل مابين الحمد والذّمّ[158]، لدرجة أنّ فيها من جعل طعام فرحه كلّه فالوذقًا[159]، حتّى نسب للحسن قولا، لما سمع رجلا يعيب الفالوذق، فقال: " لبّاب البُرّ بلُعاب النّحل بخالص السّمن، ما عاب هذا مسلم"[160].

كما يذكر نوعيّة الأطعمة أثناء الجوْلات السّياحيّة أو نهايات الأسبوع، ونقلا عن ما أُخبر به، أنّ شيخا من أهل خراسان كان في غداة كلّ جمعة، يحمل معه منديلا فيه جَردقتان[161] وقطع لحم سيكياج[162] مبَرّد وقطع جبن وزيتونات وصُرّة فيها ملح وأخرى فيها أُشنان[163] وأربع بيضات ليس منها ومعه خِلال، ويمضي وحده حتّى يدخل بعض بساتين الكرخ، ويطلب موْضِعًا تحت شجرة، وسط خُضرة وعلى ماء جارٍ، فإذا وجد ذلك جلس وسط بين يديه المنديل، وأكل من هذا مرّة ومن هذا مرّة[164]، ما يؤكّد ثقافة الأكل أو التّأثر بما في الكتب المترجمة عن الأغذية قد وصلت إلى العامّة، فصارت حيّز التّطبيق في اختيار الأطعمة من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ ذاك الشّيخ كان لا يكتفي بذلك الأكل؛ بل يرمي لقيّم ذلك البستان بدرهم، ليشتري له به أو يعطيه به رُطَبًا، إن كان في زمان الرَّطْب، أو عنبا إن كان في زمان العنب[165].

ولم تقتصر ثقافة اختيار الأطعمة على العامّة فقط، إذ قيل: أنّ مائدة المأمون كان عليها ألوانا من الأطعمة، وكلّما وُضع لون، نظر المأمون إليه، فقال: "هذا يصلح لكذا وهذا نافع لكذا، فمن كان منكم صاحب بلغم ورطوبة، فليجتنب هذا ومن كان صاحب صفراء، فليأكل من هذا، ومن غلبت عليه السّوداء، فليأكل من هذا، ومن أحبّ الزّيادة في لحمه فليأكل من هذا، ومن كان قصده قلّة الغذاء، فليقتصر على هذا"[166]، وهناك مفاضلة عندهم بين أنواع الأطعمة نحو التّمر خاصّة "أعرف هاهنا اجتماعا على مشاكلة، إلاّ في الإبصار بخبز الفاشكار على الحُوّارى والباقِلي[167] على الجوزينج[168]، فإنّي قد هجرت البتّة، إلى مواصلة التّمر"[169].

وربّما كان الزّواج بالسّنديّات أكثر من أثر معرفتهنّ للطّبخ، فللسّند في الطّبخ طبيعة ما أكثر ما ينجبون فيه[170]، وربّما التّفنّن في الطّبخ أكثر كان نتيجة أيضا للأعطيّات، الّتي تُسدى للطّبّاخين على مستوى القصور، فهذا الفضل البرمكي قد وهب لطبّاخه مائة ألف درهم، فعاتبه أبوه في ذلك، فقال له: يا أبتِ، إنّ هذا كان يصحبني في العسر والعيش الخشن، واستمرّمعي في هذا الحال[171]، وعليه فالطّعام والشّراب تطورهما الحضاري، الّذي تعرّضت له حياة القصور في العصر العبّاسي الأوّل كان نتيجة لتأثّرهم بعادات الشّعوب الّتي احتكّوا بها كالفرس والتّرك والرّوم، جعلت العبّاسيّين يتفنّنون في الطّهي ويُسرفون في الانفاق عليه[172].

ذكر ألوانًا مختلفة من الأطعمة منها العصيدة[173] البَستندود[174] والأرز[175]، كما اشتهرت أكلة الثّريدة[176] لقول أحدهم" أعظموا الثّريد، فإنّه لقمة الدّرداء"[177]، كما فضّل بعضهم شراء الرّؤوس يوم السّبت؛ لأنّ القصّابين يذبحون يوم الجمعة، فتكثر الرّؤوس يوم السّبت[178]، كما ظهرت هناك تطوّرات لدى البعض في طريقة الأكل، واستعمال أدوات الأكل حين عاب الدّهّاقون الحسو، وتقزّزوا من التّعرّق، وبهرجوا صاحب التمّشميش، وحين أكلوا بالبارجين وقطعوا بالسّكين[179] ، وكان للأسماك أيضا نصيب في مكان في موائد العراقيّين، فسمك الشّبوط رغم إرتفاع ثمنه، يُشترى ببغداد خاصّة من طرف البصريّين[180]، واشتهر شراب النّارجيل[181]،

وإنْ أُكْثر من شربه، طمس الخُمارعلى عقله حتّى لا يكون بينه وبين المعتوه إلاّ الشّيئ اليسير[182]، ورغم البخل المنتشرفي العراق، نجد من البخلاء مَنْ كان مُحسنا ، فهذا أبوشعيب القلاّل في تقريب مويس له، وأُنسه به وفي إحسانه إليه[183].

ج- بعض أدوات التّسلية: ذكر في كتاب الحيوان خاصّة بعضا من أدوات التّسليّة، الّتي اتّخذها الأفراد في المجتمع العبّاسي منها لعبتي الشّطرنج[184] والنّرد[185]، وهو ماذكره في عثمان الخياط للشّطّار[186] اللّصوص"واجعل لِهواك الحمام وهارش الكلاب[187]، وهو ما يبيّن أنّ هذين الفعلين، كانا من تخصّص لهو العامّة، ثمّ قال: "وعليكم بالنّرد[188]، ودعوا الشّطرنج لأهلها، ولا تلعبوا في النّرد إلاّ بالطّويلتين والودَع[189] رأس مال كبير، وأوّل منافعه الحذق باللّقف "[190].

وعليه فاللّعبتّين مختلف إزاء تحليلهما في المجتمع العبّاسي، لكن بالنّسبة لمفاضلة الشّطّار في اللّعب بينهما لأصحابهما، فالأمر يبدو أنّه سيّاسي بالدّرجة الأولى؛ لأنّ الشّطّار كانوا من المعارضين لأوضاع في الواقع العبّاسي، اقتصاديّة بالدرجة الأولى؛ لأنّ لعبة الشّطرنج لها عدّة فضائل، فهي تُعَلّم الحرب، وتشحذ اللّبّ وتدرّب الإنسان على الفكر وتُعَلّمه شدّة البصيرة[191].

ث. الإقتصاد العباسي، والأزمات الإجتماعيّة:

شهدت الدّولة الإسلاميّة في حكم أسرة بني العباس عدّة تنظيمات إقتصداية، لعلّ أهمّ من تحدّث عنها ما كتبه القاضي أبو يوسف في كتاب "الخراج"، وغيره، ورغم ذلك فيه سجّلت لنا كتب التّاريخ بعض ما كان من أزمات إقتصادية وإجتماعية، ففي عهد الخليفة المعتضد بالله، سكنت الفتن في أيّامه؛ لفرط هيبته، وأسقط المكوس، ونشر العدل، ورفع الظلم عن الرّعية، سميّ "السّفاح الثّاني"؛ لأنّه جدّد مُلك بني العباس، وفي أوّل سنة استُخلف فيها، منع الورّاقين من بيع كتب الفلاسفة، وما شاكلها، ومنع القصاص، والمنجمين من القعود في الطريق، وصلّى بالنّاس صلاة الأضحى، فكبّر في الأولى ستًّا، وفي الثّانية واحدة، ولم تسمع منه الخطبة[192]،

وفي سنة أيضا282هـ/895م عزم الخليفة المعتضد على لعن معاوية على المنابر، فخوّفه عبيد الله الوزير اضطراب العامّة، فلم يلتفت، وكتب كتابا في ذلك، فيه كثيرا من مناقب علي، ومثالب معاوية، فقال له القاضي أبو يوسف: يا أمير المؤمنين، أخاف الفتنة عند سماعه، فقال: إنْ تحركت العامّة ناحية، قد خرجوا عليك، وإذا سمع النّاس هذا من فضائل أهل البيت، كانوا إليهم أميل، فأمسك المعتضد عن ذلك[193] .

وفي سنة 283هـ/896م كتب إلى الآفاق بأن يُوَرث ذوو الأرحام، وأن يُبْطل ديوان المواريث، وكثر الدّعاء للمعتضد، وفي عهد الخليفة المكتفي بالله، ولما بويع له عند موت أبيه كان غائبا بالرّقة، فنهض بأعباء البيعة الوزير، أبو الحسن، القاسم ابن عبيد الله، وكتب له، فوافى بغداد في سابع جمادى الأولى ...ونزل المكتفي بدار الخلافة، وخلع على الوزير سبع خلع، وهدّم المطامير التي اتّخذها أبوه، وصيّرها مساجدا، وأمر بردّ البساتين، والحوانيت التي أخذها أبوه من النّاس؛ ليعملها قصرا إلى أهلها، وسار سيرة جميلة، فأحبّه النّاس، ودعوا له[194] .

وفي سنة301هـ/914م وليّ الوزير علي بن عيسى، فسار بعفّة، وعدل، وقوّى، وأبطل الخمور، وأبطل من المكوس، ما ارتفاعه في العام خمسمائة ألف دينار، وفيها أدخل الحسين الحلاج، مشهورا على جمل إلى بغداد، فصُلب حيًّا، ونودي عليه هذا أحد دعاة القرامطة، فاعرفوه، وأشيع أنّه ادّعى الألوهية، وأنّه يقول: بحلول اللاّهوت في الأشراف، ويكتب إلى أصحابه من النّور الشّعشاني، وفي سنة306هـ/919م فُتح مارستان أمّ المقتدر، وكان مبلغ النّفقة فيه في العام سبعة آلاف دينار، وفيها صار الأمر، والنّهي لحرم الخليفة ولنسائه؛ لركاكته، وآل الأمر إلى أن أمرت أمّ المقتدر بمثل القهرمانة أن تجلس للمظالم، وتنظر في رقاع النّاس كلّ جمعة، فكانت تجلس، وتحضر القضاة والأعيان، وتبرز التّواقيع، وعليها خطّها، وفي سنة308هـ/921م غلت الأسعار ببغداد، وسبغت العامّة؛ لكون "حامد بن العباس" ضمن السّواد، وجدّد المظالم، ووقع النّهب، وركب الجند فيها، وشتّتهم العامّة، ودام القتال أيّاما، وأحرق العامّة الحبس، وفتحوا السّجون، ونهبوا النّاس، ورجموا المزير، واختلفت أحوال الدّولة العباسيّة جدّا[195].

وفي سنة309هـ/922م قُتل الحلاج بافتاء القاضي أبي عمر، والفقهاء، والعلماء أنّه حلال الدّم، وفي سنة311هـ/924م أمر الخليفة المقتدر بردّ المواريث إلى ما صيّرها المعتضد من توريث ذوي الأرحام[196]، وفي سنة317هـ/929م خرج مؤنس الخادم الملّقب ب"المظفر" على المقتدر؛ لكونه بلغه أنّه يريد أن يولّي إمرة الأمراء، والجنود، وجاؤوا إلى دار الخلافة، فهربت خواص المقتدر، وأخرج المقتدر بعد العشاء في 14محرّم من داره، وأمّه، وخالته، وحرمه، ونهب لأمّه 600ألف دينار، وأشهد عليه بالخلع، وأحضر محمّد بن المعتضد، وبايعه مؤنس والأمراء، ولقبوه "القاهر بالله"، وفوضت الوزارة إلى أبي علي بن مقلة، وذلك يوم السبت، وجلس القاهر بالله يوم الأحد، وكتب عنه الوزير إلى البلاد، وعمل الموكب الإثنين، فجاء العسكر يطلبون رزق البيعة، ورزق السنة، ولم يكن مؤنس حاضرا، فارتفعت الأصوات، فقتلوا الحاجب، ومالوا الى دار مؤنس يطلبون المقتدر ليردّوه الى الخلافة[197]، وفي سنة 321هـ/933م أمر الخليفة القاهر بالله بتحريم القيان والخمر، وقبض على المغنين، ونفى المخانيث، وكسّر آلات اللّهو، وأمر ببيع المغنيات من الجواري على أنّهنّ سواذج، وفي سنة 327هـ/939م كتب أبوعلي عمر بن يحي العلوي إلى القرمطي، وكان يحبّه أن يطلق طريق الحاج، ويعطيه عن كلّ جمل خمسة دنانير، فأذن، وحجّ النّاس، وهي أوّل سنة أُخذ فيها المكس من الحجّاج، وفي سنة328هـ/940م غرقت بغداد غرقا عيما، حتّى بلغت زيادة الماء تسعة عشر ذراعا، وغرق النّاس والبهائم، وانهدمت الدّور[198] .

كما نجد شذرات متناثرة بين المصادر عن مختلف الأزمات التي شهدتها أمصار الدّولة العباسيّة، منها ما ارتبط، بأمور الطبيعة، ومنها بأمور الملك، ومنها ما ارتبط بالمعارضة، أهمّها:

في سنة 234هـ/849م في خلافة المتوكل أصاب النّاس ريحًا شديدة، وسمومًا لم يُعهد قبلَها مثلها، فدام ذلك، واتّصل فيها نيفا وخمسين يوما، ابتدأ في اليوم الثّالث من حزيران يوم عرفة إلى آخر يوم من من تموز، فشمل ذلك الكوفة، وبغداد، وواسط، والبصرة، وانحدر منها إلى عبادان، ومن واسط إلى الأهواز، فقتل المارّة، والقوافل، حتّى لم يتخلّص منها أحد، ثمّ رجعت إلى الأهواز، وانحطّت إلى همذان، فركدت عليهم عشرين يوما، فأحرقت الزّرع، ثمّ تقلّعت من همذان، ومرّت كالسّهم إلى الموصل، فخرجت عليهم من برية سنجار، فما مرّت ببشر، ولا دابة، ولا شجرة إلاّ أهلكتها، فاستقرّت بالموصل، فمنعت النّاس من الإنتشار، وعطّلت السّوق عن الباعة، وحالت بين أهل القرى والمدينة؛ لحمل الميرة، والأمتعة، وفي سنة241هـ/856م خرجت ريحا باردة من بلاد التّرك، فانحطّت على سَرخس، وقتلت الخلق؛ لأنّه كان يصيبهم بردّها، فيركمون، ثمّ يُتْلَفون، وتجاوزت سرخس إلى نيسابور[199]، ورجعت من نيسابور، فانحطّت على الرّي، ثمّ تجاوزت إلى همذان، ثمّ إلى حلوان، وتشعّبت من حلوان شعبتين، فشعبة أخذت ذات اليمين إلى سامرّاء، وشعبة أخذت ذات اليسار إلى بغداد، فأصاب النّاس منها سُعال، وزكام شبيه بالصّدام، ثمّ انحدرت من بغداد إلى واسط، ومنها إلى البصرة، ومنها إلى الأهواز، فأصاب أهل قومس رجفة، وخسْف أتيا على عامّة مدينة الإمارة، ثمّ بعدهم أصابتهم نارا انحطّت من الهوى، فأحرقت خلقًا كثيرا[200] .

وفي سنة 258هـ/872م ظهر في الأهواز، والعراق وباء، وكان انتشار ذلك من جانب عسكر مكتوم، فمرّ منها طولا إلى قرقيسيا من كورة الفرات، وعرضا إلى حلوان، وحدودها، فبدأ من صحراء العرب، وتفاقم الأمر فيه حتّى أمرَ السّلطان من بغداد بإحصاء من يدفن كلّ يوم، وكان الدّفن بأتي على مابين خمسمائة إلى ستمائة كلّ يوم، وفي سنة324هـ/936م في أوّلها شملت المجاعة النّاس، وتفاقم الأمر فيها، واقترن بها الموت الذّريع، فمات من أهل مدينة أصبهان اكثر من مائتي ألف إنسان[201] .

وفي سنة330هـ/942م سقطت لجّة في اليوم العشرين من "ماه أبان"، ولم يعهد النّاس في هذا الشّهر قطّ بأصبهان سقوط الثّلج، وفي سنة 332هـ/944م أصبح النّاس يوم النّوروز على الثّلجة اضطرّوا إلى كسحها، ولم يعهد النّاس في زمان الرّبيع مثل ذلك،

وفي سنة330هـ942م اشتدّت المجاعة ببغداد، وتفاقمت، فتشرّد أهلها، وتماوتوا؛ لأنّ الرّجال تفرّقوا في البلدان، وحصل النّساء في البيوت، وكانت المخدرات من الأبكار يخرجنّ إلى الطّرق عشرين عشرين معتمدات بعضهنّ، ويصحنّ: الجوع الجوع"، فإذا سقطت واحدة خررنّ كلّهنّ لوجوهنّ ميتات، وكان ببغداد رجل شوشي مُكْثرا يُقال له: "يحي بن زكريا"، فجمع في داره ألف بِكْر، وأطعمهنّ طول أيّام المجاعة، ثمّ زوجهنّ كلهنّ وجهّزهنّ[202] .

"...فانساق كلّهم على هذا المنهاج إلى أن مضى من مُلك المقتدر ثلاث عشرة سنة، إلاّ أيّاما، وذلك في آخر سنة 308هـ/921م، فعندها بدأت الأحداث، والفتن في دار مملكتهم، فأزالت عن الجند أوائلهم بيوت أموالهم، وكانت مدّة لبث هذه الأحداث في دار مملكتهم خمسا وعشرين سنة، وكان مبد هذا الهرج يوم الجمعة لستّ بقين من ذي القعدة سنة308هـ/921م، وكان سببه تهيج العامّة على السّلطان من أجل مقاطعة "حامد بن العباس" على غلاّت السّواد، حتّى غلب بها الأسعار، وتعذّر على العوام، وعلى أكثر الخواص الوصول إلى الطعام، فلمّا صعد الخطيبان منبري الجانب الشّرْقي، والجانب الغربي رَمَيا بآخر المسجدين، وهجمت العامّة إلى المقصورتين، وكسّروا المنبرين، وأظهروا البراءة من السّلطان، فتوجّه نحوهم الأولياء في الطّرق، ونصّبوا لهم الحرب بقية النّهار يوم الجمعة يوم السّبت، وصدْر نهار يوم الأحد، ثمّ وصفوا الحريق في سوق باب الطّاق، فانهزمت العامّة، وانكشفت الفتنة عن قتلى الجند، والرّعايا سنة311هـ/924م في شهر ربيع الأوّل منها دخلت القرامطة البصرة لستّ بقين منه، فقتلوا أميرها "سبك المفلحي"، واستعرضوا النّاس، وحملوا من أموالها ما وجدوا له ظهرا يُنْقل عليه إلى البحرين، وجرى ببغداد على عمّال السّلطان، وكُتّابه من جهة إبن الفرات وزيره، ومُحسن ابنه بعلّه استبداد الأموال، وكَنْزها في بيت المال من الخبط، والعسْف باستعمال التّعذيب والقتل ما لم يجر قبله في دولة الإسلام على العمال والكتّاب، وخرجت المصادرات فيه عن متقدّم العادات، فوقعت مصادرة حامد بن العباس على ألفي ألف وسبعمائة ألف دينار[203] .

وفي سنة312هـ/925م محرّم عشر بقينّ منه وقع القرمطي بالبادية على قوافل الحجّاج، فأسروا رجال السّلطان، واستعرض الحجّاج، وسبى الحرم، وانتهب الأموال، وأخذ الشّماسيّة، وشُملت بصنيعه المصيبة عامّة بلدان الإسلام، وفي سنة313هـ926م ذي القعدة خرج فيه القرمطي على الحجّاج، فتشرّدوا في البرّ، ومن نجا منهم رجعوا عراة حفاة، فبطل حجّ هذه السّنة، ثمّ دخلت القرامطة الكوفة لتسع بقينّ من ذي القعدة، فقتلوا النّاس، وانتهبوا المال، ثمّ انصرفوا بما فازوا من الأموال[204] .

وفي سنة315هـ/928م في شهر ربيع الأوّل للنصف منه شغب الفرسان على السّلطان، وصاروا إلى باب الخاصّة، فهجموا على الدّار، حتّى بلغوا المصاف، ثمّ خرجوا إلى المصلّى، ودخلوا البلد من الغد، وصاروا إلى باب الطّاق، والرّصافة بالرّعفان، ورفعوا أصواتهم بشتم المقتدر، وحلفوا بالأيمان المغلّة أنّه لا صلاة لهم، كما ليس لهم حجّ؛ لأنّه عطّل حجّهم، كما عطّل ثغرهم، ثمّ صاروا من الغد إلى القصر المعروف بالثُريا، فأحرقوا عامّته، وانتهبوا مافيه من الخزائن، وخرّبوا القبّة، والقصر المعروف بالأُتْرُجة، والكوكب، وسلبوا ما كان فيه من الآلة، والمتاع، والوطس، والطير، ثمّ بكّروا من الغد إلى الحلبة، فأحرقوا أبوابها، وقصدوا القصر المعروف بالحسنى الذي ينزل فيها المقتدر، فبقوا إلى المساء يشغبون، ثمّ بكّروا من الغد إلى القصر المعروف بالبديع، فأخرج السّلطان إليهم بُليق، حتّى وضع لهم العطاء، وسكّتهم بها[205] .

وفي سنة 334هـ/946م اشتدّ الغلاء ببغداد، حتّى أكلوا الجيْف، والرّوث، وملؤوا على الطرق، وأكلت الكلاب لحومهم، وبيع العقّار بأرغفان، ووُجد الصّغار مشوية مع المساكين، واشْتُرى لمعزّ الدّولة كرّ دقيق بعشرين ألف درهم[206]، وفي سنة

362هـ/973م قُتل رجل من أعوان الموالي ببغداد، فبعث الوزير أبوالفضل الشّيرازي من طرح النّار من النّحّاسين إلى السّمّاكين، فاحترق حريق عظيم لم يُرَ مثله، واحترقت أموال، وأناس كثيرون في الدّور، والحمّامات، وهلك الوزير من عامه[207] .

وحاول الخليفة المستضيء بأمر الله، الحسن566هـ/575هـ بعد مبايعته بالخلافة يوم موت أبيه إيجاد حلول لبعض المشاكل ، فنادى برفع المكوس، وردّ المظالم، وأظهر العدل، والكرم، وفرّق مالا عظيما على الهاشميّين، والعلويّين، والعلماء، والمدارس، والرُّبط، وكان دائم البذل للمال، وليس له عنده وقع، ذا حلم، وأناة، ورأفة[208].

وعليه فيظهر مدى سير المجتمع العباسي في سلّم الارتقاء، تتويجا لانتقاله من المجتمع البدوي إلى المدني، مع محاولة المحافظة على العادات والتّقاليد، وكذا الجوهر الشّرعي والعقَديّ، الّذي كان الجاحظ ينبّه إلى ضرورة تنقيته، ممّا قد يشوبه، واللّغة العربيّة لم تكن الوحيدة المعبّرة عن بقاء مجتمع عباسي عربيّ، رغم كثرة العجم فيه؛ بل أيضا مدى التّناسق في الذّوق الجمالي لدى العرب في مسألة التّأثر النّسبي بأزياء الغير؛ لتحقيق المعنى الحقيقي؛ للتّكافل ،والموَدّة الإسلاميّة، وليس بهدف التّشبه بغير المسلمين، وهو تعبير عن مدى الإندماج في الحياة الاجتماعيّة بين من هُم مسلمين من العرب أصلا، وبين من هم مسلمين من أصل أعجمي، رغم كثرة الأزمات الإقتصاديّة، والإجتماعيّة التي كانت تظهر بين الحين والآخر.

---

(1) النّيروز، من أعياد الفرس، اتّخذه جمشيد، أحد ملوك الفرس، ومعنى حم القمر، وشاد، الشّعاع والضّياء، وسبب اتّخاذخم له، أنّ طهومرت، لما هلك، ملك بعده جمشاد، فسميّ اليوم الّذي ملك فيه نوروز، أي اليوم الجديد، ومن الفرس من يزعم أنّه اليوم الّذي خلق الله فيه النور، وبعضهم يزعم أنّه أول الزّمان، ومدّته عندهم ستّة أيام، أوّلها اليوم الأوّل من شهر أفريدون ماه، أول شهور سنتهم، ويسمّون اليوم السّادس النوروز الكبير؛ لأنّ الأكاسرة كانوا يقضون في الأيّام الخمسة حوائج النّاس، ثمّ ينتقلون إلى مجالس أنسهم مع خواصّهم. أنظر، النّويري(شهاب الدّين أحمد بن عبد الوهاب 677هـ/733هـ): نهاية الأرب في فنون الأدب، مطابع كوتساتسوماس وشركاه، القاهرة، مصر، م1، ج1، ص ص185،186؛ وسبب وضع النّوروز، أنّه حينما علموا أنّ الشّمس دورتين إحداهما كلّ خمسة وستين وثلاثمائة يوم، وربع اليوم من اللّيل والنّهار تعود الشّمس إلى برج الحمل في أوّل دقيقة في نفس الوقت، واليوم الذي مضى؛ إذ تنقص المدّة كلّ سنة؛ لتعذُّر العودة إلى هذه الدّقيقة، وحين أدرك جمشيد ذلك اليوم سمّاه النّوروز، واحتفل به، ثمّ اقتفى به الملوك الأخرون، وقصّته كالآتي، أنّه حينما جلس كيومرث الأوّل من ملوك الفرس على العرش أراد أن يضع اسما لأيّام السّنة والشّهر، وينشئ تاريخا لها؛ كي يعرفها النّاس، ورآى أنّه في ذلك اليوم وقت الصبح وصلت الشّمس في أوّل دقيقة إلى برج الحمل، فجمع الموابذة، وأمرهم أن يبدأوا التّاريخ من هذه اللّحظة، فاجتمع الموابذة، ووضعوا التّاريخ. أنظر، النّيسابوري(عمر بن إبراهيم خيام): عمر الخيام عالم الفلك والرّياضيات، وكتابه نوروز نامة ، ص89 .

(2) المهرجان، في السّادس والعشرين من تشرين الأوّل من شهور السّريان وفي السّادس عشر من مهرماه من شهور الفرس وهذا الأوان وسط، ومان الخريف وهو ستّة أيام، اليوم السّادس المهرجان الأكبر، وسبب تسميّتهم له، أنّهم كانوا يسّمون شهورهم بأسماء ملوكهم، وكان لهم ملك، يسّمى مهر، يسير فيهم بالعنف، فمات في نصف شهر مهرماه، فسمّي ذلك اليوم مهرجان، أي نفس مهر ذهبت، ومهر بالفارسيّة حفاظ، وجان الرّوح. أنظر، النّويري: نفس المصدر، ص187.

(3) يعتبر الجاحظ أعياد الفرس لا أصل لها؛ بل هي من إبداع الفرس. أنظر، الجاحظ: :المحاسن والأضداد، قدّم له وبوّبه وشرحه الدكتور علي بوملحم، دار ومكتبة الهلال للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، طبعة2008م، ص314 .

(4) الدّهّاق، زعيم فلاحي العجم، تعريب دهكان، ده خان، أي رئيس القرية. أنظر، شير(السّيدادّي): الألفاظ الفارسيّة المعرّبة، الطّبعة الثّانية1987م،1988م،دار العرب للبستاني، الفجالة، القاهرة، طبع في المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيّين، بيروت،1968م، ص68 .

(5) الجامات، مفردها جام، آنية من الفضّة لفئة معيّنة من أفراد المجتمع، تصفها على الموائد. أنظر، الشّذر(طيبة صالح): ألفاظ الحضارة العبّاسيّة في مؤلّفات الجاحظ، دار قباء للطّباعة والنّشر، القاهرة، مصر، 1998م، ص78.

(6) الخُبيص، نوع من الحلوى، تعمله العرب من التّمر والسّمن، والحضر من الأرز والدّبس، مأخوذ من الخبص، بمعنى الخلط. أنظر، بطرس البستاني: كتاب محيط المحيط، قاموس مطول للّغة العربيّة، مطبعة لبنان، ساحة رياض الصلح، طبع في مطابع تيبو برس، لبنان ، طبعة جديدة1987م، مادّة خبع، ص215.

(7) الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص319 .

(8) الجاحظ أورد هذا لتبيان وجه الاختلاف بين مآل الهدايا الّتي تُمنح للخلفاء عن تلك الّتي تُمنح لملوك الفرس، فعند المسلمين تُوضع في بيت مال المسلمين، بينما عند الفرس، فتُخبأ لأصحابها، لتُردّ إليهم في نوائبهم. أنظر، الجاحظ:التّاج في أخلاق الملوك، تحقيق ونشر دار الفكر، بيروت لصاحبها إبراهيم الزّين1375هـ، دار البحار، بيروت، لبنان لصاحبها أديب عارف الزين،1955م، ص ص253 ،254 .

(9) الهدايا كانت للملك عند الفرس وهو الّذي يعطي لبطانته وخاصّته من هداياه، بينما الهدايا في النّيروز عند احتفال المسلمين به كانت أيضا تُقدّم للوزراء من الرّعيّة، وهذا يختلف عن عادة الفرس، وقد أهدى النّاس إلى خالد هدايا فيها جامات من فضّة وذهب. أنظر، ابن الطّقطقي(محمّد بن علي بن طباطبا): الفخري في الآداب السّلطانية والدّول الإسلاميّة، عني بنشره محمّد توفيق الكتبي، الطّبعة الرّحمانية، ص112.

(10) الجاحظ: التّاج، ص 253 .

(11) والسّنّة في ذلك عندهم أن يهدي الرّجل ما يحبّ من ملكه، إذا كان في الطّبقة العالية، فإن كان يحبّ المسك، أُهدى مسكا، لا غيره وإن كان يحبّ العنبر، أهدى عنبرا، وإن كان صاحب برّه ولبسه، أهدى كسوة وثيابا، وإن كان الرّجل من الشجعان والفرسان، فالسّنّة أن تهدي فرسا، أو رمكة، أو سيفا ...، أنظر، الجاحظ: نفس المصدر، ص251ومابعدها.

(12) المتوكّل، الخليفة جعفرأبوالفضل بن المعتصم بن الرّشيد، أمّه اسمها شجاع، ولد سنة205هـ، أو207هـ/821م/823م، وبقي حكمه إلى سنة 247هـ/861م. أنظر، السّيوطي (الإمّام جلال الدّين):تاريخ الخلفاء، خرّج أحاديثه: أحمد بن شعبان بن أحمد، دار البيان الحديثة، القاهرة، الطّبعة الأولى 1426هـ /2005م، ص260 .

(13) كان الخليفة المهدي أيضا يقبل هدايا النّيروز، فقد أهدى إليه الشّاعر أبو العتّاهية في يوم نيروز، أو مِهرجان برنية صينية، فيها ثوب ممّسك، فيه سطران، عليه بالغالب، وقد أمر له بملء البرنية مالا. أنظر، المسعودي(أبو الحسين علي بن الحسين بن علي ت346هـ): مروج الذّهب ومعادن الجوهر، تقديم الدّكتور يوسف البقاعي، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ج3، ص 230 .

(14) أبوالهيثم خالد بن خداش بن عجلان، مولى آل المهلب بن أبي صفرة، من أهل البصرة، سكن بغداد، وحدّث بها عن الإمام مالك بن أنس والمغيرة بن عبد الرحمن، مات خالد في سنة 223هـ/838م في جمادي الآخرة. أنظر، ابن خلّكان(أبو العبّاس شمس الدين أحمد بن محمّد بن أبي بكر 608هـ/681هـ): وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان، حقّقه الدكتور إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، 1414هـ/1994م، ج2، ص ص231، 232.

(15) الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص322. تظهر الهديّة غالية الثّمن، وذاك لا يعني أنّها من الخاصّة، لأنّ المجتمع العبّاسي فيه طبقة العامّة تحوي التّجار، فربّما كانت من أحدهم كما ذكر الأبشيهي أنّ الخليفة المتوكّل كان يلبس أيام الورد الثّياب المورّدة، ويفرش الورد في مجلسه، ويطيّب جميع آلاته بالورد، بينما كانت ملوك الفرس تأمر برفع الطّيب بأيام الورد. أنظر، الأبشيهي(شهاب الدّين محمّد بن أحمد أبو الفتح): المستطرف في كل فنّ مظرف، شرحه ووضع هوامشه، الدكتور مفيد محمّد قميحة، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطّبعة الثانية،1423هـ/2002م، ج1، ص292.

(16) قال محمّد بن المثنّى:انصرفت مع بشر بن الحارث في يوم أضحى، فلقيّ خالد بن خداش، فسلّم عليه، فقصّر بشر في السّلام، فقال خالد: بيني وبينك مودّة أكثر من ستّين سنة، فما تغيرتُ عليك، فماهذا التّغيُر؟ قال: ها هاهنا تغير، ولا تقصير، ولكن هذا يوم تُستحبّ فيه الهدايا، وما عندي من عرض الدّنيا شيئ أُهدي لك، وقد روي في الحديث أنّ المسلمين إذا التقيا، كان أكثرهما ثوابا أبَشّهما بصاحبه، فتركتك لتكون أفضل ثوابا مني. أنظر، ابن خلكان: مصدرسابق، ص232.

(17) إذا رفع للملك أنّ له في الدّيوان نشابة، أو درهما، أو أترجة أو تفاحة، أمر الملك أن تؤخذ الأترجة، فتملأ دنانير منظومة ويوجّه بها إليه، وكان لا يعطي صاحب التّفاحة، إلا كما يعطي صاحب الأترجة، وأمّا صاحب النشابة، فكانت تخرج نشابتة من الخزانة وعليها اسمه، فتنصب، ويوضع بإزائها من كسوة الملك ومن سائر الكساء، فإذا ارتفعت حتّى تُوازي نصل النشّابة، دُعي صاحبها، فدُفعت إليه تلك الكسوة. أنظر، الجاحظ: التّاج، ص255.

(18) نفسه.

(19) من أوجه الاحتفال بأعياد الفرس، أنّ الوافدين على باب خالد بن برمك كانوا قبل ذلك يسّمون سؤّالا، فقال خالد: أيّ أستقبح هذا الإسم لمثل هؤلاء وفيهم الأشراف والأكابر، فسمّاهم الزوّار. أنظر، ابن الطّقطقي: مصدر سابق، ص111.

(20) الجاحظ: التّاج، ص268.

(21) الموبذ، فقيه الفرس وحاكم المجوس، فارسيته موبذ، وجمعه موبذان. أنظر، السّيدأدّى شير:مرجع سابق، ص149.

(22) الجاحظ: مصدر سابق، ص268.

(23) النّويري: مصدر سابق، م1، ج1، ص186.

(24) المأمون، الخليفة عبد الله أبو العبّاس بن الرّشيد، ولد عام 170هـ/787م في منتصف ربيع الأوّل ليلة موت الخليفة الهادي أمّه اسمها مراجل، حكم من198هـ/814م-218هـ/833م، كان فقيه النّفس. أنظر، السيوطي:مصدرسابق، ص236.

(25) النّظر في المظالم قديم، كان الفرس يرون ذلك من قواعد الملك وقوانين العدل، وكانوا ينتصبون لذلك بأنفسهم في أيّام معلومة، لا يُمنع عنهم من يقصدهم فيها من ذوي الحاجات. أنظر، النّويري:مصدر سابق، م3، ج6، ص266.

(26) ابن طيفور(فضل أحمد بن أبي طاهر ت280هـ): كتاب بغداد(المستوعب لفترة خلافة المأمون)، دار الجنان، ش.م.م، بيروت، لبنان، ص36.

(27) الجاحظ: التّاج، ص253.

(28) عن ابن المقفّع أنّه من عادتهم فيه أن يأتي الملك من اللّيل رجل جميل الوجه، فيقف على البّاب حتّى يصبح، فإذا دخل عيه من غير استئذان، فإذا رآه الملك، يقول له: من أنت؟، ومن أين أقبلت؟ وأين تريد؟ وما اسمك؟ ولأي شيئ وردت؟ وما معك؟ فيقول: أنا المنصور واسمي المبارك، ومن قبل الله أقبلت والملك السّعيد

أردت وبالهناء والسّلامة وردت ومعي السنة الجديدة، ثمّ يجلس، ويدخل بعده رجل معه يحمل طبق من فضّة وفيه حنطة وشعير وجلبان وحمص وسمسم وأرز من كل واحدة سبع سنابل وتسع حبّات وقطعة سكّر ودينار ودرهم جديدان، فيضع الطّبق بين يدي الملك، ثمّ يدخل عليه الهدايا، ويكون أول من يدخل عليه وزيره....، ثمّ يقدّم للملك رغيف مصنوع من تلك الحبوب، فيأكل منه، ويطعم من حضره، ويقول: هذا يوم جديد من شهر جديد، من عام جديد، من زمان جديد. أنظر، النّويري: مصدر سابق، ص186.

(29) محمّد بن سعيد بن سالم القحطاني: الولاء والبراء في الإسلام، تقديم فضيلة الشّيخ عبد الرزّاق عفيفي، دار طيبة، الريّاض، السّعوديّة، الطّبعة الأولى، رسالة ماجستير، ص321- 330.

(30) في النّيروز أحوالا ليست في المهرجان، فمنها استقبال السنة وافتتاح الخراج وتولية العمّال والاستبدال وضرب الدّراهم والدّنانير وتذكية بيوت النّيران وصبّ الماء وتقريب القربان وإشادة البنيّان، ومن حقّ الملك أن يهدي إليه الخاصّة والحامّة. أنظر، الجاحظ:التّاج، ص ص250،251.

(31) الجاحظ: رسائل الجاحظ(الرّسائل الكلاميّة)كشّاف آثار الجاحظ، قدّم لها وبوّبها الدّكتور علي بوملحم، دار ومكتبة الهلال ،دار البحار، بيروت، لبنان، طبعة أخيرة،2004م، ص ص80،81.

(32) الزّيّ:مأخوذ من زيّ، وهو الحيوة والهيئة، مشتق من زيستن؛ أي عاش، وعن زيب، الزّينة .أنظر، السيّد أدّى شير: الألفاظ الفارسيّة المعربّة، ص84. الزّيّ، هو الهيئة، وعند المولّدين هيئة الملابس، والعامّة تفتح الزّاي، وتطلقه على ماكان دارجا بين النّاس من العوائد والملابس، ويقولون: فلان غريب الزّيّ، أي غير جار على مألوف النّاس. أنظر، بطرس البستاني: محيط المحيط، مادة زيّ، ص388.

(33) القحطاني: مرجع سابق، ص320.

(34) أمّ جعفر، فاطمة بنت محمّد بن الحسين بن قحطبة، أرضعت الرّشيد مع جعفر، فكان يشاورها. أنظر، ابن عبد ربّه الأندلسي(أبو محمّد أحمد بن محمّد): العقد الفريد، شرحه وصحّحه وعنون موضوعاته ورتّب فهارسه أحمد أمين، أحمد الزّين، إبراهيم الأبياري، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر، القاهرة، مصر، 1384هـ/1965م، ج5، ص11.

(35) الجمّازات، مفردها جمّازة، نوع من جبّة من صوف ضيّقة الكُمّين، بمعنى المركب السّريع، فلها معنيان ذكرها الجاحظ في مجال الركوب. أنظر، طيبة النّشر:مرجع سابق، ص63.

(36) الجاحظ: الحيوان، شرح وتعليق د/ يحي الشّامّي، دار ومكتبة الهلال للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، ج1، ص55.

(37) جعفر بن يحي البرمكي، أبو الفضل جعفر بن بَرمك بن خالد بن جاماس بن يشتاسف البرمكي، وزير الخليفة هارون فصيحا، فطنا، بليغا، كان أبوه، قد ضمّه إلى القاضي أبي يوسف الحنفي، حتّى علّمه الفقه، نكبه الخليفة مع أسرته. أنظر، ابن خلكان: مصدر سابق، ج1، ص328 وما بعدها.

(38) الجِرْبان، جيب القميص، يذكره في رسائله، من أجزاء الثّياب التّكّة. أنظر: طيبة النّشر:مرجع سابق، ص64.

(39) الجاحظ:البيان والتّبيّين، دار إحياء التّراث العربي للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، ط1430،1هـ/2009م، ج3، ص 136.

(40) بشار بن برد، طُخارستاني، من سبي المهلب بن أبي صفرة وهي ناحية، مشتملة على بلدان على نهر جيحون، كنيته أبو معاذ، لقبه المرعث، عقيلي بالولاء، نسبة إلى عقيل بن كعب وهي قبيلة، وقيل: أنّه ولد على رقّ، أعتقته إمراة عقيلية، وولد أكمه، جاحظ الحدقتّين، قد تغشّاها لحم أحمر، نشأ بالبصرة، ثمّ قدم بغداد، ومدح الخليفة المهدي. أنظر، البغدادي(عبد القادر بن عمر1030هـ/1093م):خزانة الأدب ولبّ لسان العرب، تحقيق وشرح عبد السّلام محمّد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، الطّبعة الرّابعة 1418هـ/1997م، م3، ص230.

(41) الجاحظ: مصدر سابق، ص ص45،46.

(42) الجاحظ:التّاج، ص ص260،261.

(43) أردشير بن هرمز أخ سابور، وملكه أربع سنين. أنظر، ابن قتيبة الدّينوري(أبومحمّد عبد الله بن مسلم 213هـ-828م/276هـ-889م) : المعارف، حققه وقدّم له الدكتور ثروت عكاشة، الطّبعة الثّانية منقحة، دار المعارف، ص659.

(44) أنوشروان، أشهر ملوك الفرس، إبن قباذ بن فيروز، في أيّامه ولد النّبي صلّى الله عليه وسلّم، وكان ملكا محبّبا للرّعايا، وبنى المباني المشهورة منها الصور العظيم على جبل الفتح. أنظر، البغدادي:مصدر سابق، م3، ص285.

(45) النّويري: مصدر سابق، م1، ج1، ص189. من سنّة ملوك الفرس، أنّ الأمم الماضية من الملوك، لم يكن شيئ أحبّ إليهم من أن يفعلوا شيئا، تعجز عنه الرّعيّة، أو يتزيّوا بزيّ ينهون الرّعيّة عن مثله، فأردشير، كان إذا وضع التّاج على رأسه لم يضع أحد في المملكة على رأسه قضيب ريحان متشبّها به، وكان إذا ركب في لبسة، لم يرعلى أحد مثلها، وإذا تختّم بخاتم فحرام على أهل المملكة، أن يتختّموا بمثل ذلك الفصّ. أنظر، الجاحظ:التّاج، ص98.

(46) أبومسلم الخراساني، أبومسلم عبد الرحمن بن مسلم وقيل: عثمان الخراساني، وقيل: إبراهيم بن عثمان بن يسار بن شذوس بن جودرن، من ولد يزر بن عثمان البختكان الفارسي،كان قتله لخمس بقين من شعبان سنة137هـ/755م وكان قتله برومية المدائن بالقرب من بغداد، أنظر، إبن خلكان: مصدر سابق،ج3، ص146ومابعدها.

(47) عبد الله بن طاهر، أبو العبّاس عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن رُزيق بن ماهان الخزاعي، كان الخليفة المأمون كثير الاعتماد عليه، وكان واليًا على الدّينور، أمره حارب الخوارج في سنة213هـ/828م، توفّي بمرو في ربيع الأوّل سنة 218هـ/833م، وقيل: ثلاثين. أنظر، ابن خلكان: نفس المصدر، ص ص83، 84.

(48) الجاحظ: التاج، ص ص256، 255.

(49) الجاحظ: البيان والتّبيين، ج3، ص37.

(50) الجاحظ: نفس المصدر، ص38.

(51) الجاحظ: نفس المصدر، ص45.الجاحظ لا يجعل من العمامة مجرد زيّ على ما يبدو، هي من التّقاليد.

(52) العمّاني الراجز، من مخضرمي الدّولتين الأمويّة والعبّاسيّة، عاش مائة وثلاثين عاما. أنظر، البغدادي:خزانة الأدب، م10، ص240.

(53) الجاحظ: المصدر السابق، ج1، ص44.

(54) ابن قيّم الجوزية(الشّيخ شمس الدّين أبي عبد الله محمّد بن أبي بكر691هـ/751هـ): أحكام أهل الذّمّة، حققه وعلّق على حواشيه الدكتور صبحي الصّالح، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطّبعة2، 1401هـ/1981م، ج2، ص ص739،738.

(55) اللّبود، نسبة إلى اللّبّد، وهو نوع من الصّوف.أنظر، طيبة النّشر: مرجع سابق، ص62.

(56) الجاحظ: رسائل الجاحظ(الرّسائل السّياسيّة)، قدّم لها وبوّبها الدّكتور علي بوملحم، دار ومكتبة الهلال للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، الطّبعة الأخيرة2004م، ص 481.

(57) الجاحظ: البيان والتّبيّين، ج3، ص47.

(58) ابن كثيرالقرشي الدّمشقي(الإمام الحافظ عماد الدّين أبي الفدا ت 701هـ/774م): البداية والنّهايّة، راجعه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه محمّد تامر، شريف محمّد، محمّد عبد العظيم، محمّد سعيد محمّد، دار الوّعي للنّشر والطّبع والتّوزيع، الجزائر، ج5، ص488. في 153هـ/ 770م، ألزم الخليفة المنصور الرّعيّة لبس القلانس الدّنيّة، مشبّهة بالدن في طول شبرين، تُعمل من ورق، وتُغشى بالسّواد. أنظر، الذّهبي(الإمام شمس الدّين أبي عبد الله محمّد بن أحمد بن عثمان 673هـ/748هـ):دول الإسلام، حققّه وعلّق عليه حسن إسماعيل مروة، قرأه وقدّم له محمود الأرناؤوط، دار صادر، بيروت، الطّبعة الأولى1999م، ج1، ص142.

(59) الدّواداري(أبوبكر بن عبدالله بن أيبك):كنز الدّرروجامع الغرَر(الدرّة السَنيّة في أخبار الدّولة العبّاسيّة)، تحقيق دورتياكرافولسكي، بيروت، لبنان، 1413هـ/1992م، ص ص22، 23.

(60) المعتصم، الخليفة أبو إسحاق محمّد بن الرّشيد، ولد عام 178هـ/794م، أمّه ماردة، يقال له: المثمّن، حكم من 218هـ/227هـ-739م/748م بعد المأمون. أنظر، السّيوطي: مصدر سابق، ص ص254،253.

(61) المسعودي: مصدر سابق، ج4، ص524.

(62) الجاحظ: التّاج، ص263.

(63) البازيكند، هو رداء يوضع على الكتف . أنظر، طيبة النّشر:مرجع سابق، ص61.

(64) الجاحظ: البيان والتّبيين، ج3، ص45.

(65) نفسه.

(66) الوشيّ، نقش الثّوب ويكون من كلّ لون. أنظر، الشّيرازي(العلامة مجد الدّين محمّد بن يعقوب الفيروزابادي 729هـ/817م): القاموس المحيط وبهامشه تعليقات وشروح، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، نسخة مصورة من الطّبعة الثّالثة للمطبعة الأميرية،1400هـ/1980م، مادّة وعاه، ج4، ص392.

(67) المقطّعات، تعني الثّياب، تشبه الجباب، وتُصنع من الخزّ، أو أنّها برود عليها وشيّ مُقطّع، وهذا ماجعلهم، يسّمونها المقطعات . أنظر، طيبة النّشر:مرجع سابق، ص61.

(68) الجاحظ: البيان، ج3، ص45.

(69) الجاثليق:رتبة دينيّة مسيحيّة، رئيس النّصارى. أنظر، طيبة صالح الشّذر: مرجع سابق، ص209.

(70) الجاحظ: البيان، ج3، ص36.

(71) كان يتقنّع العبّاس بن محمّد وعبد الملك بن صالح والعبّاس بن موسى وأشباههم وسليمان بن أبي جعفر وعيسى بن جعفر وإسحاق بن عيسى ومحمّد بن سليمان، ثمّ الفضل بن الرّبيع والسّندي. أنظر، الجاحظ: نفس المصدر، ص46.

(72) الجاحظ: نفس المصدر، ص47.

(73) الجاحظ: نفس المصدر، ص40.

(74) نفسه.

(75) أهدى أبو العتّاهيّة إلى أمير المؤمنين عصا نبع وعصا شريان وعصا أبنوس وعصا أخرى كريمة العيدان شريفة الأغصان. أنظر، الجاحظ: نفس المصدر، ص48.

(76) نفسه.

(77) يذكر الجاحظ موضع اختلاف عند المسلمين حول لباس النّعال والتّشبّه بالمجوس من جهة، ومن أخرى يدخلها توضيح البخل، كون المجوسي لا يستحلّ في دينه المشركة، فأنت تجده لابسا نعلا سنديّة. أنظر، الجاحظ: البخلاء، وضع حواشيه محمّد عبد الكريم النمري، دارالكتاب الحديث، القاهرة، الكويت، الجزائر، الطّبعة الثّالثة 1426هـ / 2005م، ص68.

(78) الجاحظ: البيان والتّبيّين، ج3، ص42. يذكر ابن قيّم الجوزيّة أنّ أهل الذّمّة يمنعون من التلّحي ومن لباس النّعال والنّعلان هما من زيّ العرب . أنظر، ابن قيّم الجوزيّة: مصدر سابق، ج2، ص744-755.

(79) الجاحظ: مصدر سابق، ص42.

(80) الجاحظ: نفس المصدر، ص43.

(81) الطّيلسان، كساء يختصّ به المشايخ والعلماء. أنظر، طيبة النّشر: مرجع سابق، ص61. كساء مدوّرأخضر، لا أسفل له، لحمته، أو سداه من صوف، يلبسه الخواص من العلماء والمشايخ، من لباس العجم، معرّب عن تالسان، وفُسِر بكساء، يلقى على الكتف، مركّب من طره، وهو طرف العمامة ومن سان وهي أداة التّشبيه. أنظر، السيّدأدّى شير: مرجع سابق، ص114. أنظر، بطرس البستاني: مرجع سابق، مادّة طلس، ص554.

(82) الجاحظ: كتاب البُرصان والعُرجان والحُولان، تحقيق وشرح عبد السّلام محمّد هارون، دار الجيل، بيروت، الطّبعة الأولى، 1410هـ/1990م، ص ص169،170.

(83) السّفاح خلّف تسع جباب، وأربعة أقمصة، وخمسة سراويل، وأربعة طيالسة، وثلاثة مطارف خزّ. أنظر، ابن الأثير(الإمام العلامة أبو الحسن علي أبي الكريم بن عبد الواحد الشّيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملّقب بعزالدّين ت 630هـ):الكامل في التّاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، طبعة ثالثة1400هـ/1980م، ج4، ص99.

(84) الجلباب، القميص والثّوب الواسع للمرأة دون الملحفة. أنظر، بطرس البستاني: مرجع سابق، مادّة جلح، ص115.

(85) الجاحظ: رسائل الجاحظ(الرّسائل الأدبيّة)، قدّم لها وبوّبها الدّكتور علي بوملحم، دار ومكتبة الهلال للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، الطّبعة الأخيرة2004م، ص69.

(86) مذارية، نسبة إلى بلد بين واسط والبصرة، وهي قصبة ميسان، تبعد عن البصرة بأربعة أيّام. أنظر، ياقوت الحموي(الإمام شهاب الدّين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرّومي البغدادي ت626هـ: معجم البلدان، تصحيح وترتيب وضعه وكتابة المستدرك عليه محمّد أمين الخانجي الكتبي بقراءته على الأستاذ الأديب النّحوي الرّاوية أحمد بن الأمين الشّنقيطي، مطبعة السّعادة، مصر، الطّبعة الأولى،1324هـ/1906م،ج5، مادّة مذار، ص88.

(87) الجاحظ: البخلاء، ص69.

(88) إبراهيم سلمان الكروي: طبقات مجتمع بغداد في العصر العبّاسي الأوّل، نشر مؤسسة المحيط الإعلامية، الكويت، 1403هـ/1983م، ص36.

(89) الجاحظ: البخلاء، ص69.

(90) الجاحظ: الحيوان، ج2، ص254.

(91) نفسه.

(92) الجاحظ: الرّسائل السّياسيّة، ص111.

(93) الحرّاقات، مواضع القلاّئين والفحّامين. أنظر، الأزهري(أبومنصور محمّد بن أحمد282هـ/370هـ):معجم تهذيب اللّغة مرتب ترتيبا ألفبائيا وفق الحروف الأصول، تحقيق د/رياض زكي قاسم، دار المعرفة للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى1422هـ/2001م، م1، مادّة حرق، ص791.

(94) الدّادي، المولع باللّهو، الّذي لا يكاد يبرحه. أنظر، الأزهري: نفس المصدر، م2، مادّة دار، ص1129.

(95) الدّبّابات، جمع دبّابة، وهي آلة تتّخذ في الحروب، يدخل فيها الرجال، ثمّ تدفع في أصل حصن، فينقبونه وهم في جوف الدّبّابة. أنظر، الأزهري: نفس المصدر، مادة دبّ، ديب، ص1139.

(96) الجاحظ:الحيوان، ج1، ص54.

(97) ابن الجوزي(أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمّد ت597هـ): المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دراسة وتحقيق محمّد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، راجعه وصحّحه نعيم زوزور، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، 1412هـ / 1992م، ج8، ص199.

(98) معن خليل عمر: أصالة وعمق التّحليل الاجتماعي عند الجاحظ، 776هـ/869م، المناهل تصدرها وزارة الدّولة المكلّفة بالشؤون الثّقافية، الرباط، المغرب، س7، العدد17، 1400هـ/1980م، ص ص186، 187.

(99) الجاحظ:مصدر سابق، ص79.

(100) نفسه.

(101) ابن قتيبة:الإمامة والسّياسة، تحقيق الأستاذ علي شيري، دار الأضواء للطباعة والنشر، بيروت، لبنانن ط1410،1هـ-1999م، ج1، ص ص212،213.

(102) النّجم(وديعة طه): الجاحظ والحاضرة العبّاسيّة، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1965/7/3م، ص53.

(103) الصّيرفي، المحتال، المتقلّب في أموره، المجرّب لها. أنظر، الأزهري: مصدر سابق، م2، مادّة صرف، ص2007.

(104) الجاحظ: الرّسائل الأدبيّة، ص209.

(105) الجاحظ: البغال، قدّم له وبوّبه وشرحه الدّكتور علي بوملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّالثة،1429هـ/2008م، ص90.

(106) الجاحظ: البيان والتّبيّين، ج2، ص207.

(107) الجاحظ: الحيوان، ج2، ص254.

(108) الجاحظ: الرّسائل السّياسيّة، ص499.

(109) نفسه. وقيل: لا تستشيروا الحاكة، فإنّ الله تعالى سلب عقولهم، ونزع البركة من كسبهم. أنظر، الأبشيهي: مصدر سابق، ج1، ص328.

(110) ابن كثير: مصدر سابق، ص607.

(111) الجاحظ: مصدر سابق، ص111.

(112) الحضرمي(أبوبكر محمّد بن الحسن ت489هـ): كتاب السيّاسة أو الإشارة في تدبير الإمارة، ويليه النّهج المسلوك في سياسة الملوك، ونهاية الرتبة في طلب الحسبة وكلاهما للشّيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر الشّيزري ت590هـ ويليه كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لمحمّد بن بسّام المحتسب، تحقيق محمّد حسن إسماعيل وأحمد فريد المزيدي، منشورات دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، 1424هـ/2003م، ص213-352.

(113) واصل بن عطاء، هو أبو حذيفة، المعروف بالغزّال، مولى بني ضبّة، وقيل:مولى بني مخزوم، أحد الأئمة البلغاء المتكلّين في علم الكلام، ولد عام80هـ/699م وتوفّي عام121هـ/739م، من أهل المدينة. أنظر، الكتبي:فوات الوفيات، ج2، ص624.الجاحظ:البيان والتّبيّين، ج1، ص ص28،27.

(114) الجاحظ:نفس المصدر، ص108.

(115) الجاحظ: نفس المصدر، ص109.

(116) الجاحظ: الحيوان، ج1، ص254.

(117) الجاحظ: البيان والتبيين، ج2، ص272.

(118) أحمد بن أبي دؤادة247هـ/251هـ -861م/865م، القاضي أبوعبد الله أحمد بن فرج بن حريزالإيّادي البصري البغدادي الجهمي، كان داعيّة إلى خلق القرآن، له كرم وسخاء وأدب، ولد عام 160هـ/777م بالبصرة، شاعرا مجيدا، مات عام 240هـ/855م، دفن في داره ببغداد. أنظر، الذّهبي: سيّرأعلام النّبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرّسالة، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّالثة 1405هـ/1985م، ج11، ص ص170،169.

(119) ابن الجوزي: مصدر سابق، ج11، ص145.

(120) الجاحظ: التّاج، ص67.

(121) النّفاذ، الجواز والخلوص من الشّيئ، ونقول: نفذت، أي جُزت، قال: والطّريق النّافذ، الّذي يسلك، وليس بمسدود بين خاصّة دون سلوك العامّة إيّاه. أنظر، الأزهري: مصدر سابق، م4، مادّة نفذ، ص3627.

(122) الجاحظ: الحيوان، ج1، ص67.

(123) الجاحظ: المحاسن والأضداد، ص151.

(124) الجاحظ: الرّسائل السّياسيّة، ص510.

(125) الجاحظ: الحيوان، ج5، ص 306.

(126) ابن الجوزي: مصدر سابق، ج11، ص145.

(127) الواثق، الخليفة أبو القاسم بن المعتصم بن الرّشيد، أمّه قراطيس، ولد عام196هـ/812م، ولي العهد بعهد من أبيه، وبويع له في التّاسع من ربيع الأوّل عام227هـ/857م إلى232هـ/862م. أنظر، السّيوطي:مصدر سابق، ص257.

(128) الوكيل، الحافظ، وقيل: الكفيل. أنظر، الأزهري: مصدر سابق، م4، مادّة وكل، تكل، ص39544.

(129) الجاحظ: الرّسائل الأدبيّة، ص228.

(130) الجاحظ: نفس المصدر، ص230. الوكالة لم تكن خاصّة بالاقطاعيّات؛ بل تعدّت إلى التّجارة، وشجّعتها الخلافة العبّاسيّة دون قصد، إذ أقطع الخليفة المنصورمواليه وقوّاده القطائع داخل مدينة بغداد و آخرين على أبوابها، والجند على أرباضها، وأهل بيته الأطراف، وابنه المهدي وجماعة من أهل بيته ومواليه وقوّاده. أنظر، ابن واضح الأخباري (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب ت296هـ):تاريخ اليّعقوبي، وطبعة الغري، النّجف، طبعة1358هـ، ج3، ص109.

(131) نصر بن سيّاربن رافع، من بني جندع بن ليث، من كنانة، رهط عبيد بن عمير بن قتادة الليثي، يكنّى أبا اللّيث، ولاّه هشام بن عبد الملك خراسان، فوقعت الفتنّة، فخرج إلى العراق، فمات في الطّريق. أنظر، ابن قتيبة: المعارف، ص 409.

(132) القرطبي (الإمام أبوعمر يوسف بن عبد الله بن محمّد بن عبد البرّ النّمري 368هـ/463هـ): بهجة المجالس وأنس المجالس، تحقيق محمّد مرسي الخولي، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطّبعة2، 1402هـ/1982م، م2، ص112.

(133) القرطبي: نفس المصدر، م2، ص112.

(134) الجاحظ: الرّسائل الأدبيّة، ص230. لوكان كل الوكلاء ليسوا في المستوى الأخلاقي، لما رأينا ثقة الحسن فيهم، ففي عرس ابنته بوران، أنفق على الخليفة، وجميع من معه من أهل بيته، وكتّابه وأصحابه، ومن حوى عسكره، ونثر عليهم الضّياع والقرى والجواري والوصفاء والخيل والدواب فكانت تُكتب أسماء هذه الأنواع في رقاع، وتجعل في بنادق المسك، وتُنثر، فكلّما أخذ إنسان بُندقه، قبضها من الوكلاء. أنظر، ابن واضح: مصدر سابق، ص ص187،186.

(135) الجاحظ: الرّسائل الأدبيّة، ص231.

(136) سعيد بن المسيّب بن حزَن بن أبي وهب، من بني عمران بن مخزوم، أمّه سُلّمية، يكنّى أبا محمّد، أبوه الحزن تاجر بالزّيت، أفقه أهل الحجاز، ضربه أيضا هشام بن إسماعيل ستّين سوطا، وطاف به في المدينة في تبّان، ولد سعيد لسنتين مضتا من خلافة عمر بن الخطاب، ووفاته بالمدينة94هـ/713م. أنظر، ابن قتيبة: المعارف، ص ص437، 438.

(137) الجاحظ: مصدر سابق، ص242.

(138) الجاحظ: البخلاء، ص58.

(139) الجاحظ: مصدر سابق، ص115.

(140) الجاحظ: نفس المصدر، ص240.

(141) الجاحظ: الرّسائل الأدبيّة، ص240.

(142) الجاحظ: الرّسائل السّياسيّة، ص118.

(143) نفسه.

(144) الجاحظ: نفس المصدر، ص119.

(145) نفسه.

(146) الجاحظ: البخلاء، ص69.

(147) الأهواز، أصله أحواز، جمع حَوَز، أبدلته الفرس، اسمها في أيّام الفرس خوزستان، وقيل: اسمها هرمز شهر، وهي كورة عظيمة، تجمع سبع كور، تقع بين البصرة وفارس. أنظر، البغدادي: مراصد الإطّلاع ، ج1، ص135.

(148) الجاحظ: الرّسائل السّياسيّة، ص120.

(149) الجُورَاشن، نوع من الحلويات يُصنع من السكر، وعند الأطباء نوع من الأدوية، تعريب كُوارش، ومعناه الهِضام. أنظر، السّيدأدّى شير: مرجع سابق، ص41.

(150) الجاحظ: البخلاء، ص26.

(151) التكدّية، الشحاذة. أنظر، التّنوخي(القاضي أبي علي المحسن بن عليّ): نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق عبّود الشّالجي، دار صادر، بيروت، لبنان، ج1، هامش رقم4، ص94.

(152) الزّكوري، هو خبز الصدقة، أنظر، الجاحظ: مصدر سابق، ص36.

(153) الجاحظ: نفس المصدر، ص32.

(154) المرّي، نسبة إلى المرْي، وهو مسح النّاقة لتدّر، وقيل: النّاقة تحلب على غير ولد، ولا تكون مَرِيًا ومعها ولدها. أنظر، الأزهري: مصدر سابق، م4، مادّة مَرَيَ، ص3383.

(155) الجاحظ: البخلاء، ص64 .

(156) الخُشكار، الدقيق غير منزوع النّخالة. أنظر، الحضرمي(أبوبكر محمّد بن الحسن ت489هـ): كتاب السّياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة، هامش رقم6، ص224؛ وقيل: خُشكر، هو ماخشن من الدّقيق وهو كلمة فارسيّة، والعامّة تقول: خِشكار. أنظر، بطرس البستاني: مرجع سابق، مادّة خشق، ص234.

(157) الحُوّارى، الدّقيق الأبيض وكلّ لبّاب الدّقيق. أنظر، الشّيرازي(العلامّة مجد الدّين، محمّد بن يعقوب الفيروزابادي 729هـ/817م): القاموس المحيط وبهامشه تعليقات وشروح، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، نسخة مصورة من الطّبعة الثّالثة للمطبعة الأميرية،1301هـ، مادّة حور، ج4، ص15.

(158) الجاحظ: مصدر سابق، ص63 .

(159) فالوذق، حلواء تعمل من الدّقيق والماء والعسل عند العرب، وفيها لغات الفالوذج الفالودج الفالوذق. أنظر. بطرس البستاني: مرجع سابق، مادّة فلج، ص700. السّيدأدّى شير: مرجع سابق، ص ص121 ، 122.

(160) الجاحظ: البيان والتّبيّين، ج1، ص10 .

(161) جَرْدَق، الرّغيف، معرّب كَرْدة بالفارسيّة، جمع جرادق. أنظر، بطرس البستاني: مرجع سابق، مادّة جرر، ص 101.

(162) سيكياج، فارسية تعني، مرق يُصنع من اللّحم والخلّ. أنظر، التّنوخي: نشوار المحاضرة، هامش رقم3، ص180 .

(163) أشنان، شيئ يلتف على شجر البلوط، كأنّه مقشور من عِرق، وهو عطر أبيض، فارسيّته أُشنة وعربيّته شبيه العجوز ومِسواك القرود. أنظر، السّيدأدّى شير: مرجع سابق، ص11 .

(164) الجاحظ: البخلاء، ص20 .

(165) نفسه.

(166) ابن طيفور: مصدر سابق، ص ص35 ، 36.

(167) البّاقليّ، الواحدة باقلاه، القبطي نبات حبّه أصغر من الفول، أنظر، بطرس: مرجع سابق، مادّة بقس، ص48 .

(168) الجوزينج، اللّوزينج، من الحلواء، تشبه القطايف، يُؤدم بدهن اللّوز. أنظر، السيّدأدّى شير: مرجع سابق، ص143 .

(169) الجاحظ: الرّسائل الأدبيّة، ص351 .

(170) الجاحظ: الحيوان، ج3، ص 508 .

(171) ابن كثير: مصدر سابق، ص 588.

(172) إبراهيم سلمان الكروي: طبقات مجتمع بغداد في العصر العباسي الأوّل، نشر مؤسّسة المحيط الإعلاميّة، الكويت، 1403هـ/1983م، ص39 .

(173) العصيدة، لما وليّ المنصور قُدّمت له عصيدة، فقال: ليس هذه بالعصيدة الّتي نعرف، ليُعْمَل لنا تمرها بنواه. أنظر، البلاذري(الإمّام أحمد بن يحي بن جابر ت279هـ/892م): جُمل من أنساب الأشراف، حققّه وقدّم له أ.د سهيل زكّار، ود. رياض الزرّكلي، دار الفكر للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، 1417هـ/1996م، ج4، ص 260 .

(174) البستندود، نوع من الفطائر. أنظر، السّيّد(علاء الدّين رمضان):صورة المجتمع العباسي في كتاب البخلاء، مقال، جذور، النّادي الأدبي الثّقافي، جدّة، السّعوديّة، مج7، 2003م، ص 396 .

(175) الجاحظ: البخلاء، ص42 .

(176) الثريد، هو أكل العرب قبل أن يمتزجوا بغيرهم. أنظر، طيبة النّشر: مرجع سابق، ص84 .

(177) الجاحظ: مصدر سابق، ص 48.

(178) الجاحظ: نفس المصدر، ص74 .

(179) الجاحظ: نفس المصدر، ص44 .

(180) الجاحظ: نفس المصدر، ص66 .

(181) النّارجيل:هو الجوز الهندي، وهو تعريب النّاركيل. أنظر، السّيدأدّى شير: مرجع سابق، ص152 .

(182) الجاحظ: الحيوان، ج4، ص53 .

(183) الجاحظ: البخلاء، ص47 .

(184) الشّطرنج، لعبة، مُعرّب شُدْرتك، أي من اشتغل به ذهب عناؤه باطلا، وقيل: معرب شُتَرَنْك، أي ستّة ألوان، له ستّة أصناف من القطع وهي الشاه، الفرزان، الرّخ، الفرس، الفيل، البيدق، وهومن مخترعات رجل من حكماء الهند، قدّمه إلى ملكهم، وقيل: إنّ هذه اللعبة أخترعت في زمن أنوشروان. أنظر، السّيداأدّى شير: الألفاظ الفارسيّة ، ص ص101 ،102 .

(185) النّردشير:النّرد، عجمي معرّب، وشير، معناه حلو، وقيل: هو خشبة قصيرة ذات فصوص، يُلعب بها، وقيل: وضعه أردشير بن بابك. أنظر، ابن أبي الدّنيا (أبو بكر ، عبدالله بن محمّد بن عبيد بن سفيان القرشي ت281هـ): مجموعة رسائل ابن أبي الدّنيا، كتاب العقل وفضْله، ويليه كتاب: ذمّ الملاهي ، دراسة وتحقيق: السّعيد بن بسيوني زغلول، يسري عبد الغني عبد الله، مؤسّسة الكتاب الثّقافيّة، بيروت، لبنان، الهامش رقم2، ص81 .

(186) الشُطّار، فئة من العامّة ظهروا أثناء صراع الأخوين، لا يملكون إلاّ أدوات الجريمة، سلبوا ونهبوا وقطعوا الطّرق واستولوا على أموال التّجار الأغنياء. أنظر، إبراهيم سلمان الكروي: طبقات مجتمع بغداد في العصر العبّاسي الأوّل، ص101 .

(187) الجاحظ: الحيوان، ج2، ص385 .

(188) يورد الآجري خبرا بتحريم اللّعب بالنّرد أنّ الرّسول –صلّى الله عليه وسلّم– قال"مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدِ، فَكَأَنَّمَا أَصْبَغَ يَدَهُ فِي لَحْمِ الخِنْزِيرِ". أنظر، الآجري(الإمّام الحافظ، أبي بكر، محمّد بن الحسين ت360هـ): تحريم النّرد والشّطرنج والملاهي، دراسة وتحقيق واستدراك: محمّد سعيد عمر إدريس ويليه بحث خاص في الأغاني والمعازف وآلات الملاّهي للمحقّق، الطّبعة الأولى،1402هـ/1982م، إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدّعوة والإرشاد، المملكة العربيّة السّعوديّة، ص111 .

(189) ربّما الصَوْلجان وهو العصا المعقوفة مثل المضرب، تُقذف به الكرة، وكان ملوك الفرس يتّخذونه من الذّهب شعارا لهم. أنظر، أبوحنيفة الدّينوري(أحمد بن داود ت282هـ): الأخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر، مراجعة: الدّكتور جمال الدّين الشّيّال، وزارة الثّقافة والإرشاد القومي، الإقليم الجنوبي، 1379هـ/ 1959م ، ص44 .

(190) الجاحظ: الحيوان، ج2، ص 385.

(191) التّنوخي: نشوار المحاضرة وحُسن المذاكرة، م2، ص271 .

(192) السّيوطي: تاريخ الخلفاء، ص277 .

(193) نفسه .

(194) السّيوطي: نفس المصدر، ص277 –280 .

(195) السّيوطي: نفس المصدر، ص 283 ، 284 .

(196) السّيوطي: نفس المصدر، ص284 .

(197) السّيوطي: نفس المصدر، ص ص284 ، 285 .

(198) السّيوطي: نفس المصدر، ص290 .

(199) الأصفهاني(حمزة بن الحسن):كتاب ملوك سنّي الأرض والأنبياء عليهم الصلاة والسّلام ، د.ط.ت، ص188 .

(200) الأصفهاني: نفس المصدر، ص ص189 ، 190 ؛ يذكر اليعقوبي في تاريخهفي سنة242هـ/857م :كانت الزلازل بقومس ونيسابور وماوالاها حتّى مات بقومس خلقاكثيرا. أنظر، اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج2، ص455 .

(201) الأصفهاني: كتاب ملوك سنّي الأرض، ص90 -193 .

(202) الأصفهاني: نفس المصدر، ص ص193 ، 194 .

(203) الأصفهاني: نفس المصدر، ص ص202 ، 203 ؛ وفي سنة 308هـ/921م غلت الأسعار ببغداد، وسبغت العامّة؛ لكون حامد بن العباس ضمن السّواد، وجدّد المظالم، ووقع النّهب، وركب الجند فيها، وشتّتهم العامّة، ودام القتال أيّاما، وأحرق العامّة الحبس، وفتحوا السّجون، ونهبوا النّاس، واختلفت أحوال الدّولة العباسيّة جدّا. أنظر، السّيوطي: تاريخ الخلفاء، ص 284 .

(204) الأصفهاني: كتاب ملوك سنّي الأرض، ص ص 203 ، 204 .

(205) الأصفهاني: نفس المصدر، ص205 .

(206) السّيوطي: تاريخ الخلفاء، ص 294 .

(207) السّيوطي: نفس المصدر، ص 297 .

(208) السّيوطي: نفس المصدر، ص 322 .

الملاحق

الملحق: رقم 1

خلفاء بني العباس في العراق

السّفاح132هـ/136هـ -750م/754م

المنصور(أبوجعفر،عبد الله)136هـ/158هـ-754م/755م

المهدي(أبوعبد الله، محمّد بن المنصور)158هـ/169م -755م/786م
الهادي(أبوعبد الله، محمّد بن المنصور)169هـ/170هـ-786م/787م
الرّشيد (هارون، أبوجعفر)170هـ/193هـ-787م/809م
الأمين(محمّد، أبوعبد الله)193هـ/198هـ-809م/814م
المأمون(عبد الله، أبوالعباس)198هـ/218هـ-814م/833م
المعتصم بالله(أبواسحاق، محمّد بن الرّشيد)218هـ/227هـ-833م/842م
الواثق بالله(هارون)227هـ/232هـ-842م/847م
المتوكل على الله(جعفر)232هـ/247هـ-847م/861م
المنتصر بالله(محمّد، أبوجعفر)247هـ/248هـ-861م/862م
المستعين بالله(أبو العباس)248هـ/252هـ-862م/866م
المعتزّ بالله(محمّد بن المتوكل)252هـ/255هـ-866م/869م
المهتدي بالله(محمّد بن الواثق)255هـ/256هـ-869م/870م
المعتمد على الله(أبوالعباس)256هـ/279هـ-870م/893م
المعتضد بالله(أحمد بن الموفق)279هـ/289هـ-893م/902م
المكتفي بالله(أبومحمّد بن المعتضد)289هـ/295هـ-902م/908م
المقتدر بالله(أبوالفضل، جعفر بن المعتضد)295هـ/319هـ-908م/931م
القاهر بالله(أبو منصور)319هـ/322هـ-931م/934م
الرّاضي بالله(أبوالعباس)322هـ/329هـ-934م/941م
المتّقي لله(أبو إسحاق)329هـ/333هـ-941م/945م
المستكفي بالله(أبو القاسم)333هـ/334هـ-945م/946م
المطيع لله(أبو القاسم)334هـ/363هـ-946م/974م
الطائع لله(أبو بكر)363هـ/393هـ-974م/1003م
القادر بالله(أبو العباس)393هـ/422هـ-1003م/1031م
القائم بأمر الله(أبو جعفر)422هـ/467هـ-1031م/1075م
المقتدي بأمر الله(أبو القاسم)467هـ/487هـ-1075م/1095م
المستظهر بالله(أبو العباس)487هـ/512هـ-1095م/1119م
المسترشد بالله(الفضل بن المستظهر بالله)512هـ/529هـ-1119م/1135م
الرّاشد بالله(أبوجعفر)529هـ/530هـ-1135م/1136م
المقتفي لأمر الله(أبو عبد الله)530هـ/555هـ-11336م/1161م
المستنجد بالله(أبو المظفر)555هـ/566هـ-1161م/1171م
المستضيء بأمر الله(الحسن)566هـ/575هـ-1171م/1180م
النّاصر لدين الله(أحمد)575هـ/622هـ-1180م/1226م
الظاهر بأمر الله(أبو نصر)622هـ/623هـ-1226م/1227م
المستنصر بالله(أبو جعفر)623هـ/640هـ-1227م/1243م
المستعصم بالله(أبو أحمد بن المستنصر بالله)640هـ/659هـ-1243م/1262م

العباسيون في مصر:

المستنصر بالله(أحمد بن الظاهر بأمر الله)659هـ/661هـ-1262م/1264م
الحاكم بأمر الله(أبو العباس بن الحسن)661هـ/701هـ-1264م/1302م
المستكفي بالله(أبو الرّبيع، ابن الحاكم بأمر الله)701هـ/740هـ-1302م/1340م
الواثق بالله(إبراهيم بن المستمسك)740هـ/742هـ-1340م/1342م
الحاكم بأمر الله(أبو العباس بن المستكفي)742هـ/753هـ-1342م/1353م
المعتضد بالله(أبو الفتح)753هـ/763هـ-1353م/1363م
المتوكل على الله(أبو عبد الله بن المعتضد)763هـ/805هـ-1363م/1404م
الواثق بالله(عمر بن إبراهيم)785هـ/788هـ-1384م/1387م
المستعصم بالله(زكرياء بن إبراهيم)788هـ/791هـ-1387م/1390م
المستعين بالله(أبو الفضل بن المتوكل)808هـ/815هـ-1406م/1413م

المعتضد بالله(أبو الفتح)815هـ/824هـ-1413م/1422م
المستكفي بالله(أبو الرّبيع بن المتوكل)825هـ/854هـ-1423م/1456م
القائم بأمر الله(أبو البقاء)854هـ/859هـ-1451م/1456م
المستنجد بالله(خليفة العصر، أبو المحاسن)859هـ/884هـ-1456م/1480م
المتوكل على الله(أبو العزّ، عبد العزيز بن يعقوب بن المتوكل)884هـ/903هـ-1480م/ 1499م